لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي يس والزمر

(٢٣-٢٤)

العنوان: لطائف البيان في تفسير القرآن.

تفسير: جزئي يس والزمر (23 – 24).

تألِيف: أ.د. حسن بن محمد شبالة.

الصفحات: (337).

الطَّبعة: الأولى، 1446هـ – 2025م.

النَّاشِر: غافق للدراسات والنشر.

رقم الإيداع: الهيئة العامة للكتاب بصنعاء برقم (126) 2024م.

إخراج فني وإلكتروني: هشام بن حسين الأهدل.

النَّاشِر

غافق للدراسات والنشر

GAFEQ for studies and publishing

اليمن - صنعاء

gafeq.s.p@gmail.com

+967 71 71 72 770

GAFEQ.S.P

الأهدل

782 16 12 14

لطائف البيان في تفسير القرآن

تفسير جزئي يس والزمر

(٢٣-٢٤)

تأليف

أ.د/ حسن بن محمد بن علي شبالة
أستاذ الحديث والتفسير في جامعة إب

غافق للدراسات والنشر
GAFEQ for studies and publishing

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن شرف العلم بشرف المعلوم، وإن الاشتغال بتدبر القرآن الكريم وتفسيره من أقرب القربات إلى رب الأرض والسموات، خاصة إذا صلح القصد، وخلصت النيات، وقد يسّر الله لنا إقامة مجموعة من الدروس في تفسير عدد من أجزاء القرآن الكريم خلال السنوات الماضية في مسجد الأنصار – جوار جامعة القلم، بمحافظة إب، اليمن.

وكانت تلك الدروس عبارة عن درس أسبوعي طوال العام بين مغرب وعشاء، ودرس يومي بعد العصر في شهر رمضان، ويتم تسجيل هذه الدروس، وتُنشر في وسائل التواصل، وقد نفع الله بها كثيراً.

وقد حرصت أثناء إلقاء هذه الدروس على تقريب المعنى للسامعين ممن يحضرون الدروس من طلبة العلم وعموم الناس، واقتصرت على ذكر الراجح من تفسير معاني الآيات، وحرصت على ربطها بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم غالبًا، مع أخذ الدروس والعِبر منها بقدر الإمكان.

وقد اقترح عليّ بعض الأفاضل أن يتم تفريغها نصيًا من قبل بعض الطلاب، وأن أقوم بمراجعتها وحذف ما لا يناسب النشر من كلمات وعبارات، وتوثيق

بعض النصوص، وتخريج الأحاديث، ومن ثم نشرها مطبوعة في سلسلة كتب ليسهل الاطلاع عليها لمن أراد الاستفادة منها، وسميته: "**لطائفُ البيان في تفسير القرآن**".

وقد تم ولله الحمد إنجاز الكتاب الرابع من هذه السلسلة، والذي يحتوي على تفسير جزئي: (يس، والزمر)،(23-24).

ويسرّني هنا أن أشكر الإخوة الذين ساهموا في تفريغ هذه الدروس وتوثيق نصوصها وراجعوها، وأسأل الله تعالى أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يكتب لهم الأجر والثواب.

كما أنبّه القرّاء الكرام إلى أننا نفتح صدورنا لملاحظاتهم على هذه الطبعة التجريبية، فهي لن تسلم من الأخطاء، رغم حرصنا على تجاوزها، لكن العمل البشري معرّض للخطأ.

وبإمكانهم التواصل معنا عبر الواتس: (00967733700559)، أو الإيميل: (Shabalh220@gmail.com).

نسأل الله تعالى أن ينفع بها الجميع، وأن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعاً، والله الموفّق والهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

إب الخضراء – اليمن

1 رجب الخير 1446.

تفسير جزء يس

(23)

تفسير سورة يس

تفسير المقطع الأول من سورة يس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤
تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ
أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ
٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩
وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ
وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ
وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

شخصية السورة:

سورة يس؛ سورة مكية بالإجماع[1]، **والمقصد العام للسورة:** هو إثبات الرسالة والبعث، وذكر الدلائل على ذلك، **وقد ورد في فضل هذه السورة عدة**

(1) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (4/ 445)، وتفسير القرطبي (15/ 1).

أحاديث، أغلبها ضعيفة، ومن أشهرها حديث: "اقرأوا على موتاكم يس"[(1)]، **وقد اختُلف في تصحيحه،** فمن صحّحه قال: تُقرأ يس على المريض عند مرض الموت[(2)]؛ حتى تخرج روحُه بسهولة، ولا بأس بقراءتها بهذا المعنى، وأما أن تُقرأ فقط في المقبرة عند دفنه فهذا تخصيص بلا مُخصص، فالقرآن كله رحمة، ويُقرأ للعظة والعبرة ونحو ذلك، **وأما من ضعّف الحديث** فقال: لا تُقرأ لا على مريض ولا على ميت[(3)]، لعدم صحة الحديث.

وابتدأت بقوله: ﴿يسٓ ①﴾، اختلف المفسرون في معناها على أقوال، الأول: أنها أحرف مقطعة كالتي ابتدأت بها بعض سور القرآن الكريم[(4)]، **مثل:** ﴿الٓمٓ﴾، وغيرها، **وقيل:** هو اسم لرسول الله ﷺ[(5)]، **وقيل:** معناها يا رجل[(6)]، **وقيل:** معناها يا إنسان[(7)]، ونحوها من الأقوال، والراجح القول الأول، **وفيه إشارة إلى** إعجاز القرآن، فكل السور التي افتُتحت بالأحرف المُقطعة، يُذكر

(1) رواه ابن ماجه: (1/ 466)، برقم (1448)، وأبو داود: (3/ 191)، برقم (3121)، والنسائي في السنن الكبرى، (9/ 394)، برقم (10846)، وابن حبان في صحيحه، (7/ 269)، برقم (3002)، عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **والحديث** ضعفه الألباني، وصححه ابن حبان (7/ 272)، برقم (3004)، (12/ 242)، ورقم (5423) من طريقين: عن أبي هريرة وابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(2) ينظر: شرح سنن ابن ماجة للسيوطي وغيره، (104).

(3) ينظر: الشرح الممتع على زاد المستقنع، لابن عثيمين (5/ 370).

(4) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (22/ 344).

(5) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 516).

(6) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 488).

(7) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 516).

بعدها القرآن، **والمعنى**: أن هذا القرآن الكريم المُعجِز البليغ مُكوّنٌ من هذه الأحرف التي هي أحرف لغة العرب وتعرفونها جميعًا، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بسورة مثله، وأنتم العرب البُلغاء الفُصحاء.!!

وقوله: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾، **الواو** حرف قسم، **والقرآن** مُقسَمٌ به، ووصفه بأنه حكيم، **أي**: مُحكم، **كما قال**: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾[فصلت:42]، وفيه حكمٌ ودلالات، وهو حكيم في أحكامه، وصالح لكل زمان ومكان، وصادق وصحيح، فلا كذب فيه ولا خطأ ولا خلل، **وقد وصف الله القرآن بعدة أوصاف**: وصفه بأنه مبارك، ومجيد، وكريم، وسماه بعدة أسماء، **منها**: الفرقان، والقرآن، والذكر، وغيرها من الأسماء والصفات التي تدل على عظمة القرآن الكريم، وهو كلام الله الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، المعجز بلفظه ومعناه، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، الذي أوّله سورة الفاتحة، وآخره سورة الناس.

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾، هذا جواب للقسم، فقد أقسم الله تعالى بالقرآن الحكيم، إن محمداً ﷺ لمن المرسلين، **والمعنى**: لست أول الرسل، فقد سبقك عددٌ جمٌ من الرسل، **فقد جاء عن أبي ذر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟، قال: "مائة وأربعة وعشرون ألفًا"، قلت: فكم الرسل من ذلك؟، قال: "ثلاث مائة وخمسة عشر، جمًا غفيراً"[1]،

---

(1) رواه البزار في مسنده: (2/ 77)، برقم (361)، والطبراني في مسند الشاميين: (3/ 154)، برقم (1979)، وابن حبان في صحيحه: (2/ 76)، برقم (361)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (2668).

ومحمد ﷺ أفضلُهم وخاتمُهم، **كما في قوله تعالى:** ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:40].

وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾، هذا وصفٌ آخر لرسول الله ﷺ، **والمعنى:** أنت من المرسلين الذين أرسلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وجعلك على منهج ودين قويم وطريق واضح مستقيم لا اعوجاج فيه.

وقوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾، إخبار عن القرآن، وأنه منزّل على رسوله الكريم، من الله العزيز الرحيم، وفي لفظ تنزيل قراءتان، بالرفع على أنه خبر لمبتدأ، تقديره هو تنزيل، وبالنصب على المصدرية، **أي:** نَزَّله تنزيلاً[1]، وأضاف التنزيل إليه، لبيان أن القرآن صفة من صفاته، وليس شيئاً مُحدَثاً حتى يخلقه، وجمع بين (العزيز والرحيم) لحكمة تُعرفُ من السياق، **وهي:** أن هذا القرآن الذي أنزله الله يحتوي على العذاب والإنذار والإهلاك للكافرين المكذبين، وفعل ذلك بهم من مُقتضى عزة الله سبحانه، كما يحتوي القرآن الكريم على البِشارة والأجر والثواب والخير واللطف بمن آمن به وأطاعه، وفعل ذلك من مُقتضى رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا استشعر العبد ذلك؛ امتثل الأمر وترك النهي.!!

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾، **اللام** للتعليل، فالهدف والغاية من إرسالك يا محمد، هو الإنذار، وهي إحدى مُهمات الرسول

(1) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (20/ 491).

ﷺ، وأول من يجب عليه إنذارُهم هم قومه من قُريش، ولم يسبق أن بعث الله في آبائهم رسولاً، ولذا وصفهم بالغفلة؛ بسبب بُعدِهم عن الرسالة، فهم غافلون عن عبادة الله، ومُعرضون عن توحيده والإيمان به.

وقوله: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧﴾، **وفي معنى القول هنا قولان، الأول:** العذاب سواءً كان دُنيويًا أو أُخرويًا[1]، **والثاني:** أنهم لا يُؤمنون، فقد سبق في علم الله كفرهم[2]، ولا تعارض بينهما؛ فالثاني سبب للأول، فقد سبق في علم الله أنهم لن يحصل من أكثرهم الإيمان؛ فلذلك حق عليهم العذاب، وقد قُتل من أهل مكة في بدر سبعون شخصًا، وهم على الكفر[3]، والعياذ بالله، وقِلة منهم من آمن، ومنهم أبو سفيان، فقد نجى من القتل في بدر، وكان مسؤول القافلة، ثم أسلم عام الفتح، فهذا وغيره ممن آمن ممن لم يحق القول عليهم أنهم محرومون من الإيمان، والإخبار بعدم إيمانهم إشارة إلى عدم دخول الإيمان إلى قلوبهم مهما أنذرهم وبلغهم، فهداية التوفيق ليست بيد الرسول ﷺ، بل بيد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فهو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.!!

ثم بيّن الأسباب والعوائق التي منعتهم من الإيمان، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨﴾، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى

---

(1) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (4/ 446).

(2) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 492).

(3) ينظر: سيرة ابن هشام (1/ 714).

لحال الكفار الذين لم يوفقوا للإيمان، كحال شخصٍ غُلت يداه إلى عُنقه[1]، **والمعنى**: أن هؤلاء الكفار حالُهم كحال الذي تربط يداه إلى عنقه، والأذقان جمع ذقن وهي أسفل الوجه، فإذا رُبطت الأيدي إلى العُنق ووضعت الأيدي تحت الذقن، فمعنى ذلك أنها ترفع الرأس، وهو الإقماح، **فالمقمَح**: الغاضّ بصره بعد رفع رأَسه[2]، فتصير رؤوس المُغلولة أيديهم إلى أعناقهم مرفوعة لا يستطيعون إنزالها بسبب الأغلال، فيمشون وهم ينظرون إلى أعلى، فلا يرون الطريق فيضلون ولا يصلون إلى مبتغاهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾، وصيّر الطريق الذي يمشون فيه مسدوداً من أمامهم، فإن أرادوا الرجوع إلى الخلف وجدوه مسدوداً أيضًا، فهم مُحاصرون من الأمام ومن الخلف، وقد أصابت أعينهم الغشاوة؛ فلا يستطيعون الرؤية بها، فبيّن الله بهذا المثل الذي ضربه للكافر الذي لم يؤمن، بشخص وضع أمامه ثلاثة عوائق منعته من الوصول إلى هدفه، **وهي**: الإقماح **وهو**: غل اليدين إلى العُنق، وهذه كافية في تقييد حركته، وسد الطريق من أمامه ومن خلفه، وإصابة عينيه بالغِشاوة فلا يرى شيئًا!!، وفي هذا المثل تقريب للمعنى عند السامع.

وقوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾، **بيان** أنهم هم الذين لن يستفيدوا من الإنذار، فالإنذار وعدمه سواء عليهم، لعدم استفادتهم

(1) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (4/ 447).

(2) ينظر: الأضداد لابن الأنباري (ص: 231).

منه، وفيه إشارة إلى أنه قد سبق القول عليهم بالحرمان من الهداية في علم الله، **ومن الأمثلة على ذلك:** عمه أبو طالب، فقد أنذره النبي ﷺ وحاول معه مراراً وتكراراً، وزاره في مرض موته، وقال له: "يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله"، فقال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على الكفر[1]، أما أنت يا محمد، فلا بد أن تُنذرهم ولو لم يستفيدوا من إنذارك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١﴾، إنما يستفيد من الإنذار الشخص الذي يعمل بما سمع من الذكر، **وهو:** القرآن[2]، **وقيل:** من قصد اتباع الحق،[3]، **وقيل:** كل ما يُذكّر بالله[4]، ولا تعارض بين هذه المعاني كلها، وأقبل على ذلك العمل بتعظيم الله في قلبه وهو غائبٌ عن عينيه فلا يراه، ولكنه يُؤمن به، ويعتقد أن الله يراه،[5]، **وقيل:** يخشاه ويعظمه إذا كان خالياً[6]، فخشية الله بالغيب؛ تظهر عندما يكون العبد وحده؛ لأن إظهار الخشية أمام الناس قد يكون رياءً وسمعة، ولا تعارض بين القولين، فالإحسان أعلى مراتب الدين، والإيمان بالغيب ركنٌ عظيم من أركان الإيمان، والذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات كبعض الماديين، فهؤلاء

(1) رواه البخاري: (2/ 95)، برقم (1360)، ومسلم: (1/ 54)، برقم (24).
(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 519).
(3) ينظر: تفسير السعدي (ص/ 692).
(4) ينظر: تفسير الألوسي (11/ 390).
(5) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 11).
(6) ينظر: تفسير ابن كثير: (6/ 565).

يتناقضون مع أنفسهم، وقد ناقش بعض العلماء شخصاً كان يقول: أنا لا أؤمن بالله، لأني لا أراه، فقال له: بل هو موجود في آياته وفي أفعاله في هذا الكون، فقال: أنا لا أؤمن إلا بشيءٍ أراه، فقال له: وأنا لا أؤمن ولا أُصدق أنك عاقل، فأنت شخصٌ مجنون، فقال: كيف تصفني بالجنون وأنا بين يديك شخص عاقل، أسمع كلامك وأناقشك وأحاورك؟ فقال: لأني لا أرى عقلك، فأنت مجنون ولا عقل لك، فأقرّ الرجل بأن ما كل غيب يُنكر، بل تدل عليه آثاره، **كما قيل**[1] **عن الله:**

وفي كـــل شـــيءٍ لـــه آيـــةٌ تـــدل علـــى أنـــه الواحـــد

وقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾، وهذه هي المهمة الثانية للنبي محمد ﷺ، فالمهمة الأولى كانت الإنذار والتخويف للكفار، والثانية التبشير بالخير للمؤمنين، ولذلك يُقال للنبي ﷺ: البشير النذير، والمعنى: من آمن بك واتبع الهدى؛ فبشره بمغفرة من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لجميع ذنوبه، وبشره بالأجر الكريم الذي هو الجنة، وفيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.!!

وقولـــــه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾، كان إحياء الموتى قضية تنكرها قريش؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور، وقد كثُر الحديث عنها في الآيات المكية لمعالجتها، **وقيل:** إن هذه إشارة إلى إمكانية إحياء قلوب الكفار بالإيمان[2]، إذا تعرّضوا لهُدى الله،

(1) البيت الشعري لأبي العتاهية، ينظر: بغية الطلب في تاريخ حلب، لكمال الدين ابن العديم، (4/ 1762).

(2) ينظر: تفسير السمعاني (4/ 369).

كما قال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾[الأنعام:122]، فالميت هنا ليس ميت الأحياء، وإنما هو ميت القلب، فمن تعرّض للذكر والموعظة والهداية ودعا الله، فإن الله يحيي قلبه، كما حصل لعدد من كفار قريش من مسلمة الفتح، فقد أحيا الله قلوبهم، وأسلموا، والراجح الأول.

والمقصود إحياء الموتى من قبورهم يوم القيامة، لسياق الآيات، **فقد قال بعدها:** ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾، فالكتابة لأعمالهم كانت موجودة أثناء ما كانوا أحياءً في الدنيا، ولكنه قدّم الإحياء؛ لعظمة فعل إحياء الموتى، فهو أعظم وأكثر أدلة وإبهاراً للعقول من مجرد كتابة أعمال الناس، لذا أخرها في الذكر، وهي أقدم في الترتيب، **ومعنى ما قدموا هو:** الشيء الذي فعلوه قبل موتهم، ومعنى آثارهم هو: الشيء الذي تركوه بعد وفاتِهم، من الأعمال الحسنة أو السيئة(1)، التي بقيت مستمرة بعد موت الإنسان، **كما في الحديث:** "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة"(2)، فمن سن الفجور، واستمر الناس يفجرون بعده، فهذا أثر من آثاره السيئة، ومن بنى لله مسجداً، واستمر الناس يُصلون فيه، فهذا أثر من آثاره الحسنة، **وقيل:** معنى ما قدموا، **أي:** النية، والأثر، **أي:** العمل(3)، فإن النية تسبق العمل، وهل هي خالصة أو غير خالصة؟!، فهذه يكتبها الله، ثم يكتب العمل، وهل هو موافق

(1) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 519).

(2) رواه مسلم: (2/ 704)، برقم (1017)، عن جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(3) ينظر: مفاتيح الغيب، للرازي (26/ 258).

للشرع أو غير موافق؟!، فيكتب الله كل ما يعمله الإنسان من خيرٍ أو شر مما نواه ومما فعله، مما له أثر بعد حياته أو انتهى في حياته، وهذا القول أرجح لدخول القول الأول فيه.

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَىۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾، وكلَ شيء من الأعمال والنيات سجلناها وعددناها ولم نترك شيئا منها، فالإحصاء هو العد، والكتابة التقييد، والإحصاء أبلغ من الكتابة، ففيه معرفة العدد بلا زيادة ولا نقصان، **كما قال:** ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾[الكهف:49]، **أي:** والإمام هو الكتاب كما في قوله: ﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۢ بِإِمَٰمِهِمۡۖ﴾ [الإسراء:71]، **أي:** بكتابهم، والمقصود به هنا اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الأعظم الذي تدوّن فيه أعمال الخلق.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن افتتاح بعض السور القرآنية بالأحرف المُقطعة، فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

2 - أن أغلب آيات الأحكام تختتم باسم أو اسمين من أسماء الله تعالى؛ ليستشعر العبد عظمة الله، في تطبيقها وامتثالها.

3 - من أساليب القرآن الكريم ضرب الأمثال للناس، فقد ضرب الله مثلاً للكافر الذي لم يؤمن، بشخص منعته ثلاثة عوائق من الوصول إلى هدفه، وهي: غل اليدين إلى العُنق، وهذه كافية في تقييد حركته، وسد

الطريق من أمامه ومن خلفه، وإصابة عينيه بالغِشاوة؛ فلا يرى شيئًا.!!

4- أن الله يكتب كل ما يعمله الإنسان من خيرٍ أو شر مما نواه ومما فعله، مما له أثر بعد حياته أو انتهى في حياته، ويحصيه بلا زيادة ولا نقصان، ثم يحاسب عليه صاحبه يوم القيامة.

تفسير المقطع الثاني من سورة يس

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾
وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ
وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ
﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي
وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي
شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ
فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي
وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، أن يذكر لكفار مكة مثالاً للمكذبين قبلهم، فذكر لهم قصة أصحاب القرية، التي كذبت الرسل الذين أرسلهم الله إليها، لعلهم أن

يتعظوا ويعتبروا بها؛ لأن عاقبة المكذبين واحدة، والقرية هي أنطاكية، عند كثير من المفسرين[1]، ولكن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يستنكر هذا القول، ويرى أن هذه القرية من القُرى المُعظمة عند النصارى، والتي لم يُهلك أصحابُها، ولم يُدمر سكانُها، إلا إذا كان المقصود بأنطاكية مدينة أخرى غير أنطاكية المعروفة عند النصارى[2]، **والمُرسلون قيل**: هم رسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[3]، فقد اختار من حوارِيِّيه اثنين فأرسلهما إلى تلك القرية، يدعوان أهلها إلى الإيمان، فلما كذبوهما أرسل شخصاً ثالثاً، **فيكون المُرسِل** هو عيسى، **والمرسلون** رُسل عيسى، **وقيل**: إن المُرسِل هو الله[4]، وأن هؤلاء رُسُل بعد عيسى، لم تُذكر أسماؤهم، **وإذا قلنا**: إن المرسِل هو عيسى، فالمرسلون دعاة مُبلغون للدعوة، وليس بالضرورة أن يكونوا أنبياء، **وإذا قلنا**: إن المُرسِل هو الله، فتكون الرسالة على معناها وأنهم رُسل وأنبياء أرسلهم الله إلى أهل هذه القرية، والسياق وظاهر اللفظ يُشير إلى أن الرُسل من الله، ورجح هذا القول ابن كثير[5].

وقوله: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾، ولم يُذكر اسم هؤلاء المُرسلين، **فيدخلون تحت قوله**: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ

(1) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 500)، والمحرر الوجيز، لابن عطية (4/ 449)، وتفسير القرطبي (15/ 14)، والنكت والعيون، للماوردي (5/ 10).

(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: (6/ 574).

(3) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 500).

(4) ينظر: النكت والعيون، للماوردي (5/ 11).

(5) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (6/ 573).

عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء:164]، **والمعنى**: ذكرنا لك أسماء بعض الرسل، ولم نذكر لك أسماء الآخرين، وقد سبق[1] أن عدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، ولم يُذكر لنا في القرآن منهم إلا خمسة وعشرون شخصًا، **وقد ذكر بعض المفسرين أن اسم الأول**: صادقٌ، **والثاني**: صدوق، **والثالث**: شمعون[2]، وهي أقوال إسرائيلية لا دليل على صحتها، فقال الرسل لأهل القرية: نحن أرسلنا الله إليكم لدعوتكم إلى دينه، **وهذا يدل على** أن رسالات الأنبياء السابقة كانت محصورة ومخصوصة بأقوام معيّنين، بينما محمد ﷺ رسالتُه للناس كافة.

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، فكان رد أهلِ القرية على المرسلين بشبهة يتوارثها الكفار في تكذيب الرسل، وهي: استبعادهم أن يكون الرسول من البشر، وهو استبعاد باطل، ولو أرسل الله رسولاً من الملائكة للزم أن يكون في صورة بشر حتى تراه العيون ويقتدي الناس بفعله، **كما قال**: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام: ٩]، وسيبقي اللبس لا يزول، ثم أضافوا سببًا آخر لتكذيبهم، فنفوا أن يكون الله أنزل وحيًا أو أرسل رسلاً إلى الخلق، ثم ازدادوا في وقاحتهم ورفضهم، فقالوا للرسل: أنتم تكذبون على الله وعلى الخلق بهذه الدعوى، **فرد عليهم المرسلون، بقولهم**: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾، وهذا

---

(1) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: (3) من هذه السورة.

(2) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 14).

أُسلوب قسَم صحيح، ولكن صيغته صيغة الخبر، **والمعنى**: نحن أرسلنا الله إليكم، وربنا يعلم ذلك، ولم نفترِ على الله، ثم بيّنوا مهمتهم، **فقالوا**: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ ﴾، نحن نبلغكم الرسالة، وندعوكم للإيمان، وليس علينا إدخال الإيمان والهداية إلى قلوبكم، فالله هو الذي بيده ذلك.!!

فرد أهل القرية المكذبون على الرسل بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾، **أي**: أنتم سبب الشؤم للبلاد والعباد، وهذا القول منهم من العجائب، ويدل على انتكاس فِطَرهم، فإذا انتكست فِطَر الناس جعلوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، فكيف يكون هؤلاء الرُسل، المطهّرون سبباً للشؤم والطيرة؟! وقد جاؤوا بالإيمان والتوحيد، ويدعون الناس إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، وليسوا بمجرمين ولا فُسّاق، ولا أكلة المال الحرام، ولا مُنتهكين للأعراض،!!، بل هم سبب للبركة، ولن يكونوا سبباً للشؤم والشقاء!!، وليس هؤلاء أول من تطيّر بالرسل، فقد سبقهم غيرهم من الكفار، كقوم فرعون وغيرهم.

ثم هددوا الرسل بقولهم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ ﴾، فلم يكتفوا بوصف هؤلاء الرسل بأنهم شؤم وأنهم سبب للبلاء الذي نزل بهم، بل طلبوا منهم ترك الدعوة والابتعاد عنها، فإن لم يفعلوا رجموهم وآذوهم، **والرجم يُطلق على معنيين**: **إما** الكلام السيء الجارح للآخرين[1]، **أو** الرجم بالحجارة وإصابتهم

---

(1) ينظر: تفسير السمعاني (4/ 372).

بها حتى يهلكوا[1]، **والراجح الأول؛** لأن السياق بعده يدل عليه، **وهو قولهم:** ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، **أي:** برجمكم بالحجارة رجماً يجعلكم تذوقون العذاب من خلاله حتى تموتوا أو تهلكوا بسببه، فهددوا الرسل بهما معاً، بالأذية المعنوية النفسية، والأذية الحسية الجسدية.!! سبحان الله!! كيف تجرّأ أصحاب القرية على هؤلاء الرسل، الذين جاءوا يدعونهم إلى الإيمان والخير بهذا الرد القبيح؟!!

وقد نزلت هذه الآيات في مكة من أجل تثبيت وتسلية قلب رسول الله ﷺ وأصحابه، لتشعره أن ما يحصل لك ولأصحابك من أذية كفار قريش؛ قد حصل مثله لمن قبلك من الرسل!، فاعتبر بهذا أيها الداعية المُوفّق، فقد يحصل لك شيء من المخالفة والرفض من قِبل مَن تدعوهم إلى الله من الناس، فلا بد أن تُوطّن نفسك على الصبر والتحمل.

ثم رد عليهم الرسل بقولهم: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾، **أي:** حظكم من الشر معكم، فكفرُكم وشركُكم هو سبب الشقاء والشؤم لكم، وليس نحن، ولو آمنتم لذهب منكم هذا الشقاء، وهذا يعني أن المعاصي شُؤم، والطاعة بركة، وليس الشؤم في الإنسان نفسه، بل في عمله، فشؤمه يأتي من سلوكه، فجواب قولهم: تطيرنا بكم، هو: طائركم معكم، وجواب قولهم: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، هو قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، **والمعنى:** أتهددونا بالشتم والرجم والعذاب الأليم، لمجرد أننا

(1) ينظر: تفسير السعدي (693).

ذكّرناكم بالله، ودعوناكم إليه، فهذا يدل على الطيش والفساد والظلم وعدم العدل، والواجب عليهم أن يشكروا من ذكّرهم ودعاهم إلى الإيمان والخير ويكافئوه بالخير، **كما في الحديث**: "من صنع إليكم معروفًا فكافئوه"[1].

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، **هذا بيان** لحالهم، وأنهم تجاوزا الحدود في تعاملهم وردهم على دعوة الرسل، **فالإسراف**: مجاوزة الحد في الباطل والفساد، سواء كان في القول أو العمل.

وقوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾، وجاء رجلٌ يمشي بجد واجتهاد، حينما بلغه خبر هؤلاء الرسل، ورد قومه عليهم، وقد كان ساكنًا في طرفها البعيد، وهذا الرجل هو حبيب النجار، **قيل**: كان قد أصابه الجُذام[2]، وكان يشتغل في النجارة وصناعة القصب[3]، فوجّه نصيحته لقومه حين وصلوا إلى مرحلة التهديد والوعيد للرسل، فقال لهم: اتبعوا المرسلين، ولا تعرضوا عنهم، ثم بدأ يُدلل لهم على صدق الرسل ويُشجعهم على الإيمان بهم، **فقال**: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾، فهؤلاء الرسل لم يأتوا من أجل مصلحة أنفسهم، ولم يطلبوا منكم أجراً على تعليمكم ودعوتكم، بل هم أصحاب رسالة، أُمروا بإبلاغها،

---

(1) رواه أبو داود، برقم (1672)، وابن حبان في صحيحه، (8/ 199)، برقم (3408)، عن عبدالله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(2) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 521).

(3) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 17).

ولو كان الأمر يخصهم لطلبوا أجرة، كحال السحرة والدجالين، وهذه الوصف ليس خاصاً بهؤلاء الرسل، بل هو وصف عام لكل الرسل، فقد ذُكر ذلك في أكثر من آية في القرآن على ألسنة عدد من الرسل، ومنهم محمد ﷺ، **كما في قوله:** ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾[الأنعام:90]، وهكذا يجب أن يكون الداعية إلى الله ومعلّم الناس الخير في كل زمان، يدعو إلى الله احتساباً، ولا يأخذ من الناس أجرة؛ حتى يشعروا أنه يُريد لهم الخير، فيقبلوا عليه، ولو دعاهم بمقابل لشعروا أنه هو المستفيد منهم، فابتعدوا عنه، فالدعوة إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مجانية.

وقوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، جاء هذا احترازاً؛ لأن بعض أهل الباطل والضلال قد يدعو غيره إلى باطله بدون أجرة، أما هؤلاء فدعوتهم صالحة، وهم على الحق والصواب، وهذه تزكية من حبيب النجار للرسل الذين دعوا قومه.

ثم بدأ يُناقشهم ويقول لهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، **أي:** وما يمنعني أن أعبد الذي خلقني، وهذا استدلال بالربوبية على الألوهية، فتوحيد الألوهية ملازم لتوحيد الربوبية، فهو الخالق لنا، ونحن راجعون إليه جميعاً، المؤمن والكافر، فذكّرهم بعودتهم إلى الله؛ عسى أن يفيقوا من غفلتهم، فمن علم أنه راجع إلى الله، فلا بد أن يستعد لملاقاته بالإيمان والعمل الصالح.

ثم تنقّل معهم في الحوار والنقاش، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾، كيف يصح أن أعبد إلهاً غير الله؟!!، ولو اتخذت من دون الله آلهة؛ فهذه الآلهة لا تنفعني ولا تُدافع عني لو أراد الله بي شراً، بل لا يستطيعون أن يشفعوا لي، وإن وقعت فهي

غير مقبولة!، وهنا استبعد عن هذه الآلهة الأمرين لعجزها، فلا تشفع له فتخفف عنه العذاب يوم القيامة، ومن باب أولى فإنها لن تُنقذه من النار؛ لأنها لا تنفع ولا تضر.!!، وفي الآية إشارةٌ إلى ترتيب حل المشكلات، فمن أراد أن يُحل مشكلة، فليستخدم أسلوب الشفاعة والحث على معالجتها بالكلام الطيب أولاً، فإن لم ينفع ذلك وكان صاحب قوة وسلطان، فإنه ينتزع الحق لصاحبه بالقوة.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ ﴾، **إي:** إن لم أؤمِن بالله ولم أتبع هؤلاء المرسلين، فأنا في ضلال واضح؛ لأن الحجة قد بانت، والحق قد ظهر لي، فلماذا لا أهتدي به؟!!.

ثم أعلن لهم أنه قد آمن بهؤلاء الرسل، فقال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ ﴾، **قيل:** إنه التفتْ إلى الرسل، وخاطبهم بهذا القول، وأعلمهم بإيمانه وطلب منهم أن يسمعوا ذلك، حتى يشهدوا له بها عند الله[1].

وانتهت القصة نهاية مُفاجئة، وانتقل الحديث من الدنيا إلى الآخرة، فما الذي حصل له؟، **قيل:** إنه بمجرد أن أعلن إيمانه بالرسل؛ ضربه قومُه وداسوه بأقدامهم حتى خرجت أمعاؤه؛ فمات في الحال، فأخذت الملائكة روحه، وأدخلتها الجنة[2]، **وقد ورد في الحديث:** "أن أرواح الشهداء تكون في جوف طيرٍ خُضرٍ تسرح بهم في الجنة"[3]، **ولذا عقّب الله على القصة، بقوله:** ﴿ قِيلَ

(1) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 18-19).

(2) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 509)، وتفسير البغوي (7/ 15).

(3) رواه مسلم: (3/ 1502)، برقم (1887)، بنحوه.

﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾، فلما دخل الجنة، وصار حياً فيها، ونظر إلى ما أعده الله له فيها من خير ونعيم، قال: يا ليت قومي يعلمون، قالوا: مات على الدعوة، فبُعث عليها، وفي الحديث: "يُبعث كل عبدٍ على ما مات عليه"[(1)]، ثم تمنى أن يعلم قومه بما حصل عليه من المغفرة والرحمة من الله بسبب إيمانه، وصيره من المكرمين عنده، فقد أكرمه الله بالشهادة بالدنيا، وأكرمه بدخول روحه الجنة، وهو ما زال في دار البرزخ، ولو علموا بما جازاه الله به من الثواب العظيم، لكان ذلك أدعى إلى إيمانهم بالرسل، وهذا من حرصه عليهم وشفقته ورحمته بهم، وهذه هي صفات الأنبياء والرسل وورثتهم من العلماء والدعاة الصادقين وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ، فقد كان قومه يؤذنه وهو يقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[(2)]، **والفائدة من ذكر حال هذا الرجل؛** تسلية للمستضعفين في مكة من المؤمنين، مثل سمية التي قُتلت وهي تُعذب، وعمار بن ياسر، وغيرهم، **وفي الحديث:** أن النبي ﷺ كان يمر عليهم وهم يعذبون فيقول لهم: "صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة"[(3)]، فليسوا أول من يُفتن في دينه، فقد سبقهم غيرهم فصبروا وثبتوا، فنالوا جزاءهم على ذلك الجنة.

---

(1) رواه مسلم: (4/ 2206)، برقم (2878)، عن جابر.

(2) رواه البخاري، (4/ 175)، برقم (3477)، ومسلم (3/ 1417)، برقم (1792)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) رواه الحاكم في المستدرك، (3/ 432)، برقم (5646)، والبيهقي في شعب الإيمان، (3/ 172)، برقم (1515)، وصحيح السيرة ص154.

ثم بعد عقّب الله سبحانه على هذه القصة، بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾، احتقاراً لهؤلاء القوم الكفرة المجرمين؛ لم ينزل الله عليهم جنداً من الملائكة تعاقبهم على فعلتهم بالرجل الصالح، بل جعل هلاكهم بصيحة واحدة؛ حيث صاح بهم جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فانخلعت قلوبُهم فإذا هم ميتون، وعبّر بلفظ: ﴿خَٰمِدُونَ﴾، تشبيهاً لحالهم بالنار إذا صُبّ عليها الماء، فإنها تنطفئ وتنتهي، وذلك لأن قلوبهم كانت قبل أن ينزل بهم العذاب تشتعل غيظًا وحقداً على الرسل، فجاءتهم الصيحة، فخُمدوا كما تُخمد النار إذا صب عليها الماء، حيث اقتص الله منهم جميعًا، وعاقبهم بسبب فعلهم القبيح بالرجل الناصح لهم، وفي ذلك تحذير وتهديد للسامعين من قريش، أن لا يفعلوا بالمؤمنين كهذا الفعل، فيصيبهم ما أصاب أهل تلك القرية.

فوائد وهدايات من الآيات الآيات:

1- أن من أساليب الدعوة، أسلوب القصة وله تأثير كبير على السامعين.

2- أن الكفر والمعصية شؤم، وأن العبادة والطاعة بركة.

3- أن من انتكاس الفطر التشاؤم من دعاة الخير.

4- أن الداعية الصادق يدعو إلى الله محتسباً الأجر منه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ولا يطلبه من الناس.

5- بيان فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأجر فاعله.

6- بيان أهمية الصبر على ما يصيب الداعية في طريق دعوته.

7- أن نهاية الباطل قريبة، وعقوبة المكذبين وخيمة.

8- أن العاقبة الحسنة للمتقين.

تفسير المقطع الثالث من سورة يس

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠) أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ
أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ
(٣٢) وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلۡنَا
فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ (٣٤) لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا
عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ (٣٥) سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ
ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ (٣٦) وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم
مُّظۡلِمُونَ (٣٧) وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ (٣٨) وَٱلۡقَمَرَ
قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ (٣٩) لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ (٤٠) وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ
(٤١) وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ
(٤٣) إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ (٤٤)﴾.

قول الله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ (٣٠)﴾، يا ندامة على العباد المكذبين حين يرون مصيرهم يوم القيامة إلى النار، والذي يقول ذلك؛ **قيل**: الملائكة[1]، أو العباد أنفسهم[2]، **والمعنى**

(1) ينظر: تفسير الثعالبي: (5/ 11).

(2) ينظر: تفسير السمعاني: (4/ 375).

أنهم أحق بأن يتحسر عليهم المتحسرون، ويتلهف على حالهم المتلهفون!!، ثم ذكر سبب ذلك التحسر، وهو تكذيبهم واستهزاؤهم بالرسل، فلم يكتفوا بجريمة التكذيب والإعراض، بل أضافوا إليها الاستهزاء بالأنبياء والرسل، ووصفهم ببعض الصفات التي لا تليق بهم.!

ثم قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١﴾، ألم ينظروا في حال الأمم السابقة المكذبة بالرسل، ليعلموا عدد من أهلكنا منهم، **فكم هنا**: تعجبية، تفيد الكثرة، **والقرون**: جمع قرن، والقرن هو الطبقة من الناس، **والمقصود بالقرون هنا** الأمم المتتالية، فقد أهلك الله تعالى المكذبين منهم إهلاكًا لا رجوع لهم بعده إلى الدنيا، وهكذا حال كل من مات؛ فإنه لا يعود مرةً ثانية إلى الدنيا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢﴾، فمصير الخلق ومرجعهم كلهم إلى الله يوم القيامة، و(**إنْ**) هنا بمعنى ما النافية، ولمّا بمعنى إلا[1]، **والمعنى**: وما كلٌّ إلا جميعٌ لدينا مُحضرون، فكل من مات، فإنه سيُحضر يوم القيامة بالبعث والنشور للحساب، ولن يغيب أو يتخلف أحد عن الحضور بين يدي الله تعالى.!

ثم بدأت الآيات تتحدث عن العلامات والدلائل والبراهين التي تدل على قدرة الله وعظمته، وأنه الإله الحق، وأنه قادر على أن يبعث الناس ويحاسبهم، فذكر البرهان الأول، **فقال**: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 14).

﴿فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾، **الآية:** العلامة والبرهان والدليل، وقد ضرب لهم مثالاً لإحياء الموتى، بإحياء الأرض الميتة، وهي اليابسة التي لا نبات فيها ولا خُضرة، فإن الله يُحييها بإنزال المطر، **كما قال:** ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾[الحج:5]، فكذلك سيُحيي الله الموتى بالبعث والنشور، وفي ذلك إشارة أيضاً إلى أن القلب البعيد عن الإيمان مثله كمثل الأرض اليابسة، فإذا قذف الله فيه الإيمان؛ أُحيي كما تُحيا الأرض اليابسة بالماء.

وقوله: ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾، فذكر هنا الثمرة، وهي الغاية الكبرى من إنبات الزرع، وهي إنتاج الحبوب التي يأكلها الناس ويقتاتون بها.

ثم قال: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ٣٤﴾، **أي:** وأوجدنا في تلك الأرض الميتة التي أحياها الله بالماء بساتين، فيها أشجار النخيل والعنب، وثمرتها من أفضل أنواع الفواكه، فذكر القوت الضروري، وهو الحب، ثم ذكر الحاجّي، وهو الفواكه، ثم ذكر التحسيني، وهو تفجير العيون[1]، فالأرض التي فيها عُيون تسيل، تكون أكثر جمالاً، لوجود أشجار الزينة حول تلك العيون.

ثم قال: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾، ذكر الهدف والحكمة من هذه الزروع، وهو الأكل من ثمار هذه الأشجار التي خلقها الله وأنبتها لهم، **إن قلنا:** إن الضمير في ثمره عائد إلى الشجر، وإذا قلنا: إن

---

(1) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 272).

الضمير عائدٌ إلى الله، فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمر الله الذي أوجدها لهم.

وقوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، **(ما) هنا:** إما أن تكون نافية، أو مصدرية[1]، **فإذا قلنا:** نافية، **فالمعنى:** أن هذا الثمر أخرجه الله لهم وأنبته لهم دون أن يتدخلوا في إيجاده، وإنما هذا فضل من الله سبحانه، **وإذا قلنا:** إن ما مصدرية، **فالمعنى:** ليأكلوا من الثمر الذي أنبته الله لهم مباشرة، كالفواكه، والخضروات، ويأكلوا أيضاً من الطعام الذي يحتاج إلى أن تعمله أيديهم، فالحبوب مثلاً يحتاج إلى طحن وعجن وخبز ليكون جاهزاً للأكل، وهكذا باقي الأشياء التي لا تُؤكل إلا بعد عمل وصناعة.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، **أي:** أفلا يستحق الله منهم أن يشكروه على هذه النعم؟! وفي هذا إشارة إلى ضرورة قيام العبد بشكر نعم الله تعالى باللسان والقلب والجوارح.!!

ثم قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾، نزّه الله نفسه؛ لأن بعض الخلق لم يُنزهه، بل أشرك به غيره، **والأزواج هنا** بمعنى الأصناف، فقد خلق الله أصناف الخلق، وخلق من كل صنفٍ زوجين، ثم بيّن أن هذه الأزواج تشمل كل ما تنبته الأرض من الحبوب والفواكه والخضروات ونحوها، ومن الناس، **أي:** من الذكر والأنثى، ثم لم يُعدد باقي الأصناف لكثرتها، وأجمل أنواعها بقوله: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، **أي:** وهناك أصناف أخرى من المخلوقات التي خلقها الله لا يعلمها

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 15).

البشر، **وسواءً قلنا:** إن الخطاب مُوجه لكفار قريش الذين كان القرآن يتنزل فيهم، أو لعموم البشر، فما زالت البشرية حتى اليوم تجهل كثيراً من أصناف المخلوقات ولم تعرفها، وكل يوم يكتشف العلم الحديث شيئًا منها، ويدخل في ذلك أصناف الميكروبات والفيروسات الدقيقة، والتي لم تكن معلومة عند كثير من الناس حتى زمن قريب، وما تزال الاكتشافات مُستمرة حتى اليوم.!!

ثم ذكر لهم البرهان الثاني، وهو السماء وما فيها من المجرات الكونية، فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾، بدأ ببيان كيف يتكون الليل والنهار، فالنهار ينسحب تدريجيًا بغُروب الشمس، ويأتي بعده الليل بالتدرج، ولذا عبّر عنه هنا بالسلخ، وهو الكشط والنزع[1]، ومنه سلخ جلد الشاة وهو إخراجه من جسدها شيئًا فشيئًا، فالليل لا يأتي فجأة، وكذلك النهار لا يأتي فجأة، فهذه آية عظيمة من آيات الله، فإذا جاء الليل، أظلمت الأرض على أهلها؛ لذهاب نور النهار.

ثم قال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾، **أي:** وآيةٌ لهم الشمسُ التي تُشرق وتغيب كل يوم، فهي تجري باستمرار؛ **وفي قراءة ابن عباس:** ﴿والشمسُ تجري لا مُستقرّ لها﴾[2]، **يعني:** تجري ولا تستقر؛ أو تكون اللام لام الغاية أو النهاية، **أي:** تستمر تجري حتى يحصل لها المستقر وهو قيامُ الساعة، **وقد جاء في الحديث** أن النبي ﷺ، سأل أبا ذر: "أتدري أين

---

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (15/ 26).

(2) ينظر: تفسير البغوي (7/ 18).

تذهبُ هذه الشمسُ؟"، فقال: الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها تذهب فتسجد بين يدي ربها، ثم تستأذن بالرجوع، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مكانها، وذلك مستقرها"[1]، **أي**: تشرق من المغرب، وهي من علامات الساعة الكبرى وبعدها تنتهي الدنيا، فيكون استقرار الشمس بمعنى سكونها وعدم استمرار جريانها، **وقيل**: إنها تجري إلى أبعد منازلها في الغروب، ثم ترجع ولا تجاوزه[2]، **فالمستقر هو** الحد المؤقت لها في فلكها الذي تسير وتنتهي إليه في آخر السنة، شبه بمستقر المسافر إذ قطع مسيره[3]، وذلك أنها لا تزال تتقدم كل ليلة حتى تنتهي إلى أبعد مغاربها ثم ترجع، **وكلا القولين** له وجه صحيح، **فأحدهما**: يتحدث عن حالها في الدنيا، **والآخر**: يتحدث عن حالها في نهاية الدنيا.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾، ذلك، **أي**: جعل الشمس تجري بهذه الدقة وهذا الإتقان، هو من تقدير الله سبحانه، العزيز ذي القوة، العليم بجزئيات الأشياء ودقائقها.!!

ثم قال: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩﴾، القمر، فيها قراءتان[4]: النصب والرفع، فالرفع معطوف على الشمس، والنصب مفعول به

---

(1) رواه البخاري، (4/ 107)، برقم (3199)، ومسلم، (1/ 139)، برقم (159).

(2) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 524).

(3) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 104).

(4) ينظر: تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (20/ 518).

بفعل مقدر، **تقديرُه:** وقدّرنا القمر منازل، **أي:** جعله الله يسير على شكل منازل، وهي ثمانية وعشرون أو تسع وعشرون منزلة، بحسب أيام الشهر، فيظهر القمر في الليلة الأولى صغيراً، ثم ينموا ويزداد ضوؤه حتى يكتمل ليلة أربعة عشر أو ليلة خمسة عشر، ثم يتناقص بعدها ويذهب ضوؤه ليلة بعد أخرى حتى يختفي ليلة ثمان أو تسع وعشرين، وتسمى آخر ثلاث ليالي من الشهر بالمُحاق، ويكون فيها القمر كعذق النخل البالي الذي يحمل التمرة إذا يبس وانعطف، وشبه القمر به في ثلاثة أوصاف: وهي الرقة، والانحناء، والصفرة[1]، وهو تشبيه بليغ لتقريب المعلومة للسامع، خاصة أن أهل مكة كانوا أهل نخل، ويعرفون معنى العرجون، فيستفاد من جريان الشمس حساب السنوات؛ لأن دورتها سنوية، ويستفاد من جريان القمر حساب الأشهر؛ لأن دورته شهرية، **كما قال الله:** ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[الإسراء:12].

وقوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾، **أي:** لا تجتمع معه في فَلَك واحد، **وقيل:** لا يدخل النهار على الليل قبل انقضائه، ولا يدخل الليل على النهار قبل انقضائه[2]، فعبّر بالشمس عن الليل، وبالقمر عن النهار، **وقيل:** لا يدخل أحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل، ولا يطلع القمر بالنهار[3]، والأقوال كلها متقاربة، وتفيد

---

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (ص: 1665).

(2) ينظر: تفسير البغوي (7/ 18).

(3) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 32).

الدقة في حركة كلٍ من الشمس والقمر.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾، **أي:** فهما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته، فلا يتصل ليل بليل، بل يكون بينهما نهار فاصل، ولا يتصل نهار بنهار، بل يكون بينهما ليل فاصل.

وقوله: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾، **أي:** وكلٌ من الشمس والقمر وباقي المجرات والكواكب يسير ضمن فلك ومسار محدد، فلا يتعداه إلى غيره، والفلَك هو الإطار الدائري؛ ولذلك تذهب هذه الكواكب وترجع إلى مكانها، فلا الشمس يمكن أن تلحق بالقمر وتُغيّر مساره، ولا الليل يُمكن أن يسبق النهار ويدخل عليه قبل انقضاء وقته، والناس على ضوء ذلك النظام، يُنظمون حياتهم ويقيمون صلاتهم وعباداتهم ومواعيد زراعتهم.!!

ثم ذكر البرهان الثالث، فقال: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾، هذه علامة أخرى تدل على قدرته وعظمته، وهي أن الله سبحانه وتعالى يحمل الخلق على السفن التي تسير على البحار، والمقصود بها هنا سفينة نوح عليه السلام، فإن الله حمل المؤمنين عليها عندما أصاب الأرض الطوفان، وتطلق الذرية على جنس النسل، والمعنى: حملنا نسلهم، **كما قال:** ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾[هود:40]، فكان نسل البشر بعد ذلك ممن ركب السفينة، ومنهم قريش، **ولذلك يُقال:** نوح الأب الثاني للبشر[1]، **كما قال:**

(1) ينظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا (12/ 95).

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾[الصافات:77]، **والمشحون معناه:** المملوء، لأن السفينة كانت صغيرة، فأمر الله نوحًا أن يحمل فيها من كلٍ زوجين اثنين لتبقى الحياة، فامتلأت وازدحمت.

ثم قال: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ۝٤٢﴾، **أي:** وخلق الله من مثل السفينة أنواعًا أخرى يركب عليها الخلق، فإن كان المقصود المثلية في الركوب، فكل ما يُركب يدخل في ذلك، سواء كان من الحيوان كالإبل والخيل والحمير والبغال، ونحوها، أو الآلات التي صنعها البشر مثل السفن والسيارات والطيارات ونحوها، وإن كان المقصود بالمثلية هي جنس السفينة، فيدخل فيه ما يشابهها من السفن المتنوعة ونحوها، التي تسير على البحر، والأول أشمل، والثاني يؤيده السياق الذي بعده.

وقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣﴾، وفي هذا قرينة تدل على أن المثلية هي جنس السفينة، **أي:** من مثل سفينة نوح خلقنا لكم سُفنًا أخرى، وهي التي تهلك بالغرق، لأن باقي المركوبات لا تغرق، وإن حصل لهم الغرق بسبب كُفرهم؛ فلا يسمع لصارخهم المستغيث صوت، أو أنهم لا يستطيعون الصراخ، ولو صرخوا لما سمعهم أحد، ولو سمعهم أحد ما جاء لينقذهم، لأنه لا قدرة له على ذلك، فيسقطون في البحر؛ فيغرقون دون أن يُنقذهم أحد.!!

وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٤٤﴾، هذا استثناء منقطع، فليس من جنس المُستثنى منه، وهو بمعنى لكن، **والمعنى:** لكن لو أراد الله أن يرحمهم وينقذهم، بدون صريخ منهم، وبدون مجيء أحد يُنقذهم؛ لفعل حتى يبقوا في

الدنيا ويتمتعوا فيها إلى أجل مُسمى، ولعل في رحمتهم وإنقاذهم من الغرق وتأخير هلاكهم فرصة لهم كي يتوبوا ويؤمنوا بالله سبحانه.!!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من البراهين على إثبات البعث والنشور، إحياء الأرض بعد موتها بنزول المطر.

2- من أدلة إثبات التوحيد خلق السموات والأرض والشمس والقمر وانتظام سيرها.

3- من نعم الله على خلقه أن يسّر لهم صناعة السفن والسيارات والطيارات ونحوها، ويسّر لهم ركوبها.

4- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُمهل الخلق ليُعطيهم فرصة للتوبة والرجوع إلى الله.

تفسير المقطع الرابع من سورة يس

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ
ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ
وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا
وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، هذا الخطاب للكفار المكذبين بالله ورسله، وقد يكون القائل لهم الرسول أو غيره، **أي**: احذروا المخالفة فيما ستأتون عليه من الزمن، وما مضى من عمُركم[1]، **وقيل**: ما بين أيدكم، **أي**: من أمر الآخرة، وما خلفكم، **أي**: ما تركتموه وراءكم من أمر الدنيا[2]، وكلها معانٍ متقاربة، والمقصد منها الموعظة

---

(1) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 526).

(2) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 525).

العامة لهم، بأن يحذروا مخالفة أمر الله في العاجل والآجل، فإن فعلتم ما وُعظتم به واتقيتم ما بين أيديكم وما خلفكم، فلعل الله يرحكم بتوبتكم، ويغفر لكم ما سلف منكم، ويحفظكم فيما بقي، فالتوبة سبب من أسباب الرحمة، ووسيلة للوصول إلى مرتبة التقوى.

وقوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾، هذا إخبار عن الكفار بأنهم لم يقبلوا النصيحة السابقة، وردوا البراهين والحجج والمعجزات التي تدل على صدق محمد ﷺ، وأعرضوا عن قبولها؛ فلم يؤمنوا بها بقلوبهم، ولم يمتثلوا لها بجوارحهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾، وإذا نُصح هؤلاء الكفار بأن يعطوا من أموالهم التي رزقهم الله شيئًا للفقراء والمساكين؛ امتنعوا عن ذلك، **وردوا على من نصحهم بقولهم:** كيف تطلبون منا أن نُطعم الفقراء، وأنتم تقولون أن الله هو الرزاق، فلماذا لم يُطعمهم الله؟!!، وهي شبهة خبيثة تدل على مكر وخداع القوم، فهم يحتجون بالمشيئة، فيقولون: لم يرزقه الله مع قدرته عليه، فنحن نوافق مشيئة الله، فلا نطعم من لم يطعمه الله، كما احتجوا على شركهم بنفس الشبهة، **كما في قوله:** ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف:20]، فهم بهذا يُقررون مذهب (الجبر)، وأن الإنسان مُجبر على كفره ومعاصيه، وهو كلام باطل، بل الصواب أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان ومنحه إرادة ومشيئة مستقلة، وأعطاه عقلاً وسمعًا وبصراً، وبيّن له طريق الحق وطريق الضلال، ثم تركه يختار بإرادته

الحق أو الباطل، ثم يجازى العبد ويحاسب على فعله واختياره، ولا يجوز للعبد أن يحتج بأفعال الله وأقداره على معاصيه وكفره، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الحياة وخلق فيها الأصناف المتناقضة للابتلاء والاختبار، خلق أغنياء وفقراء؛ ليبتليَ هذا بهذا، والمال الذي جعله الله بأيدي الأغنياء، هو مال الله، والخلق مستخلفون فيه للابتلاء، ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أغنياء، ولو شاء الله لجعل الناس كلهم فقراء، ولو فعل ذلك؛ لما حصل الابتلاء فيما بينهم.

وقوله: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، لما تنتكس الفِطَر يصبح الحق ضلالاً!!، فما هو ضلال المؤمنين الذي وجده الكافرون فيهم؟!، هل الإحسان إلى الفقراء ضلال؟!!، نعم هذا هو منطق من انتكست فِطَرهم، وقد تكرر نحوه في كثير من الأقوام المكذبة مع رسلهم، فقومُ فرعون وصفوا موسى بالفساد، **كما قال الله عنهم:** ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾، [الأعراف:127]، لأنه لم يخضع لفرعون ويعبد غير الله، والمنافقون سموا فسادهم إصلاحاً، **كما قال الله عنهم:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾[البقرة:11].

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٨﴾، يقول الكفار للمؤمنين، الذين نصحوهم وحذروهم من عذاب الله والوقوف بين يديه: لو كنتم صادقين بأن هناك بعثاً ونشوراً، فقولوا لنا متى يحدث؟!!، وهذا استبعاد منهم لوقوعه، وهذه طبيعة المشركين، فهم دائماً يستعجلون العذاب، ويسألون عن موعده، **كما قال:** ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج:1]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قد

جعل لكل شيءٍ أجلاً محدداً،، **فرد الله عليهم بقوله:** ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾، **أي:** إن هؤلاء الكفار لا ينتظرون إلا قيام الساعة بصيحة واحدة، والصيحة المقصود بها هنا النفخة الأولى في الصور، التي ينفخها إسرافيل، فيموتُ من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، كما جاء في الحديث(1)، والساعة تأتي بغتة، سواءً كانت ساعة الفرد نفسه حين يموت، أو الساعة العامة، فتأتيهم وهم مشغولون بالخصومات فيما بينهم، فالساعة تأتي والناس في أسواقهم وفي أعمالهم ومشاغلهم، وهذا يختصم مع هذا، **وقيل:** إن الساعة تأتي عليهم، وهم ما يزالون يختصمون فيها(2)، هل هناك بعث ونشور؟!! والأول أرجح.

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾، ولأنها تأتيهم فجأة؛ فلا يستطيعون أن يقولوا كلمة واحدة يوصون بها من بعدهم، وعبّر بالتوصية؛ لأنها أبسط ما يقوله الذي في مرض الموت، ولا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم إن كانوا بعيدين عنهم، وهذا يدل على أن الموت والقيامة تأتي فجأة، فلا بد من الاستعداد لذلك بالوصية من قيل، **كما في الحديث:** "من كان عنده شيء فلا يبيتن إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه"(3).

---

(1) رواه البخاري، (4/ 159)، برقم (3414)، ومسلم، (4/ 1843)، برقم (2373)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(2) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 530).

(3) رواه البخاري، (4/ 2)، برقم (2738)، ومسلم، (3/ 125)، برقم (1627)، عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقولــه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾، هــذه النفخة الثانية، والله أعلم كم بين النفختين، لما يأمر الله إسرافيل فينفخ، فالنفخة الأولى يموت بها من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، والنفخة الثانية: يحيا بها كلُ من مات، **فالنفخة الأولى** تزهق الأرواح، **والأخرى** تحييها، **والأجداث:** جمعُ جدَث، وهو القبر[1]، سواءً بقي على ما هو عليه أو اندثر، والمقصود أن بقايا الجسد في الأرض يُسمى قبراً، فإن الأرض تأكل أجساد الناس فلا يبقى منها إلا عجب الذنب، كما في الحديث[2]، وهو آخر فقرة في العمود الفقري من أسفل، ومنها يبعث الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، الأجساد إلى ساحة المحشر، فيخرجون من القبور يمشون إليها مسرعين، **والنسلان،** هو المشي السريع مع تقارب الخُطى، **وفي الحديث:** "عليكم بالنسلان"[3]، وهو مُفيد، يصفُه بعض الأطباء لمن عنده مشكلة في عضلات القلب ونحوه.

وقولــــــــه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾، يقول الكفار، بعد أن بعثهم الله ورأوا ما أعد لهم من العذاب: يا هلاكنا وسوء حالنا، ونحوها من العبارات التي تنوعت منهم في هذا الموقف الذي لا ينفع فيه الندم، فقد ذهب العمل، وجاء وقت الحساب، ثم

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 429).

(2) رواه البخاري، (6/ 165)، برقم (4935)، ومسلم، (4/ 2270)، برقم (2955) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(3) رواه الحاكم في المستدرك برقم (2491)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (465).

تساءلوا فيما بينهم: من الذي بعثنا من مكان رقودنا في القبور؟!، **فكان الجواب:** ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، والقائل لهذا الجواب، **قيل:** المؤمنون(1)، **وقيل:** الملائكة(2)، **وقيل:** الكفار(3)، قالوا ذلك لأنفسهم بعدما تذكّروا أن المرسلين كانوا قد حدثوهم عن البعث والنشور، **ورجح ابن جرير وابن كثير:** الأول(4)، وغالبًا ما يُذكر اسمُ الله الرحمن في آيات الحشر، لحاجة الناس في ذلك اليوم إلى الرحمة؛ وأن رحمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ستُدركهم في هذا الموقف.

وبعض الفرق تستدل بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾، على إنكار عذاب القبر، ولا حجة لهم بذلك، فعذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وإنما وقع الإشكال عند من ينفيه بقياسهم أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، وهو قياس باطل؛ لأنه قياس مع الفارق، **والمعنى:** أنهم ينامون نومة قبل البعث، وذلك بين النفختين، فيكون بعثهم بعد رقاد حقيقة، وأن عذاب القبر ينقطع بين النفختين(5)، وهو زمن لا يعلم قدره إلا الله، **وقيل:** إن العذاب الذي حصل لهم في القبر، بالنسبة لما شاهدوا بعده من شدة الأهوال كالرقاد(6)،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير (6/ 581).
(2) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (4/ 458).
(3) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 531).
(4) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 533)، وتفسير ابن كثير (6/ 582).
(5) ينظر: تفسير السعدي (697).
(6) ينظر: تفسير القرطبي (15/ 42).

والقول الأول هو الأرجح، وبه يُحل الإشكال، ويجمع بين الأدلة.

وقولــه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾، والمقصود بالصحية هنا هي النفخة الثانية حين ينفخ إسرافيل في الصور، فيُحشر الناس ويحضرون بين يدي الله جميعاً.

ثــم قــال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾، **أي**: في يوم القيامة، والله هو الحَكَم العدل فيه، فلا يُظلم أحد مثقال حبةٍ من خردل، وهو يوم العدل الذي تنتظره الخلائق أجمعون؛ لأن الدنيا لم تكن ساحة عدل مطلق، فكثير من المظلومين لم يأخذ حقه كاملاً في الدنيا، فانتظرْ هذا اليوم ليأخذه من ظالمه، **ونكّر لفظ**: (نفس)، لتعم كل الأنفس، **ونكّر لفظ**: (شيئًا)، ليعم كل شيء مهما صغر، فلا ظلم لأي نفس بأي شيء، فالجزاء مرتبط بعمل الإنسان خيراً كان أو شراً، **و(ما) هنا**، إما أن تفيد المثلية، **والمعنى**: لا تُجزون إلا بمثل أعمالكم، حسنة بحسنة، وسيئة بسيئة، أو تفيد السببية، **والمعنى**: لا تُجزون إلا بسبب أعمالكم، وكلا المعنين صحيح، وكل ذلك علامة على عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في ذلك اليوم العظيم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحم خلقه بإرسال الرسل وإنزال الكتب ليقيم عليه الحجة، فإذا تركوا ما أُمروا به عُوقبوا بعدله سبحانه، وإذا فعلوا ما أُمروا به أثابهم الله بفضله سبحانه.

2 – أن الكافرين يستعجلون الساعة، تكذيباً بها، واستهزاء بمن يدعوهم إلى الله، فلا يدرون إلا وقد بهتتهم الساعة فجأة، فلا يقدرون على الوصية ولا غيرها.

3 – أن عذاب القبر ونعيمه ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، وإنما وقع الإشكال عند من نفاه بقياس أحوال الآخرة على أحوال الدنيا، وهو قياس باطل؛ لأنه قياس مع الفارق.

4- أن اسم الرحمن يذكر غالباً في آيات الحشر، لحاجة الناس في ذلك اليوم إلى الرحمة؛ فيشعرهم بذكره أن رحمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ستُدركهم في هذا الموقف.

5- عظمة عدل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، فلا يظلم نفساً شيئًا، فالجزاء مرتبط بعمل الإنسان خيراً وشراً.

تفسير المقطع الخامس من سورة يس

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ
مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ وَٱمۡتَٰزُواْ
ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ
عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ
أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ
تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾
وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ
هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾، لما انتهى الحديث في الآيات السابقة عن حال الكفار يوم الحشر، وكمال عدل الله بهم؛ ذكر بعد ذلك وصفًا لحال أهل الجنة في الجنة، فبيّن أنهم مشغولون عن غيرهم، بما أعده الله لهم من النعيم المقيم في الجنة، **وقيل**: إن شغلهم هو افتضاض الأبكار[1]،

(1) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 534).

وقيل: غير ذلك[1]، والصحيح الأول لعمومه، وما ذكر من تفسير آخر فهو على سبيل التمثيل، وهم فرحون[2] بذلك، فالفَكِه هو المسرور، مأخوذ من الفُكاهة وهي التخيّر من طُرف الكلام وملحه[3]، لإدخال السرور على النفس بها، فهم مشغولون بالنعيم العظيم، ومسرورون به أي لا همّ لهم ولا حزن.!!

ثم ذكر بعض أوصاف هذا النعيم المقيم، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾، فهم مجتمعون مع أزواجهم من نسائهم المؤمنات في الدنيا ومن الحور العين، تحت ظلال أشجار الجنة، ومتكئون على الأسرّة المرتفعة، ولا تُسمى الأسرّة أريكةً حتى تُغطى بالحِجال، وهو الستار، والاتكاء هو الجلوس المُتمكن، أو وضع جزء من الظهر والجنب على الأريكة، وفيه إشارة إلى ما هم فيه من الراحة والاستقرار النفسي، فإن الإنسان لا يتكئ على أريكته إلا إذا كان مستقراً، ولا يوجد ما يُزعجه أو يشغله.!!

وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾، ولهم في الجنة فواكه متنوعة، ولهم كل ما يطلبونه مما تشتهيه أنفسهم في الجنة من جميع الملذات؛ فيأتي إليهم، ويحصلون عليه دون تعبٍ ولا مشقة.!!

وقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾، **أي**: سلامٌ يقال لهم قولاً من الله الرب

---

(1) ينظر أقوالهم في زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 527).

(2) ينظر: الغريبين في القرآن والحديث (5/ 1468).

(3) ينظر: التفسير القرآني للقرآن: (12/ 943).

الرحيم[1]، أو يُرسل الملائكة[2] فتُسلم عليهم، **كما في قوله:** ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾[الرعد:23-24]، **والأول أرجح** للسياق، وجمع هنا بين اسمين له سبحانه، وهما: (الرب، والرحيم)، فقد رباهم وأعطاهم ومنحهم ما يترعرعون فيه، ثم رحمهم بما منحهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من نعيم مقيم في الجنة.!!

وقوله: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩﴾، هذا أمر للصنف الآخر وهم أهل النار، والأمر قد يكون شرعيًا، **بمعنى:** انفصلوا وافترقوا عن المؤمنين[3]، فكونوا إلى جهة الشمال، وقد يكون كونيًا، بمعنى: تميزوا بعلامات الإجرام التي تظهر عليكم، **كما قال:** ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ [الرحمن:41]، ولا مانع منهما معًا، فينفصلوا عن المؤمنين في ساحة المحشر، وتظهر عليهم علامات الإجرام، ثم تسوقهم الملائكة سوقًا إلى النار.!!

وقوله: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠﴾، هذا الخطاب موجه للمجرمين في ساحة المحشر، بعد أن يظهر عليهم الإجرام والفساد، فكأنهم يعتذرون عن إجرامهم بسبب إغواء الشيطان لهم، **فيقول الله لهم:** ألم آمركم وأوصيكم، على ألسنة رسلي، فحذروكم من الشرك والمعصية وطاعة الشيطان، ولكن الناس ينسون هذا العهد ويستمرون

---

(1) ينظر: تفسير السعدي (697).

(2) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي (3/ 528).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 432).

في طاعة واتباع الشيطان، وهذا العهد سواءً كان العهد الأول الذي أخذه الله على آدم وذريته، أو كان العهد الذي يقوله كل نبيٍ لقومه[1]، أو كان عهد الفطرة الموجود في النفس البشرية، فكلها عهود تلتزم بعبادة الله وطاعته، والبعد عن عبادة الشيطان، **وهي هنا بمعنى**: الطاعة المخالفة لطاعة الله، كما قال عدي بنُ حاتم للنبي ﷺ: يا رسول الله ما عبدناهم، يقصد الأحبار والرهبان، فقال: "ألم يُحللوا لكم الحرام ويُحرموا عليكم الحلال فأطعتموهم؟ قال: بلى، قال: تلك عبادتُهم"[2]، **وقد نبهنا الله** أن الشيطان لنا عدوٌ مبين، وقد ظهرت عداوته من أول يومٍ كرّم الله فيه آدم، عندما أمر الملائكة بالسجود له، فرفض الشيطان ذلك، وأعلن عداوته لآدم وذريته.

وقوله: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ **أي**: أطيعوني ووحدوني، فالعبادة هنا بمعنى الطاعة والتوحيد، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فتوحيد الله وإفراده بالعبودية والطاعة، هو الصراط المستقيم، الوضوح الذي لا اعوجاج فيه!!

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢﴾، ولقد أضل الشيطان من بني آدم جيلاً وخلقًا كثيراً[3]؛ بوسوسته وتزيينه وخديعته لهم، فلو كان عندهم عقول مفكرة بخطورته وعداوته؛ لما أطاعوه، فالغفلة عن التفكر في خداع الشيطان ومكره؛ سببٌ لطاعته.!!

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 433).

(2) رواه الترمذي، (5/ 278)، برقم (3095)، والطبراني في المعجم الكبير، (17/ 92)، برقم (218)، وحسنه الألباني.

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 698).

وقولـــــــه: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾، هـذه جهـنم التي كـان يخـوفكم الرسـل بهـا، فقـد حـان موعـد دخـولكم إليهـا، فـادخلوها واحترقـوا فيهـا بـسبب كفـركم بـالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وإنكاركم للبعث والنشور.

ثـم قـال: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾، وفي يـوم القيامـة يمنـع اللـسان مـن الكـلام، وتـؤمر الجـوارح بالنطق، فتشهد على صـاحبه، **كما جاء في الحديث:** أن النبي ﷺ، كـان جالـسًا ذات يوم بين أصحابه، فضحك حتى بدت نواجذه، -أي: ابتسم ابتسامة واسعة وكبيرة،- فالتفت إليه أصحابه، فرأوه يضحك، قـال: "أتـدرون ممـا أضـحك؟، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أضحكُ من حال العبد بين يدي الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، حينما يبعثه الله؛ يقول: لا أقبل إلا شاهداً من نفسي، فيقول الله: لك ذلك، فيختم الله على فمه لأن محل الكلام اللسان، ويجعل جوارحه تنطق وتـشهد عليه بما كسب من الذنوب والمعاصي، فتنطق الأيدي، لأنها أبرز الجوارح في العمل، ثم تشهد الأرجل، فتُقر وتُزكي ما قالت اليدان، فإذا نطقت الجوارح وشهدت عليه، سُمح بعد ذلـك للإنـسان أن يـتكلم بلـسانه، فيقـول لجوارحـه: "سُـحقًا لكُـنّ سحقًا، عنكنّ كنت أُدافع"[(1)]!!

وقولـه: ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴾، هـذه الآيـة في سياق يـوم القيامـة، والمخاطـب بهـا الكفـار الـذين شـهدت علـيهم

---

(1) رواه مسلم: (4/ 2280)، برقم (2969)، بنحوه، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

أيديهم وأرجلُهم بذنوبهم ومعاصيهم[1]، **والمعنى:** لو شاء الله لمسح نورَ أعينهم؛ فنمنعهم من الرؤية، كما منعهم من الكلام، فإذا أرادوا السباق على الصراط إلى الجنة؛ لم يروا مكان أقدامهم؛ فيسقطوا في جهنم، لأنه لا يوجد طريق من المحشر إلى الجنة أو إلى النار إلا الصراط، وهو جسر ينصب فوق جهنم، **وقيل:** إن هذا الخطاب موجه لمشركي مكة، الذين كان القرآن يُخاطُبهم[2]، **والمعنى:** لو نشاء الآن لمسحنا نور أعينكم؛ فلا ترون الطريق الذي تمشون فيه؛ فتضلوا في سيركم!!.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾، **أي:** ولو شاء الله أيضًا أن يسحب منكم قدرتكم على الحركة، فتتوقف الجوارح كلها؛ فلا تستطيعون الذهاب ولا الإياب، والراجح أن الخطاب في هاتين الآيتين موجهٌ للأحياء من كفار قريش[3]، حيث هددهم بأن يمسخ أبصارهم أو ينتزع أرواحهم من أجسادهم أو يمنع الحركة في جوارحهم، بسبب تكذيبهم، ولكن الله أمهلهم ورحمهم لعلهم أن يتوبوا عن كفرهم.

وقوله: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾، هذا إخبارٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، عن حياة الإنسان، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلقه ضعيفًا ثم ينمو ويصيرُ شابًا ثم يكبُر ويزداد في العمر، حتى يُصبح شيبةً ضعيفًا، والتنكيس هو

---

(1) ينظر: تفسير السعدي، (698).

(2) ينظر: زاد المسير، لأبي الفرج ابن الجوزي، (3/ 529).

(3) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري، (20/ 547).

القلب للشيء، **والمعنى**: أن الإنسان يكون طفلاً ضعيفًا ثم شابًا نشيطًا، ثم يرجع إلى مرحلة الضعف مرة أخرى عند الكبر، فيصير في خِلقته وحركته ضعيفًا، كما كان قبل ذلك، والفرق بين الحالتين، أن ضعفه بعد كبر السن إلى الزوال، بينما ضعفه في الطفولة إلى النمو والقوة، **والمعنى**: ومن نمدُ له في حياته حتى يكبُر سنه، ويطول عمره، فإنه يرجع إلى مرحلة الضعف، أفلا يتفكر هذا الإنسان بهذا، وأن الله قد منحه عمْراً كافيًا للعبادة، **ولهذا جاء في الحديث**: "أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله، حتى بلغه ستين سنة"(1).

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾، الضمير يقصد به النبي ﷺ، وما نافية، **أي**: لم يكن محمد ﷺ شاعراً، ولا يستطيع أن يقول الشعر، بخلاف أسرته، فقلّ أن يوجد شخصٌ من أولاد عبد المطلب نساءً ورجالاً إلا كان يقول الشعر غير محمد ﷺ، فقد صرفه الله عن قول الشعر، حتى لا يتهمه المشركون بأن القرآن الذي جاء به نوعٌ من الشعر، وقد كان يحفظ بعض أبيات من الشعر، ولكنه كان يقولها على غير وجهها، وكان من حوله ربما يرد عليه، كأبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقد سمعه يقول بيتًا من الشعر، فيقول له: يا رسول الله ليس البيت هكذا، فيقول: "كله سواء"(2) **أي**: في المعنى، وقد كان يردد أثناء حفر الخندق بيتًا من الشعر، فيقول: اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار(3)، وهم كانوا يقولون:

(1) رواه البخاري، (8/ 89)، برقم (6419)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(2) ينظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد (4/ 272-273).

(3) رواه البخاري، (5/ 107)، برقم: (4098)، عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فارحم الأنصار والمهاجرة، من أجل القافية.

وقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾، **أي:** ليس الشعر مما جُبل عليه، فإنه لا يحسنه ولا يحبه، وما ينبغي للنبي ﷺ أن يكون شاعراً، فمُهمته أعظم من الشعر، وما أوحي إليه أبلغ، فالشاعر يهتم بالألفاظ على حساب المعاني؛ ولذلك أحيانًا قد يكسر المنصوب لضرورة الشعر، كالوزن، والقافية، بينما القرآن وحديث النبي ﷺ فيهما جوامع الكلم، ويهتمان بالمعنى الصحيح وبلاغة القول وقوته.

وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾، **أي:** إن القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، ذكرٌ يتذكر به أصحاب القلوب والعقول السليمة، وهو قرآن واضح الحجج والبراهين.

ثم بيّن أهداف القرآن الكريم وغاياته، فقال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٠﴾، **أي:** يستفيد منه ويقبله ويتعظ به من كان قلبُه حياً، وهم المؤمنون الذين أحيا الله قلوبهم بالإيمان، **كما قال:** ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ﴾[الأنعام:122]، بخلاف الكفار، فقلوبهم ميتة ولو كانت أجسادهم حية، فإنهم لا يتأثرون، بموعظته وتذكيره، وحمل اللفظ على معنى الحياة المطلقة أولى ليشمل حياة القلب وحياة الجسد معًا، فإذا كان القلب ميتًا والجسد حيًا، لم يستفد الإنسان من القرآن، وإذا كان الجسد ميتًا فلن يستفيد أيضًا منه، وعلى ضوء ذلك فإن الإنذار لا ينتفع به الموتى، سواء كانوا موتى القلوب أو موتى الأجساد.

وقوله: ﴿وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، **أي:** وتقوم عليهم الحجة بنزول

القرآن إليهم وإبلاغهم بأحكامه، ومع ذلك لم يُؤمنوا به؛ فلم يبق لهم عذرٌ يعتذرون به عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يتحقق قول الله في عذابهم بسبب كفرهم، وعدم استفادتهم مما في القرآن من المواعظ، فالقرآن نور وهداية للمؤمنين وحسرة على الكافرين، **كما قال:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[الحاقة:50]، لأنهم لم يستفيدوا منه في الدنيا، وسيكون سبب حسرتهم في الآخرة، حين يقولون: يا ليتنا استمعنا له واهتدينا به!!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- عظم نعيم أهل الجنة الذي يشغلهم عن كل ما حولهم.

2- أن من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يستجيب إلى طلب من أراد شاهداً من نفسه يوم القيامة، رغم بطلان هذا الطلب، ليقطع الحجة عليهم، ويظهر لهم كمال عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

3- أن الشعر ليس مما جُبل عليه نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فإنه لا يحسنه ولا يحبه، وما ينبغي له أن يكون شاعراً، فمُهمته أعظم من الشعر، وما أوحي إليه أبلغ وأعظم منه.

4- أن من يستفيد من مواعظ القرآن وأحكامه، هو المؤمن صاحبُ القلب الحي، وأما الكافر الذي مات قلبُه، فإنه لا يستفيد منه، فاحرصوا على حياة قلوبكم بالإيمان والذكر، لتستفيدوا من مواعظ القرآن.

تفسير المقطع السادس من سورة يس

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا
لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ
مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ
أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن
يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ
﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى
خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ
أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾، الخطاب لعموم الناس، **وقيل:** لكفار قريش[1]، **والمعنى:** أولم يتفكروا ويتأملوا كيف خلق الله لهم أنعامًا، ولم يُشاركه أحد في هذا الخلْق، **واللام هنا:** لام الامتنان، حيث سخّرها وذللها لهم، وخصّ الأنعام بالذكر من بين سائر

(1) ينظر: جامع البيان، لابن جرير الطبري (20/ 550).

الحيوان؛ لمنفعتها الكثيرة للخلق، **وهي الأربعة الأصناف التي ذكرها الله في قوله:** ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام:143]، **وقوله:** ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[الأنعام:144]، وسميت أنعاماً لكثرة النعم التي تحصل للإنسان منها.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾، هذا وجه من وجوه التسخير لهذه الأنعام، فإنهم يستطيعون أن يتملكوها، ويتصرفوا فيها بيعاً وشراءً وهدية ونحوها.!!

وقولُه: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ٧٢﴾، وهذا هو الفرق بين هذه الأنعام المُذللة وبين الحيوانات الوحشية التي تعيش في البراري، فليس فيها تذليل وتسخير، بل تنفر إذا اقترب منها الإنسان، ولو قارنتها بالجمل المُذلل المُسخر الذي يقودُه الطفل، لتبين لك وجه هذا الامتنان.

وقوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾، **من هنا:** تبعيضية، **أي:** من بعض هذه الأنعام ما يُمكن ركوبه كالإبل، و﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾، **من هنا:** بيانية، **أي:** من لحم كل هذه الأنعام يأكلون.!!

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ٧٣﴾، **أي:** ولهم منافع في هذه الأنعام غير الركوب والأكل، **مثل:** الصوف والوبر والجلد، وحمل الأثقال على بعضها، والحرث على بعضها، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَمَشَارِبُ﴾، المقصود به اللبن الذي يستخرج من إناث الأنعام، وأضافه للإناث والذكور؛ لأنه لا يُمكن أن يحصل من الإناث لبن، ما لم يتم تلقيحها من الذكور.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾، تذكير بأن هذه النعم تحتاج إلى شكر من الخلق، والشكر هنا محمول على أصله بالنسبة للمؤمنين، وهو الثناء على الله، **ولكن المقصود به في حق الكفار:** أبلغ من مجرد الثناء على الله، بل يكون المعنى: أفلا يُوحدونني، ويعبدونني، فأنا الخالق الموجد المُستحق وحده للعبادة.!!

وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾﴾، **أي:** إن هؤلاء الكفار لم يشكروا الله على هذه النعم، فيؤمنوا به ويوحدوه، بل اتخذوا لهم أصناماً ومعبودات، وجعلوها آلهة من دون الله، لعلهم يُنصرون بهذه الآلهة، وهذا من جهلهم، فكيف تطلب النصر من أصنام صنعتموها بأيدكم، وهي جمادات لا تسمع ولا تُبصر ولا تعقل!.

وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾، هذا تعقيب على اعتقاد المشركين الباطل في آلهتهم، فهي لا تستطيع نصرهم في الدنيا، فإنها جماد لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تتحرك، ومن يعبدها هو الذي يقوم على حراستها وحمايتها!!، ولا تستطيع نصرهم أيضاً في الآخرة، فهي لا قيمة لها عند الله.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾، **إذا قلنا:** إن الضمير يعود على الأصنام، فإن الأصنام ستُحضَر معهم يوم القيامة وتُحشر معهم، وتُقذف معهم في النار، لمزيد من التبكيت والتقريع لهم، **كما قال:** ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾[الأنبياء:99]، **وإذا قلنا:** إن الضمير يعود على المشركين، فيكون المعنى: كيف تعبدون أصناماً وأنتم لها جنود مجندة تقومون على خدمتها،

وتحضرون عندها للدفاع عنها وحمايتها، وكلا المعنيين وارد، ويمكن الجمع بينهما، فالمقصد بيان حال الكفار مع أصنامهم في الدنيا، وحالهم مع آلهتهم في الآخرة وقذفهم معها في النار.!!

ثم التفت الخطاب من مُخاطبة الكفار **إلى مُخاطبة رسول الله محمد** ﷺ، فقال له: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، **أي:** حينما تسمع كلامًا سيئًا من المشركين، كقولهم لك: كاهن، ساحر، شاعر، فلا تحزن، والنبي ﷺ بشر تُحزنه الكلمة السيئة، وتُعجبُه الكلمة الطيبة، **ولكن الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهاه عن التأثر بقولهم، فقد قال الكفار أكثر من ذلك في الأنبياء من قبلك، فتحمل ذلك واصبر عليهم، ثم سلّاه، **بقوله:** ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾، فنحن نعلم حالهم، ونعُد أعمالهم الظاهرة والباطنة؛ لنُحاسبُهم عليها؛ فأول الآية توجيه للنبي ﷺ بعدم الحزن، وآخر الآية تهديد للكفار، والمعنى: إن كلامكم مرصود وستجدون جزاءكم يوم القيامة، فالله يجمع ما تُسرونه من النيات السيئة والخواطر الباطلة، وما تُعلنونه من أقوال وأفعال.!!

ثم انتقل الخطاب لمحاجة الكفار الذين يُنكرون البعث، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، قد تكون الألف واللام في الإنسان للجنس، **أي:** جنس بني الإنسان الذين يكفرون بالله أو يُنكرون البعث، وقد تكون للعهد، **أي:** الإنسان الذي نزلت فيه الآية، فقد ورد في سبب نزولها، أنها نزلت في أُبيّ ابن خلف، فقد رأى النبي ﷺ في مكة، وسمعه يُحدثهم عن البعث والنشور، وأن الله يُحيي الأموات ويُحاسبُهم بين يديه، فأخذ قطعةً من عظم قد أرِمَتْ، ففتّها

بين أصبعيه، ثم قال: يا محمد، أيُحي الله هذه العظام بعد ما صارت رميماً؟! فالتفت إليه النبي ﷺ، وقال له: "نعم! يُحييها الله ويبعثُك ويقذفُك في النار"[1]، ومات أُبيّ بن خلف على الكفر؛ لأن فرعون هذه الأمة أبو جهل، وليس أُبي بن خلف، **وقيل**: نزلت في العاص بن وائل[2]، وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أُبيّ بن خلف، أو في العاص بن وائل، أو فيهما معًا، فهي عامة في كل من أنكر البعث، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

فالخطاب لكل إنسانٍ انحرف وأنكر البعث والنشور، واستبعد قدرة الله على إحياء العظم الرميم، حيث ذكّره بأصل خلقته، فقد خلقه من نطفةٍ حالها كحال هذه العظمة، فكلاهما لا حياة فيها، ثم صار من هذه النطفة جنينًا، ثم طفلاً، ثم شابًا قويًا، ناطقا سويًا يتكلم ويُجادل ويُخاصم بالباطل، ثم ذكر قصته، **فقال**: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾، وهو أخذه للعظمة وفتّها، ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، ونسي الأطوار التي خلقه الله فيها، **ثم** ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾، **أي**: استبعد إعادة الحياة لتلك العظام التي قد أرمت، فرد الله عليه بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذا أيضًا دليلٌ آخر، بأن الذي أنشأها أول مرة قادر على إعادتها، **ثم ختم الآية بقوله**: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾، وهي إجابة على شُبهة مُتوقَّعة، وهي موجودة اليوم عند بعض المسلمين، **فيقول لك**: كيف يُحيي الله هذه العظام وبعضها قد صار رماداً، وبعضها قد صار في بطون

(1) ينظر: تفسير ابن كثير (6/ 593).

(2) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية (4/ 463).

السباع والحوت، وبعضها تشتت في الأرض؟ **نعم هذا الكلام** وارد عليك أيها المخلوق الذي علمك قاصر، وقدرتك قاصرة، فلا تِقس قدرتك إلى قدرة الله الذي يعلم دقائق الأمور وأين ذهبت!! فجزئيات الخلق عنده واضحة، وعليم؛ صيغة مُبالغة تفيد إحاطة علمه بكل شيء، **وقد جاء في الحديث الصحيح**: "أن رجلاً أسرف على نفسه بالمعاصي، ثم خاف من ربه، فقال لأولاده: إذا أنا مِتُ فأحرقوني، ثم إذا صرتُ رماداً، فذروا نصف الرماد في البر ونصفه في البحر، فلئن قدَر الله على أن يجمعني ليُعذبني عذاباً شديداً، فلما مات نفّذ أولادُه وصيته، فبعثه الله، وقال له: ما حملك على هذا؟ قال: خوفي منك يا الله، فقال له: قد غفرت لك"(1)، فلم يعاقبه الله على إنكاره لقدرته، لأنه فعل ذلك جهلاً منه، وقبِل منه الخوف الشديد الذي انتفع به، ودلّ ذلك على أن الله يجمع الناس من كل مكانٍ ويبعثُهم، ولو صاروا رماداً؛ لأنه بكل خلقٍ عليم.

ثم جاء بدليلٍ آخر منظور لهذا الكافر الذي يُنكر البعث والنشور، فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، **والمعنى**: هل تفكّرتم أيها الناس في شجرة خضراء مليئة بالماء، لأن سبب خضارتها امتلاء جذعها وأوراقها بالماء، فالماء مادة مضادة للنار، فإذا أردت أن تُطفئ النار؛ وضعت عليها الماء، فكيف جعل الله من هذه الشجرة الخضراء مصدراً للنار!! فقد كان العرب إذا لم يجدوا ما يقدحون به شرر النار؛ يبحثون عن شجرٍ في البَر

(1) رواه البخاري برقم (6481)، (8/ 101)، ومسلم برقم (2757)، (4/ 2111)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

اسمه المرْخ والعفار؛ فيأخذون منهما غصنين أخضرين، فيدقون أحدهما بالآخر؛ فتقدح النار منهما، فيُشعلون بها حطبهم وينضجون بها طعامهم[1]، فهل فكّر من ينكر البعث والنشور بهذه القدرة الإلهية التي بين يديه ويتعامل معها يوميًا؟، فهي بالنسبة للكفار حُجة ورد على شبهتهم، وهي بالنسبة للمؤمنين نوع من الامتنان، مثل ما امتن عليهم بتسخير الأنعام؛ يسّر لهم إيقاد النار!

ثم قال جلّ وعلا: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، وهذا دليل أبلغ، من السابق والمعنى: أيهما أعظم: خلق الإنسان الذي لا يُساوي ذرة في مجرات الكون، أم خلق هذه المجرات العظيمة؟! **كما قال:** ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر:57]، إذاً فالأمر بالنسبة له سهل ومُيسّر، فمن قدر على خلق السموات مع عظمها؛ قادر على أن يُعيد هذه الأجساد التي فنيت في التراب ويُرجعها إلى الحياة بعد الموت ويبعثها، **وجاء الجواب بقوله:** ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾؛ لأن السؤال كان بصيغة النفي، والخلّاق: صيغة مُبالغة من الخلق، والعليم: صيغة مبالغة من العلم، **أي:** كيف يعجزه خلقكم وهو بهذا الوصف سبحانه.

ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾، **أي:** أمره الكوني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أراد أن يفعل شيئًا، فإنما يقول لذلك الشيء كن فيكون!! فعطاؤه كلام، وعذابُه كلام، وفعلُه كلام، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا مشقة، ولا عنت، ولا تعب يلحقه في فعله، **كما قال:** ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾[ق:38]،

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير (6/ 595).

ولا يعجزه شيء سبحانه.

ثـم ختـم الـسورة بقولـه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، فنزّه نفسه عن النقائص التي نسبها إليه المشركون، ووصف نفسه بأنه مالك الأشياء كلها في هذا الكون، وملكوت؛ جمع للمُلك، ومرجع الناس يوم القيامة إليه؛ فيُحاسب كل واحدٍ منهم على عمله، فأول الآية تنزيه لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وآخر الآية إعلام بعودة الخلق إلى الله ليُجازيهم على أعمالهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن فضل الله على الخلق ونعمه كثيرة، ومن ضمنها تذليل الأنعام وفوائدها التي لا تُعد.

2- اشتمال القرآن على عدد كبير من أساليب مُحاجة الكفار، منها العاطفي، ومنها العقلي، ومنها العاطفي العقلي، ونحوها، حتى لا يدع لأحد فرصة أن يعتذر عن الإيمان فالحجج والبراهين في كتاب الله كافية لمن تدبرها، ووقف عليها.

3- وجوب التنزيه المطلق لصفاتِ الله وأفعاله عن النقائص، وإثبات صفات الكمال والجلال له.

تفسير سورة الصافات

تفسير المقطع الأول من سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ
﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾
دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ
أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾
وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا
هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم
بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة الصافات؛ سورة مكية[1]، **ومن مقاصد السورة العظيمة** تنزيه الله

---

(1) تفسير ابن كثير: (7/ 5).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عما نسبه إليه المشركون من الأقوال الباطلة، مثل الشريك والزوجة والولد، ونحوها من المزاعم الباطلة.

وابتدأت السورة بالقسَم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾، **والصافات:** هي الملائكة التي تصف عند ربها صفوفًا في عباداتها وتسبيحها، فإنها تتعبد الله على شكل صفوف مستقيمة متراصة بين يدي الله سبحانه وتعالى، **وفي الحديث:** "ألا تصُفُّون كما تصف الملائكة، قالوا: يا رسول الله وكيف تصف الملائكة؟ قال: يتراصون في الصف ويُتمون الصف الأول فالأول"[1].

وقوله: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾، **والزاجرات:** هي الملائكة التي تزجُر السحاب، أو تنزُل بالزواجر، **وهي** الأوامر والنواهي الشديدة.

وقوله: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾، **وهي** الملائكة التي تتلوا الذكر المطلق، أو تتلوا القرآن، فهذه ثلاثة أقسام، بثلاثة أصناف من الملائكة، فصنف منهم يصف بين يدي الله، وصنف يزجُر السحب أو ينزل بالزواجر من الأوامر والنواهي، وصنف يتلوا ويقرأ الذكر أو القرآن الكريم، والدليل على كونها لذات واحدة العطف بالفاء، وتأنيث هذه الصفات باعتبار إجرائها على معنى الطائفة والجماعة، ليدل على أن المراد أصناف من الملائكة لا آحاد منهم[2].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾، هذا جواب القسَم، **أي:** إن معبودكم الحق

---

(1) صحيح مسلم (1/ 322)، برقم: (430).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 84).

الذي يجب أن تُصرف له عباداتُكم هو الله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له، **ثم وصف نفسه، بقوله:** ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ۝٥ ﴾، **أي:** رب كل العوالم، فيشمل المخلوقات كلها من الملائكة والجن والإنس والحيوان والأشجار والأحجار وغيرها، ويشمل الأفلاك والأجرام السماوية، ونحوها، والمشارق؛ المقصود بها مشارق الشمس والقمر فإنها تُشرق من جهة وتغرب من جهة، فاكتفى بذكر المشرق الذي يلزم منه المغرب، وجمعها باعتبار أن لها منازل متعددة، **وفي آية أخرى ذكرها بصيغة المثنى، فقال:** ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۝١٧﴾[الرحمن:17]. **والمقصود بذلك** مشرق الشتاء ومشرق الصيف، **وفي آية ثالثة ذكرها بصيغة الإفراد، فقال:** ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ [المزمل:9]، **والمقصود بذلك** الجنس، **والمعنى:** أن الله رب كل شيء في هذا الكون، وكان المشركون يعترفون بأن الله خالق السموات والأرض والناس، فألزمهم بذلك الحجة، كيف تعترفون أن الخالق هو الله وتتخذون أصنامًا وأنداداً وأوثانًا تعبدونها من دون الله؟!، وهذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فإن الخالق المالك المتصرف هو المستحق للعبادة، فمن لا يخلق ولا يملِك ولا يتصرف لا يستحق أن يكون إلهًا أو معبوداً.

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾، خلق الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ سبع سموات، وزيّن السماء السابعة القريبة من الأرض بالنجوم، فجعل أنوارها تنفذ إلى الأرض فيراها الخلق وهي تتلألأ فيها ليلاً فيستمتعون بمنظرها الجميل الذي يفتح النفس، وهذه هي الحكمة الأولى من خلق النجوم،

والحكمة الثانية في قوله: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨﴾، **أي:** وجعلنا الشهب حفظًا من مردة الشياطين فلا يسمعون ما يصل إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة من أخبار الغيب، فإذا جاء شيطانٌ وحاول أن يسترق السمع، قُذف بشهابٌ ثاقب يتبعه من كل الجوانب حتى يقتله، ولا يُترك لهم المجال للوصول إلى استراق السمع، والمارد هو العاتي الذي تمرد عن الطاعة، وقد كانت السماء قبل بعثة محمد ﷺ غير محروسة من استراق السمع، فكان الشياطين يركب بعضُهم فوق بعض ليقتربوا من السماء ويحاولون أن يستمعوا لما يُقال فيها من أخبار الغيب، فلما بُعث النبي ﷺ، **حُرست السماء، كما في قوله:** ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩﴾[الجن: ٨ – ٩].

وقوله: ﴿دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩﴾، **أي:** يطردون ويدفعون بشدة بهذه الشهب، فلا يستطيعون استراق السمع، ولهم عذاب دائم مستمر(1)، **أي:** لا ينفك عنهم كلما حاولوا الاستراق لأنهم مجبولون على محاولته(2)، بواسطة الشهب التي يُقذف بها الشياطين، حيث تستمر تلاحق الشيطان حتى تقتله، فإن لم تقتله أصابته بالخَبَل وعطلت قواه؛ فيصير في عذاب دائم، فلا يستطيع أن يعود مرة ثانية لاستراق السمع، وهذا الأمر واضح الآن بعد تقدم العلم وظهور

(1) التفسير البسيط: (19/ 20).

(2) التحرير والتنوير: (23/ 93).

ما يُسمى بالصواريخ الموجهة التي تُطلق فتظل تتابع الهدف الذي تريده حتى تصيبه، وهي من صنع البشر، فلا يستغرب أن يوجد من خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شهاب يجري وراء الشيطان حتى يُصيبه.

وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾، **أي:** إلا من اختلس الكلمة من كلام الملائكة مسارقة، فلحقه شهاب ثاقب[1]، والخطِف: الأخذ بسرعة على حين غفلة[2]، **أي:** يحاول أن ينفذ المهمة قبل أن يجري وراءه الشهاب الثاقب، والثقوب: ما تذكى به النار، وهو الشرر الذي يخرج من الكوكب ويشاهد في السماء مشتعلاً ويتحرك بسرعة، فإذا أصاب الشيطان أو أي جسم آخر ثقبه، وحرقه، فيهلك.! فالاستثناء لا يعني أن هذا المسترق للسمع لا يرمى بالشهب فهو لازم لكل مسترق للسمع، بل الاستثناء يفيد أن المعلومة قد تنتهي إن أصيب قبل نقلها لغيره، أو قد يصاب بعد وصولها إلى غيره، فتصل إلى الكهنة فيزيدون عليها تسعة وتسعين كذبة.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾، ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يستفتي المشركين، **أي:** يسألهم الجواب الصحيح، لما يسألهم عنه وهو: هل هؤلاء المشركون المنكرون للبعث أعظم وأكبر خلقاً أم الكون بما فيه من السموات والأرض وما فيهما من المجرات والكواكب وغيرها من المخلوقات العظيمة؟!!، وهو سؤال استنكاري تعجبي!! لأنهم يقرون أن هذه

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 536).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 445).

المخلوقات أشد خلقًا منهم، ثم بيّن لهم أنهم خلقوا من شيء ضعيف، **فقال:** ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾، **المقصود بذلك** آدم فهو الذي خُلق من الطين اللازب، وهو التراب المخلوط بالماء، خلطًا جيداً حتى التزق بعضه ببعض[1]، وهي مرحلة من مراحل خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد خلق الله آدم على عدة مراحل، ذكرت في أكثر من آية، فالمرحلة الأولى أخذ قبضة من التراب، ثم أُضيف لها الماء فصارت طينًا، ثم هذا الطين تُرك حتى تخمر فصار لازبًا، وهو الصلصال، ثم الحمأ المسنون، وهو الطين الذي قد نتن من كثرة جلوسه بين الماء، ثم يبس فصار فخاراً، ثم نفخ فيه الروح.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾، **بل:** للإضراب عما سبق، ثم وصف حال محمد ﷺ، وهو ينظر إلى هؤلاء الذين يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، ثم يعبدون غيره ويُنكرون البعث والنشور؛ فيتعجب من فعلهم هذا!!، **وفي قراءة أخرى**[2]: ﴿بل عجبتُ﴾، بضم التاء، فيكون المتعجب من فعلهم هذا هو الله، وتكون من آيات الصفات، وقد جاء إثبات هذه الصفة في الحديث النبوي، كما في قصة الأنصاري وزوجته مع ضيف رسول الله ﷺ: "إن الله عجب من صنيعكما بضيفكما البارحة"[3]، **ومن العجب في أمرهم** أنهم من شدة تكذيبهم لك يسخرون مما تقول لهم، ولا يتعظون حينما

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 7).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 22).

(3) صحيح مسلم (3/ 1624)، برقم: (2054).

تعظهم بما تعرفه عقولهم وفطرهم، مما يدل على شدة بلادتهم وقسوة قلوبهم.

وقولـه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)﴾، **أي:** حين يرون الحجة والمعجزة والبرهان، يبالغون بالسخرية منها، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها[(1)]، فالسين والتاء تُستخدم لأحد أمرين: الطلب، أو المبالغة.

وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)﴾، وصفوا الآيات والمعجزات التي جاءهم بها محمد ﷺ، أنها سحرٌ واضح، كما قالوا في قصة انشقاق القمر، **كما في قوله:** ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[القمر: 2].

وقولـــــــه: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)﴾، استفهام للتعجب والإنكار، **والمعنى:** هل سنبعث بعد أن نموت وتتحول أجسادنا إلى تراب، ويبقى منها رفاة العظم؟، فكيف سنُبعث ونحن بهذه الحالة؟! وهل سيبعث آباؤنا الذين ماتوا قبلنا أيضاً؟! **والمقصود بالآباء** كل من سبق من أصول الشخص، وليس الأب القريب فقط، ثم أمر الله نبيه أن يجيبهم على تساؤلهم هذا، **فقال:** ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)﴾، **أي:** نعم، ستُبعثون وتحشرون وأنتم على هذه الحالة، أنتم وآباؤكم الأولون وأنتم ذليلون صاغرون حقيرون؛ لأنهم كانوا في الدنيا متكبرين على الله وعلى خلقه، والمُتكبر يُبعث على هيئة الذر يدوسه الناس بأقدامهم لإهانته واحتقاره، ثم بيّن لهم أن بعثهم ليس فيه مشقة على الله، **فقال:** ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩)﴾، **أي:** فإنما يصيح فيهم إسرافيل صيحة واحدة، سميت زجرة لأنها تزجر الموتى عن الرقود

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 37).

في القبور وتحثهم على القيام من القبور والحضور في موقف القيامة[1]، وهي النفخة الثانية في الصور، فتعود الأرواح إلى أجسادها ويُبعث الناس من قبورهم، فإذا أبصارهم شاخصة، ينظرون إلى ما كانوا يوعدونه من قيام الساعة ويرونه حقيقة، وينتظرون الفصل والقضاء فيهم من الله سبحانه.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠﴾، فلما شاهدوا القيامة نادوا على أنفسهم بالهلاك، وقالوا: هذا يوم الجزاء والحساب الذي نجازى فيه بأعمالنا من الكفر والتكذيب للرسل؛ لأن الله أجّل حساب الناس إلى يوم يُبعثون، فإذا قاموا حاسبهم على ما عملوا من عمل صالح أو سيء.

وقوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾، فترد عليهم الملائكة وتقول لهم تبكيتاً وتقريعاً: هذا يوم الفصل، الذي يفصل الله فيه بين المختصمين، المحسن والمسيء، وكنتم تنكرونه وتجحدون وقوعه.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تعدد أوصاف الملائكة بحسب أعمالها وأصنافها.

2- أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جمَّل خلق السماء وزينها بالكواكب.

3- حماية السماء من استراق السمع بعد بِعثة محمد ﷺ.

4- تعجّب رسول الله من حال الكفار وسخريتهم بما جاءهم به من الحق.

---

(1) تفسير الرازي: (26/ 326).

تفسير المقطع الثاني من سورة الصافات

﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ
بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ
﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ
﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ
بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ
ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ
﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾، هذا أمر من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ للملائكة أن يجمعوا في ساحة المحشر الكفار والمشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وعبادة غير الله، مع أشكالهم وأشباههم، وهذا يعني أن الناس سيحشرون يوم القيامة بحسب أعمالهم، وأنهم يصنفون إلى مجموعات، وكل مجموعة متشابهة في الذنب والإجرام تُحشر مع بعضها، فكل مشرك كافر يلحق بشبيهه ونظيره في العمل، وتحشر معهم الآلهة التي كانوا يعبدونها في الدنيا من دون الله، حيث

تُصور لهم آلهتهم في ساحة المحشر، وتظهر بين أيديهم، ويُجمع كل كافر مشرك مع معبوده الذي كان يعبده من دون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في مكانٍ واحد، وفي ذلك توبيخ وتقريع لهم، ويُحشر المؤمنون مع المنافقين في مكانٍ واحد؛ لأن الجميع في الظاهر كان يعبدون الله، فيُعطون علامة ثانية للفصل بين المؤمنين الصادقين والمنافقين، **وهي المذكورة في قوله:** ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾[القلم:42]، فهنا يظهر المنافق من المؤمن الصادق، ثم يأمر الله الملائكة أن تدل الكفار والمنافين إلى الطريق الموصلة إلى الجحيم، والصراط في هذا الموضع صراط حسي للتذكير بالصراط المعنوي، وهو اتباع الدين الحق في الدنيا، الموصل إلى الجنة في الآخرة، ومن لم يسلكه في الدنيا؛ سقط منه إلى جهنم في الآخرة، وفي إضافة الصراط إلى الجحيم هنا إشارة إلى عدم النجاة وتحقق الهلاك!.

وقوله: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤﴾، ولما سيقوا إلى النار أمر الله الملائكة أن يُوقفوا هؤلاء الكفار عند الصراط؛ فيُسألون عن أعمالهم صغيرها وكبيرها، والسؤال لهم سؤال حساب معاتبة ومحاسبة من أجل إقامة عدل الله فيهم، وفي آيات أخرى ذكر نفي السؤال لهم، والجمع بينها أن ذلك يكون بحسب اختلاف الأزمنة والمراحل التي يمرون بها، ثم ذكر ببعض ما يقال لهم، **فقال:** ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾، وهو سؤال توبيخ لهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا ينصر بعضُهم بعضًا، فلماذا لا ينصر بعضكم بعضًا اليوم؟!

ثم جاء الجواب بقوله: ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦﴾، **بل** حرف يُفيد الإضراب

عن شيءٍ سابق ليُثبِت خلافَه، **والمعنى:** لا تناصر اليوم بينهم بل حالُهم أنهم مستسلمون، خاضعون ذليلون بين يدي الله، وزال عنهم ما كان لهم من تناصر وتطاول على المسلمين قبل اليوم.

ثم قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، الإقبال ضد الإدبار، وهو مقابلة الشخص لصاحبه وجهًا لوجه، فالكفار يوم القيامة يسأل بعضُهم بعضًا سؤال ملامة وعتاب، **حيث يتم التساؤل بين طرفين، الطرف الأول:** وهم الكُبراء والقادة والسادة، **والطرف الثاني:** وهم الأتباع والضعفاء وعامة الناس.

وفحوى هذا التساؤل، في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾، **القائلون هنا هم** الضعفاء الأتباع، فهم الضحية غالبًا، وهم أتباع كل ناعق في كل زمانٍ ومكان، حيث يخدعون بالشعارات لقلة حيلتهم، فإذا انكشف لهم الأمر يوم القيامة تجادلوا وتخاصموا مع من خدعهم وأضلهم في الدنيا، **وفي معنى اليمين عدة أقوال**[1]: **أنها** الحلف، **أو** القوة، **أو** الخير، **أو** المكان الآمن، وكلها أساليب يمكن أن يستخدمها الكبراء لإضلال الأتباع في الدنيا، ولو تتبعنا الواقع لما خرج عن هذه الأساليب الأربعة.

فرد عليهم الكبراء: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾، بل أنتم السبب في غوايتنا لكم، فلو كنتم صادقين في الإيمان لما استطعنا إغواءكم، وفي ذلك إشارة إلى خطورة الجهل، وضعف اليقين بأمور الدين، فيقع الشخص بسببها فريسة لأصحاب الشبهات، فيُغررون عليه بأدنى شبهة فيحرفونه عن الحق.

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 539).

ثم أكدوا حجتهم بقولهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾﴾، فذكروا سبباً آخر لغواية الأتباع، وهو الطغيان، وهو الفساد والانحراف ومجاوزة الحد، فجمعوا بين فساد الاعتقاد وفساد السلوك، فكانوا فريسة للكبراء، وأتباعاً لكل ناعق، بدون حجة ولا برهان،! وهذا سبب لما يشاهد اليوم في الواقع من اتباع غوغاء الناس لبعض المنحرفين والتافهين في وسائل التواصل الاجتماعي!، **وفي ذلك إشارة إلى** أهمية بناء الإيمان واليقين في نفوس الناس وتصحيح سلوكهم حتى لا يقبلوا أي فكرة إلا بحجة وبرهان.

وقوله: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾، وهذا من قول الكُبراء، وهو إقرارٌ منهم بأنهم سلكوا طريق الغواية فحق عليهم الخذلان، **كما قال:** ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[الصف:5]، فثبت أمر ربنا بإذاقتنا عذاب جهنم جميعاً، ثم اعترفوا بجريمتهم وأنهم كانوا غاوين وكانوا سبباً لإغواء غيرهم، والغواية قرين الضلالة، وغالباً ما تُطلق على الفِكر، والضلال غالباً ما يُطلق على السلوك، وفيه إشارة إلى خطورة الانحراف الفكري، فإن الانحراف الفكري يُؤثر على الجوارح والسلوك، بخلاف الانحراف في السلوك فقد يكون ناتجاً عن الشهوات، فيُذكر صاحبه فيتوب ويعود، وفيه إشارة إلى أن صاحب الانحراف الفكري نشيط ويدعوا إلى مذهبه وفكره، بينما بعض أصحاب الحق كسالى في الدعوة والنصح والتوجيه، وقد شاهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شيئاً من ذلك في حياته، فكيف بحياتنا اليوم! فكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من جَلَدِ الفاجر وعجز الثقة[1].

(1) مناقب عمر لابن الجوزي: (ص117)

ثـــم قـــال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾، **أي**: إن الكبراء والضعفاء يوم القيامة مشتركون في أصل العذاب ومختلفون في مقداره، فكل واحد منهم يعذّب بقدر عمله، فالاشتراك لا يعني التساوي، وهذا من عدل الله سبحانه فيهم.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾، **وفائدة هذا التعقيب** ردع السامعين الحاضرين من كفار قريش، والمعنى: كما فعلنا بالمجرمين السابقين؛ سنفعل بكم إن بقيتم على الكفر والإجرام.

ثـم قـال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، **بيـان وتعليـل** لعذابه للمجرمين السابقين، **وهـو تكبرهم عـن قـول**: لا إله إلا الله، وهي كلمة التوحيد، وتكبرهم عن الدخول في الإسلام، وبقاؤهم على الشرك والوثنية، فقد كان الأنبياء والرسل يطلبون منهم ذلك وهم يبالغون في الاستكبار من قولها والتولي عن طاعتهم.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾، ويُجادلون من دعاهم إلى التوحيد بقولهم: كيف نترك عبادة آلهتنا لقول شاعر مصاب بالجنون؟!، وهذا يدل على استكبارهم وتناقضهم، فإنه لا يجتمع في الشخص الواحد أن يكون شاعراً وأن يكون مجنونـًا؛ لأن الشاعر لديه مشاعر وأحاسيس يقول شعراً منظومـًا مُقفّى، والمجنون يهذي كلامـًا لا يُعقل.

فرد الله عليهم هذا القول الباطل والتهمة القبيحة لمحمد ﷺ، بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾، بل محمد ﷺ خلاف ما قلتم، وكلامُكم هذا

غير صحيح، فقد بعثه الله بالحق، وجاء بالحق وهو القرآن الكريم، وكانت بعثته تصديقًا لجميع الرسل الذين قبله، فقد بشروا به، ولو لم يأتِ لكانوا غير صادقين، وصدّق المرسلين فيما جاء به من أحكام تتوافق مع من سبقه، وهي أصول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾، الخطاب لكفار قريش ومن سار سيرهم، إن استمروا على كفرهم، والعذاب الأليم هو عذاب جهنم، وكل إنسانٍ سيُعذب بقدر عمله، وإنّ اشتراكهم في العذاب الأليم لا يعني التساوي بينهم فيه، وهو دليل على عدل الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فيهم، وأنه لا يظلم أحداً من الخلق حتى الكفار الذين يبغضهم الله!!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- إثبات الصراط يوم القيامة، وهو جسرٌ فوق متن جهنم يعبره أهل الجنة ويعبره أهل النار.

2- أن سبب عذاب الكافرين هو أعمالُهم السيئة والمنكرة من الشرك والكفر والمعاصي.

3- أن الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حكَمٌ عدل لا يظلم مثقال ذرة، بل يجازي كل شخص بما يستحق.

4- أن أهل الكفر والمعصية والشرك يتلاومون يوم القيامة فيلوم بعضُهم بعضًا.

تفسير المقطع الثالث من سورة الصافات

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾، الاستثناء مُنقطع و"**إلا**" بمعنى لكن، والمعنى: لكن عباد الله المخلَصين حالهم وجزاؤهم يختلف في الآخرة عن حال المكذبين، **وعبادُ الله**: المقصود بهم الذين آمنوا بالله ورسله، الذين أخلصهم الله واصطفاهم لعبادته، وأخلصوا أعمالهم وطاعتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فجزاؤهم في الآخرة أن يمنحهم الله ويخصهم بالرزق المعلوم الذي ليس

بمجهول، فهو معلومٌ بزمنه، ومعلومٌ بقدره، ومعلومٌ بنوعه، ومعلومٌ بوصفه، فأهل الجنة لا يأتيهم ذلك الرزق إلا وهم يعلمون عنه هذه الأوصاف قبل مجيئه إليهم، وهذا من تكريم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم، فهناك فرق بين أن تُدعى إلى طعام ولا تدري متى سيأتي وماذا سيُقدم لك، وبين أن تعلم نوع الطعام ومقداره وزمانه، والمقصود بالرزق هنا ما يتلذذون به من أنواع المطعومات والمشروبات في الجنات، **ولذلك فسّره بقوله:** ﴿فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾، فواكه، بدل من رزق، وذُكر الأكل في الجنة على سبيل التفكّه؛ لأن الأجساد لا تحتاج إلى طعام لتقتات عليه، فهي مُخلّدة في الجنة بدون أقوات، وما يأكلونه ويشربونه ليسوا محتاجين إليه؛ لأنهم جياع عطشى، بل من باب التلذذ فقط، وأهل الجنة مُكرّمون في الجنة يعيشون حياة التكريم عند ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعند الملائكة، ويكرم بعضُهم بعضاً، في دار الكرامة في جنات النعيم، وأضاف النعيم إلى الجنات لكثرته، فهي دار التنعم لأوليائه.

ثم وصف حال أهل الجنة في الجنة، فقال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾، **أي:** يجلسون على السرر، **وهي:** الأرائك المرتفعة عن الأرض، ولا تُسمى سُرراً حتى تكون مفروشة ومُزينة ومحبوكة بأنواع من الزبرجد والذهب، ويقابل بعضُهم بعضاً، فلا يجلس أحدٌ قفا الآخر، وإنما يجلس بعضُهم مقابلاً بوجهه لغيره، وهذا التقابل يدل على خلو نفوسهم من الغِل والشحناء، **كما قال:** ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الحجر:47]، ويدل على سعة المكان وعظمته.

وقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ٤٥ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ٤٧﴾، أي: يتردد عليهم الخدم والغلمان بالكأس المملوءة بالخمر، وقد كانت الخمر عند العرب من ألذ الأشربة وأكثرها انتشاراً، فحدّثهم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن خمر الجنة، التي تجري وتُغرف وتُملأ منها الكؤوس ولونها أبيض كاللبن وليست كلون خمر الدنيا، ويتلذذ بها الشارب، فكلما شرب منها ازدادت لذتها فلا يعافها، ولا تُسبب لشاربها مطلق الوجع، كالصداع والمغص والآلام، ونحوها، وهذه غالباً تكون من آثار خمر الدنيا، ولا يُصاب من شربها بالسكر وذهاب العقل، ولا تنتهي بل هي مستمرة في الجريان.

وقوله: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٞ ٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾، أي: ولأهل الجنة في الجنة نساء الحور العين، اللاتي قصرن نظرهن على أزواجهن، وقصر أزواجُهن نظرهم عليهن، لشدة جمالهن، فكل واحد من الزوجين مكتفٍ بالآخر لا ينظر إلى غيره، والعِين: هي واسعة العين، وسُميت الحُورية حورية من سعة عينها، فوصف عيونهن بالحسن والعفة[1]، ثم وصف رقتهن وصفاء بشرتهن بأنهن كالبيض المُخبئ، أي: كالبيضة بعد نزع قشرتها[2]، وقيل[3]: كبَيض النعام، لأن النعامة تحرص على أن تخبئ بيضها وتفرش له شيئاً من ريشها قبل أن تبيض، ثم تغطيته حتى لا تناله الريح ولا الشمس ولا الأيدي، وهو وصف لجمال وليونة ورقّة أجساد الحور العين.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 14).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 44).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 114).

وقوله: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾، هذا وصف لحال أهل الجنة وهم جالسون على الأسرة متقابلين فيبدؤون بالتساؤل، وهو تساؤل وتذكّر لما كانوا عليه في الدنيا من اجتماعهم على الطاعة والعبادة، وصبرهم على الابتلاء، وخوفهم وخشيتهم لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ونحوها من الأحوال، فيذكر كل واحد منهم ما كان يحصل له من المواقف السيئة والمواقف الحسنة.

وقوله: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١﴾، فذكر أحدهم قصة له مع صديقه الكافر من الإنس الذي كان معه في الدنيا حيث كان يأتي إليه ويُلقي عليه مجموعة من الشبه، **منها: قوله:** ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾، **أي:** هل أنت مُصدّق أن هناك بعثاً ونشوراً بعد موتنا وقد صارت أجسادنا تراباً وبقيت عظامنا رفاة، ثم نجازى ونحاسب بعد ذلك على أعمالنا في الدنيا؟ فلما تذكر هذا الكلام الذي كان يقوله له صاحبه في الدنيا، طلب من رفقائه في الجنة أن يشاركوه في معرفة مصير صديقه هذا في النار، **فقال:** ﴿هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤﴾، **أي:** هل أنتم مستعدون للذهاب معي للاطلاع على حاله في النار؟، وكيف عرف أنه في النار؟ **الجواب:** لأنه مات على الكفر، أو سأل عنه فأُخبر أنه في النار، وكيف يمكن لشخص في الجنة أن يطلع على من في جهنم؟! **الجواب:** هذا أمرٌ يسير لأن الله وعد أهل الجنة بتحقيق طلبهم، وما المانع أن يكون هذا الرجل قد طلب من ربه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أو من الملائكة الذين هم خزنة الجنة أن يطلعوه على حال صاحبه في النار، وهل وافقه رفقاؤه من أهل الجنة على ذلك؟! الظاهر نعم[1].

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 704).

وقوله: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥﴾، فاطلع المؤمن في جهنم، فرأى صاحبه الكافر في وسط الجحيم، وهو المكان الذي فيه العذاب الشديد.

ثم بدأ الحوار بينه وبين قرينه: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧﴾، فقال له المؤمن: تالله، التاء من حروف القسم كالواو، أي: والله، إن محاولتك المتكررة لإقناعي بالكفر كادت أن تنجح، ولو كفرتُ لسقطت مثلك في جهنم، ولولا أن الله أنعم عليّ بالهداية وألزمني الاستقامة لكنت حاضراً معك الآن في وسط الجحيم، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾[الأعراف:43]، ولم يذكر لنا جواب صاحب النار على صاحبه، ولعله أهمل كلامه احتقاراً له، أو أنه أصيب بالقهر فسكت.!

وقوله: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩﴾، هذا القول لأهل الجنة، وهو سؤال يستفهم بعضُهم بعضاً، أفما نحن بميتين غير موتتنا الأولى في الدنيا؟!، وقد يكون جرى منهم ذلك قبل أن يُعرض عليهم الموت في صورة كبش(1)، كما في الحديث، ويُقال لهم: "يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت"(2)، فلما عُرض عليهم علموا ذلك، أو أجابتهم الملائكة بأنكم خالدون في الجنة، وأنكم لن تُعذبوا بالخروج منها، فلما قيل لهم ذلك، قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠﴾، أي: إن هذا هو الجزاء الذي جازانا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به في الجنة ونعيمها، وهو الظفر والفلاح العظيم، الذي

(1) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 334).

(2) صحيح البخاري: (6/ 93)، برقم: (4730).

لا أعظم ولا أكبر منه عند الله!.

وقوله: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۝٦١﴾، والراجح أن هذا القول هو من تعقيب الله على كلام أهل الجنة، أي: لمثل هذا الذي أعْطَيتُ هؤلاء المؤمنين من الكرامة في الآخرة، فليعمل في الدنيا لأنفسهم العاملون، ليدركوا ما أدرك هؤلاء بطاعة ربهم[1]، وهو نوع من الدعوة والتوجيه والحث للناس كي يستغلوا الدنيا في الإيمان والأعمال الصالحة ليحصلوا على هذا الجزاء العظيم في الآخرة، فإن الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- من نعيم أهل الجنة اجتماع بعضهم مع بعض في الجنة، وتساؤلهم سؤال منادمة ومسامرة واستذكار، وهذا من كمال سرورهم في الآخرة.

2- أن الإنسان يتذكر في الآخرة زملاءه وأصحابه وأقرانه، فاحرص من الآن على اختيار الزميل والقرين والصديق الصالح.

3- أثر القرين على قرينه، والصديق على صديقه.

4- أهمية العلم بالله، وأثره على الثبات والاستقامة على دين الله.

5- أن الفوز العظيم في الجنة هو الذي يسعى فيه العاملون المجتهدون ويتنافس فيه المتنافسون في الدنيا.

---

(1) تفسير الطبري: (21/ 52).

تفسير المقطع الرابع من سورة الصافات

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا
شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ
﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ
مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ
نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا
ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾، هذا سؤال تقريري تعجبي، و"ذلك" يعود إلى ما سبق ذكره من جزاء المؤمنين في الجنة، وهذا من طريقة القرآن، فإنه يُقارن بين أحوال أهل الإيمان وأحوال أهل الكفر في الدنيا والآخرة، **والمعنى**: أهذا الذي أعطيت هؤلاء المؤمنين الذين جازيتهم بالجنة، ومنحتهم فيها الرزق المعلوم خير، أم ما أعددت لأهل النار من شجرة الزَّقُّوم، وما يتبعها من الألم والغم؟!، وهو شجر من أخبث الشجر، يكون بتهامة

وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء، كريهة الرائحة، صغيرة الورق، مسمومة، ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه في الغالب[1]، ومعلوم أنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر في الخيرية إلا أن هذا الكلام جاء على سبيل السخرية والتهكم بهم[2]، فلا وجه للمقارنة بين ما يحصل عليه المؤمن من النعيم في الجنة وبين نوع واحد من أنواع العذاب في النار، وهو أكل شجرة الزقوم، وهي شجرة خبيثة وصفها الله بعدة أوصاف لتشنيع حالها، وهي موجودة في جميع دركات النار، ثم ذكر الحكمة من خلقها، **فقال**: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾، **أي**: صيّرها الله سبباً لفتنة الظالمين وهم الكفار لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والإعراض عن الله تعالى، والفتنة لها أكثر من معنى في نصوص القرآن، **ويصلح لها هنا معنيان، الأول**: أنها بمعنى الاختبار للكفار هل يصدقون بخبر الله عنها بأنها تنبت بالنار، والنار تحرق الأشجار[3]، فكذبوا وقالوا: كيف تنبُت شجرة في النار، والنار تأكل الأشجار؟!

والثاني: أنها بمعنى العذاب[4]، **أي**: جعلنا الكافر يأكل منها فتحرقه، لأنها شجرة من النار فكلما أكل منها قطعة كلما أحرقته، ثم وصف لنا هذه الشجرة، **فقال**: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ٦٤﴾، **أي**: جنس هذه الشجرة ينبت في قعر الجحيم، ولكن من كبر حجمها وكثرة أغصانها تتسرب إلى جميع

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 122).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 336).

(3) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 20).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 123).

دركات النار[1]، ليأكل منها أهل النار، وفيه إشارة إلى أن طيب الثمرة وخبثها يتبع أصل منبتها، وشر المغرس؛ يدل على شر الغراس وخسته[2]، **كما قال:** ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾[الأعراف:58].

وقوله: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ٦٥﴾، **الطلع** هو الثمر، وأطلق عليه اسم الطلع على وجه الاستعارة تشبيهاً له بطلع النخلة، لأن اسم الطلع خاص بالنخيل[3]، وأكثر الأشجار الموجودة عند العرب هي النخيل، فشبّهها لهم بما يعرفون، وشبه ثمرتها التي تخرج منها برؤوس الشياطين، لقبحها وشدة بشاعتها، لأن الشيطان يتخيله البشر بأقبح صورة، لأنه مكروه مستقبح في طباع الناس، لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير، وظاهر لفظ القرآن يدل على أنها شجرة كريهة الطعم، منتنة الرائحة، شديدة الخشونة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ ٦٧﴾، **أي:** إن الكفار من أهل النار لآكلون من تلك الشجرة رغماً عن أنوفهم، لأنهم يُصابون بالجوع الشديد فلا يجدون شيئاً يأكلون منه إلا هذه الشجرة، رغم شدة قبح صورتها وطعمها ورائحتها، فيعطيهم نهماً وشرهاً في أكلها، فيملؤون منها بطونهم، ليذوقوا شدة عذابها، لأن من أكل من الشيء القبيح كثيراً؛ زاده ألماً وتعباً، نسأل الله السلامة والعافية، فإذا امتلأت بطونُهم

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 18).

(2) تفسير السعدي: (ص: 704).

(3) التحرير والتنوير: (23/ 124).

منها أصابهم العطش، فيطلبون الماء ليشربوا فلا يأتيهم، وإنما يُتركون حتى تكثُر حاجتُهم إلى الماء، فيستغيثون من شدة العطش، فيعطون خليطاً من الحميم، وهو الماء شديد الحرارة[1]، **والشوب** هو الخليط، أي يُخلط طعامُهم من تلك الشجرة، وهي عبارة عن جمر حار بماءٍ حار، فيجتمع ذلك كله في بطونهم، **كما قال:** ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ١٥﴾[محمد: 15]، فإذا تقّطعت الأمعاء؛ شعر صاحبها بالألم والعذاب كما شعر بالحُرق وشدة الحرارة في اللسان، وهو ما يُسمى اليوم في علم الطب بقرحة الأمعاء أو قرحة المعدة.

وفي معنى (ثم) قولان: الأول: إنهم لا يسقون إلا بعد مدة مديدة والغرض تكميل التعذيب، **والثاني:** بيان أن حال المشروب في البشاعة أعظم من حال المأكول[2].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ٦٨﴾، **في معناها قولان للمفسرين، القول الأول:** أن اللفظ فيه استعارة للانتقال من حالة طارئة إلى حالة أصلية تشبيهاً بمغادرة المكان ثم العود إليه، فهم لم يفارقوا الجحيم وإنما أريد بهذا اللفظ التنبيه على أن الأكل من الزقوم والشراب من الحميم زيادة على عذاب الجحيم[3].

والقول الثاني: أنهم يخرجون من أماكنهم خارج الجحيم، يبحثون عن

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 20).

(2) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 338).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 126).

الطعام والشراب، فإذا أكلوا وشربوا أرجعتهم الملائكة إلى مكانهم[1]، والأول أرجح.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾، ثم بيّن الله سبب عذابه ذلك؛ بأنهم ساروا في طريقة الضلال والكفر التي سار عليها آباؤهم وأجدادهم، مع أن الله قد أرسل إليهم رسلاً وأنزل عليهم كتباً، فلم يقبلوا الحق بعد وضوحه لهم، بل سار الأبناء على ما سار عليه الآباء بكل جد ونشاط، **والإهراع في اللغة هو** السير السريع، **والمقصود** أنهم كانوا متعصبين لدين الآباء والأجداد الباطل، لا يتأخرون عن اتباعه ولا يتوقفون عن السير عليه.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾﴾، ثم أخبر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن هذا الضلال الذي حصل من هؤلاء المشركين، قد حصل من أمم كثيرة كانت قبلهم، والأكثرية هنا مطلقة ومستمرة حتى اليوم، **فأكثر الناس على ضلالة كما قال:** ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[سبأ:13]، فعدد سكان العالم اليوم ثمانية مليار، من ينتسبون منهم إلى الإسلام ملياران، وستة مليار كفار، يعبدون البقر، والصليب، وُعزيراً، والكواكب، والشياطين، وبعضعهم بدون دينٍ مثل الملحدين وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾، **أي:** أرسل الله في الأمم السابقة منذرين، وهم الأنبياء والرسل، وسماهم مُنذرين؛ لأن الخطاب للكافر، والكفار

(1) تفسير الرازي: (26/ 338).

يُنذرون بالعذاب، والمؤمنون يبشرون بالثواب، وقد جاء في وصف نبينا محمد ﷺ، **قوله:** ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[الإسراء:105]، فهو يُبشر المؤمنين ويُنذر الكافرين.

ثم قال سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾، **انظر؛ بمعنى** تأمل وتفكر، والخطاب يصلح أن يكون لرسول الله ﷺ، ويصلح أن يكون لكل مخاطَب إلى اليوم، والمُنذرون هم الأمم الكافرة الذين كذبوا الرسل، وترك بيان عاقبتهم هنا لأنه قد بينها في آيات أخرى، فقد جرت لهم عواقب وخيمة وأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والعاقبة هي النهاية، **كما قال:** ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[العنكبوت:40].

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾، **إلا؛ هنا بمعنى** لكن، والمعنى: لكن عباد الله المُخلَصين، شأنهم آخر، وجزاؤهم يختلف.

ثم ذكر لنا تفاصيل ما جرى مع بعض الأمم السابقة، فقال: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو أول رُسل الله إلى الأرض بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، على الصحيح، بعشرة قرون، **أي:** ألف سنة، ثم بدأ الانحراف فيهم، فأرسل الله إليهم نوحًا فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى التوحيد فلم يؤمن معه إلا القليل، فدعا ربه عليهم، حين حاولوا أذيته، **كما قال:** ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر:10]، **والنداء** هو الدعاء ولكن بصوت مرتفع مسموع، بخلاف الدعاء فقد يكون سراً أو تدعو جهراً، وقد يكون دعا سراً ثم نادى ربه

بصوتٍ مرتفع بعد أن وصل مع قومه إلى طريق مسدود، فاستجاب الله دعاءه، ومدح نفسه بسرعة الاستجابة له، فلا أحد أسرع إجابة من الله، عند تحقق شروط الدعاء، حيث أنزل الله الأمطار الشديدة، وتفجرت الأرض بالمياه وأغرقت الأرض كلها، فصار الناس في كرب عظيم، فنجى الله نوحاً بالسفينة وأهله المؤمنين ومن آمن به من قومه من محنة الغرق وكرب تلك الواقعة التي هلك فيها قومه الكافرون، وصيّر ذرية نوح هم الباقين في الأرض؛ لأن غيرهم ماتوا بالغرق، ولذلك يطلق على نوح أبو البشر الثاني، لأن أهل الأرض الذين عاشوا بعد الغرق والطوفان من ذريته.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩)﴾، **أي**: وأبقينا له أثراً حسناً في الأمم التي ستأتي بعده، وهو السلام عليه من كل من ذكره من الأمم المتأخرة بعده، ورفعت ﴿سَلَامٌ﴾، على سبيل الحكاية، ولذلك يشرع عند ذكر الأنبياء أن يُقال: عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، **والمقصود بالعالمين هنا** من يأتي بعده، لأن الذين ماتوا قبله ليسوا داخلين في عموم هذا اللفظ.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١)﴾، **أي**: ما حصل له من النجاة والذكر الحسن كان بسبب إحسانه، وعبوديته الشاملة لعبودية القلب واللسان والجوارح، وهو بذلك قد دخل ضمن عبادنا الذين أكثروا من الطاعة والعبادة، وقبلها حققوا الإيمان الكامل، وهذا السبب مُتاح لكل شخص، فمن أراد أن يذكر بخير فيمن بعده ويُنجى من كل كرب؛ فليكن من المحسنين بالتوحيد والعمل الصالح، والإحسان إلى الخلق، والعبودية

المطلقة لله، ولن يحرم من هذه الثمار الطيبة بإذن الله.

ثم ختم الله القصة بقوله: ﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾، **المقصود بالآخرين:** جميع الكفار من سكان الأرض في عهد نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد أغرقهم الله بالطوفان ولم يُبقِ منهم أحداً.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بشاعة وقبح طعام وشراب أهل النار.

2- من فضل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على أنبيائه ورسله استجابة دعائهم.

3- من فضل الله على نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أن جعل له الثناء الحسن فيمن أتى بعده.

4- فضل الإحسان والعبودية الحقة لله تعالى، وثمارها الحسنة على العبد في الدنيا والآخرة.

تفسير المقطع الخامس من سورة الصافات

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ
وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾
فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ
أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ
﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ
يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ
إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ
بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾
وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾، سبق معنا الحديث عن

نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ثم ذكر أن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، من الذين وافقوه على التوحيد والدعوة إليه، **فمعنى التشيع في اللغة:** هو الموافقة في المعتقد والدين والمناصرة والحب، فالأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ جميعاً أصحاب عقيدة واحدة، وإنما حصل اختلاف في بعض الشرائع التفصيلية لهم.

وقوله: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤﴾، أي واذكر يا محمد لقومك قصة إبراهيم حين أقبل على الله بامتثال أمره وتوحيده وطاعته بقلبٍ سليم من الشرك والنفاق والشك وسيّء الأخلاق، فكلما كان القلب سليماً من هذه الأمراض كلما كان أكثر إقبالاً على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالتوحيد والطاعة.

وقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ٨٥ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ٨٦﴾، واذكر حين قال إبراهيم لأبيه آزر وقومه، الذين كانوا يعبدون الأصنام، فسألهم سؤال استنكار لفعلهم القبيح، **والإفك:** هو أعظمُ الكذب، وسمي بذلك؛ لأنه لا يستقر على حال، بل ينقلب ويضطرب، يعني يتقلب، وهو أشد الكذب، والمعنى: كيف تخترعون آلهة مكذوبة وتنسبون إليها الأمر والنهي وتدعونها وتعبدونها من دون الله.

ثم وعظهم بقوله: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾، وهذا السؤال إما أن يكون سؤال تعجبٍ واستنكارٍ، **أي:** كيف تعبدون آلهة غير الله سبحانه وتتركون عبادة رب العالمين سبحانه؟! فهذا دليل على ظنكم السيّء بالله، وأنه لا يستحق العبادة، أو يكون سؤالاً حقيقياً **معناه:** كيف ستقفون بين يدي الله يوم القيامة، وما الجواب الذي ستُجيبونه به حين يسألكم لماذا أشركتم بي غيري؟ وماذا أنا

صانعٌ بكم؟![1] وهو أسلوب تهديد ووعيد لهم.

وقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾، هذه الآية اختُلِف في معناها كثيراً، **فقيل**[2]: إنه رفع رأسه إلى السماء ليتأمل ويتفكر في حيلة يخرج بها من استجابة دعوة قومه الذين دعوه لحضور حفل عيد لأصنامهم، وغالباً أن الذي يُفكر يرفع رأسه إلى السماء حتى يُبعد عن ذهنه تشويش ما حوله، وإنما ذكر اسم النجوم لأنها في السماء، **وقيل**[3]: إنه نظر إلى النجوم في السماء على عادة قومه ليُوهمهم أنه من خلال نظرته في النجوم ظهر له أن لا يحضر معهم، وكانوا يعتقدون التنجيم، **والمقصود من ذلك هو** البحث عن مخرج وحيلة حتى لا يحضر ذلك الحفل وينفرد بالأصنام من أجل أن يهدمها، فلما نظر في النجوم أو في السماء أعطاهم جواباً، **وقال لهم**: لا أستطيع أن أحضر معكم لأني مريض، **وعبّر بـ** ﴿سَقِيمٌ﴾، لأن السقم غالباً قد يكون نفسياً، وهو في الحقيقة لم يكن مريضاً جسدياً، وإنما كان مرضُه هو تألم نفسه من عبادة قومه للأصنام، **أي**: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله عَزَّوَجَلَّ[4]، وهو نوع من المعاريض، وليس من الكذب الحقيقي، **وفي الحديث الآخر**: "إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب"[5]، **أي**: إذا وقعت في ورطة فلا

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 49).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 24).

(3) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 49).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 25).

(5) الأدب المفرد للبخاري: (ص: 297)، برقم: (857)، وهو صحيح موقوف.

تقع في الكذب الصريح حتى لا تأثم، ولا تخبر الصدق الصريح حتى لا تُؤذى، فخذ حيلة بينهما وهي المعاريض، **وفي الصحيح** أن النبي ﷺ قال: "إن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كذب ثلاث كذبات، اثنتان منها في ذات الله"[1]، ومنها هذه، ففهم قومُه أنه مريض لا يقدر على حضور الحفل معهم، فتركوه خلفهم، وذهبوا إلى احتفالاتهم.

وقولــــه: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾، **أي:** فلما وجد الفرصة سانحة ولا يوجد أحد من المشركين يحرس هذه الأصنام، انطلق إليها سريعًا في خفية من قومه، فلما وصل إلى الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها آلهة من دون الله؛ سألهم سؤال تبكيت عن تلك الأطعمة التي يضعها لهم أصحابها لماذا لا تأكلونها؟! ثم سألهم: لماذا لا تنطقون وتتكلمون، وتُجيبون عليّ؟ وهذه كلها أسئلة تحفيزية حتى يثور غضبه عليها ويضربها بقوة، فلما لم يجد منها جوابًا؛ أقبل عليها يضربها بيده اليمين ضربًا شديداً، وتُطلق اليمين على اليد اليمنى، والقوة والحلف[2].

ولا مانع أن يكون المقصود بها هنا كل المعاني الثلاثة، فضربها بيمينه بقوة تبرئة ليمين سابقة، وهي التي في قوله: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾[الأنبياء:57].

وقوله: ﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾، فلما بلغهم ما فعله إبراهيم بالأصنام

(1) صحيح البخاري: (4/ 140)، برقم: (3358).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 545).

رجعوا إليه من الحفل مسرعين، يرفعون أصواتهم بالتهديد والوعيد[1]، فلما جاؤوا إليه؛ قابلهم إبراهيم بثبات ولم يهرب.

فسألوه عن فعله فرد عليه بقوله: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، كيف تعبدون أصناماً أنتم من ينحتها من الحجر أو الشجر؟! ولا تعبدون الله الخالق لكم ولأعمالكم، ويدخل في ذلك صناعة الأصنام، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالق أعمال العباد، بمعنى أنه أوجد القدرة فيهم على الفعل، وإن كان الفعل يُنسب إلى العبد لأنه كسبه، ولو سلب الله القدرة من العبد لما استطاع أن يفعل شيئًا، فقطع حجتهم ولم يستطيعوا الجواب.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾، هكذا عادة أهل الباطل، لا يقبلون الحوار والنقاش للوصول إلى الحق، بل إذا رأى أن حجتك قوية ترك النقاش والحوار، واستخدم التهديد والوعيد؛ لأنه صاحب قوة وبطش، وليس معه حجة ولا برهان، وهذا حال الملأ مع كل الأنبياء، فهنا تركوا الحوار مع إبراهيم، واتخذوا قراراً بالتخلص منه بأسلوب فضيع، وكان بإمكانهم أن يقتلوه مباشرة، فليس معه أحد يدافع عنه، اللهم إلا زوجتُه سارة وابن أخيه لوط، ولكن أرادوا أن يقتلوه بوسيلة عامة يُشارك فيها كل الناس، فلا يُتهم به شخص دون آخر، فقالوا: اجمعوا الحطب وابنوا له بناءً شاهقًا حتى تتركز النار بداخله ولا تنتشر يمينًا وشمالاً فتُحرق غيره، وشارك القوم بجمع الحطب والبناء، وبعد أن بنوا البُنيان وجمعوا

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 461).

الحطب، أشعلوا فيها النار، فلما اشتعلت النار ألقوه فيها، بواسطة المنجنيق حتى سقط في داخل هذه النار، فسقط كيدهم وفشلت خطتهم، حيث أرادوا أن يُحرقوه ويُميتوه بهذه الطريقة البشعة حتى لا يبقى له أثر، فلم ينجح كيدُهم، بل حصلت خسارتهم بنجاة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من النار وعلوّه عليهم بالحجة، وسلّمه الله من كيدهم وشرهم به.

وقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾، وبعد نجاته من النار وعدم إيمان قومه به، استأذن ربه في الهجرة، فأذن له فخرج من العراق إلى الشام بأمر الله مخلصاً لله في هجرته طالباً من الله أن يدله على طريق الحق والصواب، فيشمل الهداية الحسية إلى الطريق الموصل إلى مبتغاه، والهداية المعنوية وهي الوصول إلى دين الحق.

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾، ولما خرج عن قومه استشعر الوحدة، لأن الإنسان لما يكون بين أهله وعشيرته يشعر بالأنس، فطلب أولاداً مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم، فالأولاد إذا لم يكونوا صالحين فهم ضرر ونكبة على والديهم، **كما في قوله:** ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا﴾[الكهف:80]، فأذن الله للخضر أن يقتله حتى يُخلّص أبويه من شره!!

وقوله: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾، فاستجاب الله له ذلك، وبشره بولادة غلام حليم، وهو إسماعيل على الأصح والراجح من قولي العلماء[1]، فإن كُتب التوراة والإنجيل وغيرها مُطبِقة على أنه إسحاق، وهذا من التحريف الذي

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (15/ 101).

طالها، وقد نقله عنهم بعض المفسرين ورجحوه[1]، وهذه البشارة ليس بالضرورة أن تكون في الحال، بل تمت بعد حين من هجرته، وفيها إشارة إلى أنه سيعيش ويكبُر، فإن الطفل لا يُقال له: حليم، إنما يقال حليم للرجل الذي كبُر وعقل، وصار حليماً[2].

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾، فلما كبُر وترعرع وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل، وكان قد رحل به مع أمه إلى مكة وتركهما فيها، ثم جاء زائراً لهما، وقد رأى في المنام رؤيا أن الله أمره بذبح هذا الغلام، والحكمة من ذلك أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد سمّاه الله خليلاً، **والخُلة:** صدق المحبة، **أي:** لا يتخلل قلبه حبٌ لغير الله، فكان حبُه لله عظيماً، فلما جاءه الولد بعد ثمانين سنة من العمر بدأ هذا الولد يُزاحم حب الله في قلب إبراهيم، فأراد الله أن يبتلي إبراهيم هل يُقدّم حب الله أم حب الولد[3]، فأراه في المنام رؤيا أن يذبح ولده امتحاناً له، "ورؤيا الأنبياء وحي"[4]، فحدث بهذه الرؤيا ابنه إسماعيل مستشيراً له، لينظر مدى امتثاله من عدمه، وإلا إبراهيم في الحقيقة قد عزم على تنفيذ الرؤيا وافق الولد أم لم يُوافق، ولكن هناك فرق بين أن يُوافق الولد ويُساعده في تنفيذ الرؤيا، وبين أن يرفض فيحتاج إلى أساليب

(1) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 72).
(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 463).
(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 706).
(4) صحيح البخاري: (1/ 39)، برقم: (138).

معينة لذلك، فكان جواب الولد الطائع لوالديه بالموافقة، وأنه سيكون من الصابرين على ذلك رغم مشقته، والتعليق بمشيئة الله سبحانه تبركًا بها منه.!

وقولــه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، أي: فلما استسلم الابن والأب وامتثلا لأمر الله، وأخذ الأب بتلابيب ابنه ورفعه ثم وضعه على شقه، ولكل إنسان جبينان أيمن وأيسر والجبهة بينهما، فلما فعل ذلك وأضجعه وأخذ السكين ليذبحه سمع صوتًا يُناديه: يا إبراهيم! قد فعلت ما أُمرت به، ونفّذت ما رأيت في المنام بإضجاعك ولدك للذبح، وعلّل ذلك بأنه يصرف عن مَنْ أحسن في طاعته وامتثل أمره المكاره والشدائد، ويجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، وفي الآية دليل على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل؛ لأن الله تعالى شرع لإبراهيم ذبح ولده، ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء، والمقصود من شرعه إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك [1]، ولذلك قال عن هذا الفعل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، أي: إن ما حصل لإبراهيم من أمره بذبح ولده، هو الاختبار الواضح، وتخيلوا حال أب ليس له ولد، وقد كبُر سنه، ثم جاءه الولد بعد طول انتظار له، ثم يُؤمَر أن يذبحه بنفسه، فهذا امتحان عسير لا شك فيه! ولكنه نجح فيه وتجاوزه بفضل الله عليه.

وقوله: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾﴾، وأوحى الله إلى إبراهيم أن يذبح الكبش فداءً عن ذبح ابنه، ووصفه بعظيمٍ؛ تشريفًا وتعظيمًا لشأنه، وكان الذبح في منى

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 30).

عند الجمرات[1]، وهو المنحر الذي جدده النبي ﷺ لشعيرة الذبح في ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصار بعده ذبح الهدايا والأضاحي سنة ماضية إلى اليوم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١١﴾، **أي:** تركنا له ذكراً حسناً في الآخرين من الأمم التي تأتي بعده، ومنه السلام عليه إذا ذكر اسمه، والثناء الجميل عليه، وبمثل ذلك الجزاء العظيم نجزي من انقاد لأمر الله وأحسن في طاعته، إن إبراهيم كان من عبادنا الذين أعطوا العبودية حقها، واستكملوا عُرى الإيمان وأتوا بها على أكمل وجه!.

ثم قال الله: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢﴾، بشّر الله نبيه إبراهيم بولادة غلام جديد هو إسحاق، لأن ذكر اسم إسحاق يدل على أنه غير الغلام الحليم الذي أجريت عليه الضمائر المتقدمة، وهذه من أدلة المفسرين الذين رجحوا أن الذبيح إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد ذكر ابن عاشور عشرة أدلة رجح بها أن إسماعيل هو الذبيح، وليس إسحاق[2]، وبشره بأنه سيكون نبياً من الصالحين، ووصفه هنا بالصلاح مع أن الأنبياء كلهم صالحون، للتنبيه على أهمية صلاح واستقامة الأبناء في نظر آبائهم.

ثم قال: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ۝١١٣﴾، **أي:** ووضعنا البركة وهي كثرة الخير ونماؤه في إبراهيم وفي

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 465).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 157).

إسحاق، ثم بيّن أن وجود الإيمان والبركة في شخص لا يستلزم وجودهما في ذريته جميعـًا، بل قد يوجد منهم من ليس كذلك، فذكر أن الناس من ذرية إبراهيم وإسحاق سيكونون على صنفين: صنف محسن، وهو المؤمن الصادق في الإيمان وتقواه، وصنف ظالم لنفسه بالشرك وعبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العرق والعنصر، فقد يلد البر الفاجر، والفاجر البر، وعلى أن فساد الأعقاب لا يعد غضاضة على الآباء[1].

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الذبيح هو إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

2- بيان فضيلة الصبر وأهميته.

3- بيان فضيلة بر الوالدين وطاعتهما فيما أمر الله به.

4- بيان فضيلة الاستسلام والخضوع لأمر الله وإن كان على خلاف هوى النفس ورغبتها.

---

(1) التحرير والتنوير: (23/ 162).

تفسير المقطع السادس من سورة الصافات

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ
﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ
إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم
مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾، ما زال الحديث متصلاً بذكر ما أنعمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الأنبياء والمرسلين الذين ذكرهم في هذه السورة، ومنهم موسى وهارون، فقد منّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهما بالرسالة

والنبوة، ومنّ عليهما وعلى بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين عند فرعون وقومه بالنجاة مما كانوا فيه من الكرب العظيم، وهو الاستعباد والاستخفاف بحقوقهم، فقد كان فرعون يُقتّل رجالهم ويترك نساءهم حيّة؛ من أجل أن تقوم بالخدمة لقومه والأعمال الخسيسة، فنصر الله بني إسرائيل على فرعون وقومه، فأغرقهم في البحر، وكانت الغلبة لبني إسرائيل أجمعين على عدوهم.

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾، وآتينا موسى وهارون الكتاب، وهو التوراة، والمستبين الواضح البيّن، والسين والتاء للمبالغة، والذي أُوتي الكتاب هو موسى فقط وذكر معه هارون من باب التشريف له، وأشركه في البلاغ مع موسى، **كما في قوله:** ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾[طه:43]، فقد كان معاضداً له في الرسالة والبلاغ فأشركه الله في إيتاء الكتاب.

وقوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ **أي:** دللناهما على الدين الحق، فامتثلا فحصلت لهما هداية التوفيق للعمل به، وهو أصول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق التي اتفقت عليها كل الرسالات، وأقرها القرآن الكريم وهو المنهج الحق الذي لا اعوجاج فيه.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾، سبق تفسير هذه الآيات في قصة نوح وإبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، **والمعنى** وتركنا لهما الذكر الحسن فيمن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة، وهذه مِنة ونعمة على الإنسان الصالح أن يأتي مَن بعده فيذكره بخير، وقد وصف الله من سبق من الأنبياء

بالإحسان؛ والعبودية له؛ وذلك لأنهم بلغوا في الإحسان والعبودية أعلى الدرجات من حيث إخلاص العمل وإتقانه وكمال التذلل والتعبد له، وما نالوه من الجزاء إنما كان بسبب عبوديتهم له وإحسانهم فيها، وهو أمرٌ مُطّرد مع كل من عبد الله وأحسن في عبادته، فإن أردت أن يجزيَك مثلهم فكن مُحسناً في عبوديتك لله وأعمالك كلها.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾، وهو إلياس بن ياسين من نسل هارون بن عمران، وهو من أنبياء بني إسرائيل[1]، وأطلق عليه بعضُهم اسم إيليا[2].

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾، إذ؛ بمعنى حين قال لقومه أثناء إرسال الله له إليهم: لماذا لا تتقون الله، وتُراقبونه وتبتعدون عن ما يُغضبه ويُسخطُه من الشرك والكُفر ونحوه؟!، كيف تدعون صنماً وجعلتموه ربا لكم[3]، وتركتم عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو أحسن الخالقين؟! وتركتم عبادة الله الذي رباكم وربى آباءكم السابقين لكم بنعمه الكثيرة، ولفظة أفعل إذا أُضيفت إلى الذات الإلهية لا تعني التفضيل، وإنما تعني مُطلق الكمال والتمام للخلق؛ لأنه لا خالق غير الله!.

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 37).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 166).

(3) ينظر: التفسير البسيط: (19/ 99).

ثـم قـال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾، فكذبـه قومـه ولـم يؤمنـوا بـه، فتوعدهم الله ببعثهم وإحضارهم بين يديه يوم القيامة ومحاسبتهم على كفرهم وتكذيبهم له.

وقولـه: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾، واسـتثنى مـن العقـاب عبـاد الله المخلصين، وهم الذين اتبعوا إلياس وآمنوا به.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ وقد سبق تفسيرها، **وقُـرِئ:** ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾، بكسر الهمزة وسكون اللام، و﴿آلَ ياسين﴾، بمد الهمزة وفتح الـلام، و﴿الياسين﴾، بإدخـال التعريـف علـى ياسـين، **والمقـصود بهـذه القـراءات كلهـا** ﴿إليـاس﴾، و﴿الياسين﴾، شيءٌ واحد(1).

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو ابنُ أخي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، آمن به وخرج مهاجراً معه من بابـل إلـى الـشام، فأرسـله الله إلـى قريـة سَدُوم، وكانوا قومـًا كافرين قد انتشر فيهم فعل الفاحشة بالرجال، وهو المسمى اليوم بالشذوذ، ونُسبت بعد ذلك إليهم فصار يُقـال لهـا اللُّـواط، وهـو عمـل قـوم لوط، وقد ظُلم اسم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، بسبب فاحشة قومـه، فقلّ أن تجـد شخـصـًا يُسمى باسمه.

وقولـه: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾،

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 470).

فدعا قومه فلم يستجيبوا له، بل حاولوا أذيته، فنجاه الله وأهله من الهلاك إلا زوجته هلكت مع قومها لأنها كانت كافرة مثلهم، والغابر هو الباقي **أي**: كانت من الباقين في العذاب[1]، ثم دمر الله قوم لوط جميعاً بسبب كفرهم، حيث رفع جبريل قراهم بجناحه إلى عنان السماء ثم قلب ظاهرها باطنها، ثم أرسل الله عليهم حجارة من سجيل، فصار مكان قريتهم يُسمى اليوم بالبحر الميت الذي لا يحيى فيه حيوان؛ لأنه موطن عذاب.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، الخطاب لكفار قريش، واللام للتوكيد، وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرون ببلاد فلسطين فيمرون بأرض لوط على شاطئ البحر الميت وكانوا يمرون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل تارة بحسب تقدير السير في أول النهار وآخره[2]، وحثهم على استخدام عقولهم في التفكر فيما حصل لمن كفر قبلهم، فلو تفكروا في مصير السابقين بعقولهم لهداهم تفكيرهم إلى الإيمان وترك التكذيب، وكانت قريش تعرف أن هذه القرية لأصحاب الفاحشة، وجعلها الله آية وعبرة إلى اليوم، فيا ليت أصحاب الشذوذ يعتبرون بما حصل لسلفهم من هلاك!، وقدّم ذكر السير صباحاً؛ لأن المسافر الذي يمشي في الصباح سيكون أكثر اعتباراً بالوقائع والأحداث من الذي يمشي في الليل؛ لأنه سيرى بعينه آثار القوم، وقد كانت بعض القوافل تمشي صباحاً وبعضها تمشي ليلاً بحسب ظروف الرحلة.

---

(1) ينظر: تفسير البغوي: (4/ 46).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 171).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من مقاصد الشرع تحرير العباد من عبودية البشر، إلى عبودية الله وحده.

2- أن الثناء الحسن والذكر الطيب إنما يكون للصالحين من الأنبياء والرسل ومن سار على طريقهم.

3- أن سنن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مُطّردة لا تتغير، ومنها سنة نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

4- أن الهدف من ذكر قصص الأنبياء والرسل في القرآن وتكرارها هو العِظة والعبرة بها.

تفسير المقطع السابع من سورة الصافات

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي
بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ۞ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن
يَقۡطِينٖ ١٤٦ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨
فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢
أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ
مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ
إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠ فَإِنَّكُمۡ وَمَا
تَعۡبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤
وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ
ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا
لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ
١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ

ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾، هذا آخر الرسل الستة الذين ذكر الله قصتهم في هذه السورة واختتمها بقصة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يونس بن متّى، **كما في الحديث:** "لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خير من يونس بن متى"، ونسبه إلى أبيه[1]، وهو من رسل بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إلى نِينَوى في العراق، من بلاد الآشوريين، وكان بها أسرى من بني إسرائيل بأيدي الآشوريين، وكانوا زهاء مائة ألف[2]، فأرسله الله إليهم ليدعوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكنه استعجل في دعوتهم فلم يُؤمنوا به فخرج مُغاضباً لأهلها دون أن يستأذن الله تعالى في الهجرة، ومعلومٌ أن هجرة الأنبياء لا تتم إلا بإذن الله لهم، فإن النبي ﷺ لم يخرج من مكة إلا بعد أن أذن الله له[3]، **كما قال الله:** ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[الأنبياء: 87]، **أي:** ظن أننا لن نعاتبه ولن نُضيق عليه حينما ترك قومه وخرج غضباناً منهم بسبب كفرهم، وأبق **أي:** هرب، ويطلق على العبد الذي يهرب عن سيده، فشبه حال يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين ترك دعوة قومه بحال العبد الهارب عن خدمة سيده، فركب

---

(1) صحيح البخاري: (4/ 153)، برقم: (3395).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 172).

(3) ينظر الحديث في صحيح البخاري: (3/ 69)، برقم: (2138).

سفينة ممتلئة بمن فيها على ساحل بحر الروم والذي يُسمى اليوم بالبحر الأبيض المتوسط[1]، فلما ركب السفينة اضطربت بهم، فطلب أهل السفينة حلاً للمشكلة فتوافقوا على أن يُجروا القرعة بين الركاب الموجودين على هذه السفينة، ومن خرجت عليه القرعة؛ رُمي في البحر، وسنة الاقتراع في أسفار البحر كانت متبعة عند الأقدمين إذا ثقلت السفينة بوفرة الراكبين أو كثرة المتاع[2]، وهو من شرع من قبلنا، وهو منسوخ في شرعنا، فلا يجوز الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر[3]، ولم يُشرع استخدامها في شرعنا إلا في أمور محددة، كالقرعة بين الزوجات إذا خرج في سفر، والقرعة في عتق العبيد، وفي تُقسيم التركة بين الورثة لاختيار الأنصبة المتساوية ونحوها، فتمت القرعة على يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكان رجلاً صالحاً معروفاً، وقيل أنهم كرروا القرعة ثلاث مرات لعلهم أن يجدوا غيره فلم يجدوا، فكان من المغلوبين، **وعُبّر بالإدحاض** وهو الزلل الذي يكون تحت القدم فلا تستقر، فرموه في البحر، فوافق حوتاً عظيماً كان ينتظره قد فتح فمه فما أن رُمي من السفينة حتى وقع في فم ذلك الحوت، ولطف الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به فلم يعضه الحوت ولم يمضغه، بل بلعه إلى معدته، والواو هنا حالية أي حال كونه مُلاماً، **أي**: فعل فعلاً يُلام عليه، وهو ترك دعوة قومه بغير إذن من الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 176).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 173).

(3) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: (4/ 31).

وقولــه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، فلولا أنه كان كثير التسبيح والذكر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أثناء الرخاء واستمر تسبيحُه وهو في بطن الحوت، لما نجاه الله، ولكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة، بحيث يحفظ هذا الحوت أن يتحلل، فيبعث الله الحوت ويبعث يونس من بطنه.

ثــم قــال ســبحانه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾، فأمرنا الحوت فقاءَه وأخرجه من بَطنه، ولا يوجد دليل في تحديد المدة التي بقي فيها يونس في بطن الحوت، ولكنها معجزة له حتى ولو كانت مدة قليلة، **والعراء**: الأرض التي لا شجر فيها، والغالب أن ساحل البحر لا يوجد فيه أشجار، والواو للحال، **أي**: حال كونه مريضاً قد أصابته بعضُ آثار عُصارة المعدة، فأثرت على جلده، وأنبت الله له شجرة من يقطين تظله بأوراقها ويأكل من ثمرتها، واليقطين، وهو ما لا ساق له من شجر كشجر القرع[1] والدُباء والخيار، ونحوها، وفي هذا النوع من ثمرة هذا الشجر فائدة طبية وتُستخدم اليوم في علاج حروق الجلد والتجميل، كما أن روائح أوراق اليقطين تُذهِب بالذباب والحشرات فلا تقترب منها[2]، وهذا من لطف الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بهذا النبي الكريم حيث منّ عليه بهذه الشجرة، يستظل بها وتُبعد عنه الهوام والذباب؛ حتى لا تؤذي جلده المريض، ويأكل منها فتعود له صحته ونضارته!.

ثم قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 472).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 137).

حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾، أي: وبعد أن شفاه الله، أمره أن يعود إلى قومه، يدعوهم إلى الله، وكان عددُهم لا ينقص عن مائة ألف بل يزيدون عنها(1)، فجاءهم وأنذرهم، فامتنعوا في أول الأمر، فأخبرهم بوعيد هلاكهم بعد أربعين يومًا، فخافوا فآمنوا به(2)، كما قال: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾[يونس:98]، فرفع الله عنهم العذاب وأخّر حياتهم إلى حين نهاية أجلهم المكتوب لهم.

تنبيه: لم يختم الله قصة لوط وقصة يونس، عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، بما ختم الله به قصص الأنبياء قبلهم، للتفرقة بين شأن لوط ويونس عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وشأن أصحاب الشرائع الكبرى وأولي العزم من المرسلين، مع الاكتفاء فيهما بالتسليم الشامل لكل الرسل المذكورين في آخر السورة، والله تعالى أعلم(3).

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، والضمير لكفار قريش؛ والاستفتاء طلب الجواب على السؤال، وسببه أنهم نسبوا البنات إلى الله، بقولهم: الملائكة بناتُ الله، وهم لا يرضون ذلك لأنفسهم، كما قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[النحل:58]، والسؤال استنكاري!!، فالله أنكر عليهم هذا القول لبطلانه من حيث الأصل، فالله لم يلد

(1) ينظر: معاني القرآن للفراء: (2/ 393).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 180).

(3) ينظر: تفسير الألوسي: (12/ 142).

ولم يولد، **كما قال:** ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾[الإخلاص:3]، وبطلانه بناءً على مذهبهم، فإنهم يفضلون الذكور على الإناث فكيف يعطون لله ما يكرهونه لأنفسهم؟! ثم أنكر عليهم دعواهم بأن الملائكة بنات الله، فهل كانوا حاضرين حين خلق الله الملائكة وشهدوا خلقهم وظهر لهم أنهم إناث وليسوا ذكوراً؟! فمن أين عرفوا ذلك والملائكة خُلقت قبل أبيهم آدم؟!، فبين سبحانه أن مثل ذلك لا يعلم إلا بالمشاهدة وهم لم يشهدوا ذلك، ولا يوجد دليل على قولهم هذا من الشرع، ولا يدرك بالعقل حتى ينسبوا إدراكه إلى عقولهم(1)، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله.

ثم أكد على ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾، **(ألا)** حرف تنبيه للاهتمام بالخبر، **والإفك:** أسوأ الكذب، ومن أسوأ كذب هؤلاء المشركين القول بنسبة الولد إلى الله، وهم كاذبون في هذه الدعوى الباطلة.

ثم قال منكراً عليهم: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾، وهذا الافتراض المستحيل، فلو أراد الله أن يختار ويُقرّب إليه من مخلوقاته لقرَّب ذكوراً ولم يُقرِّب إناثًا؛ لأن الذكر أكمل من الأنثى، ثم وبخهم على حكمهم هذا الباطل البعيد عن الصواب، فما حكموا به منكرٌ يحق العجب منه، ثم وعظهم بإعمال عقولهم فيما يقولون لعلهم ينتهون عن كذبهم وغيِّهم.

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 474).

ثم قال: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾، السلطان هو العلم والحجة الواضحة التي تثبت صدق قولهم بأن الملائكة بنات الله، وهذا العلم لا يثبت إلا بالكتاب المنزل على الرسول، فأتوا بهذا الكتاب إن كنتم صادقين في دعواكم، وأنى لهم ذلك؟!.

ثم قال: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨﴾، للمفسرين في معنى الجِنة، قولان[1]، الأول: أنهم الملائكة، وأُطلق عليهم جِنة لأنهم مختفون عن العين، والثاني: أن المقصود الجِن أنفسهم، وذلك أن المشركين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله وُلدوا من سروات الجن من النساء، أي: أشرافهن، والسياق يدل على أن المقصود بالجن هنا الملائكة، ولقد علمت الملائكة أن المشركين محضرون بين يدي الله للحساب يوم القيامة، ولا يمتنع منهم أحد عن ذلك.

ثم نزّه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نفسه عن هذا القول الباطل، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾، تنزه وتقدس عن ما يصفه به المشركون من الأقوال الباطلة، والاستثناء منقطع، ومعناه: لكن عباد الله المخلَصين ليسوا كذلك بل يُنزهون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ولا يصفونه بما لا يليق به.

ثم قال للمشركين: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾، فأنتم أيها المشركون وما تعبدونه من الأصنام والآلهة لستم قادرين على فتنة أحد وإدخاله في ضلالكم، إلا من حق عليه الضلال واتبعكم

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 555).

ممن سبق له في علم الله أنه من أهل النار، فسيكون مصيرُه أن يدخله معكم ويكون من أهلها.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾، والضمير يعود إلى الملائكة، فهم يتحدثون عن أنفسهم بأنهم من ضمن مخلوقات الله، الخاضعين له بالعبودية، وقد جعل الله لكل واحد منهم حداً لا يستطيع أن يتجاوز، فكلهم في مقام العبودية، وليس بينه وبين الله صلة ولا نسب، وأنهم يصفون بين يدي الله للصلاة أو للتسبيح أو لغيرها من الأعمال الصالحة فيُسبحون الله ويُنزهونه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عما لا يليق به.

ثم قال عن المشركين: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾، كان كفار قريش قبل أن يُبعث فيهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتمنون أن يُبعث فيهم رسول، ويُنزل فيهم كتاب كما كان في اليهود في النصارى، لأن العرب لا كتاب لهم ولا رسول، فلو جاءنا كتاب كما جاء الأولين لأخلصنا العبادة لله، فلما جاءهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بما تمنوا؛ كفروا بما تمنوا وطلبوا، فدل ذلك على أنهم ليسوا صادقين في تمنيهم، فسوف يعلمون جزاء كفرهم بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتكذيبهم لرسوله.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾، سبقت كلمة الله وكتبت في اللوح المحفوظ، أن الله سينصر عباده المرسلين ومن آمن بهم، وأن جُند الله هم الغالبون، وأن العاقبة للمتقين، وإن حصل للمرسلين شيء من التكذيب أو

الأذية وحصل للمؤمنين شيءٌ من التعذيب والهزيمة إلا أن النتيجة والعاقبة للمتقين من عباد الله المؤمنين، والغلَبة والنصر قد يكون بالحجة والبيان، وقد يكون بالسيف والسَّنان، وقد يكون بهما معًا، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، وكانت أحواله مستقيمة على طاعة الله، وقاتل من أمر بقتالهم، بأنه غالب منصور[1]، بإذن الله.

ثم قال الله لرسوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾، ذكر هنا التولي مرتين، قيل أن هذه الآية قبل بدر، **أي:** أعرض عنهم وانتظر حتى يُهلكهم الله ببدر[2]، وتأمل في حالهم وهم يتأملون في أحوالهم، فسيعلمون من يحل به النكال والعذاب قريبًا.

ثم قال تهديداً لهم: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾، وهو سؤال استنكار وتعجب من حال المشركين الذين كانوا يستعجلون عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل حينه على سبيل الاستهزاء، والله تعالى قد جعل لعذابهم موعداً محدداً، لا يتقدم ولا يتأخر، فكان طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلاً، فإذا جاء موعده ونزل بهم فسيهلكهم ويكون ساء صباحهم لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال لهم.

وقوله: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾، والتكرار للتولي يفيد التهديد بتعدد ما يجري لهم من عقوبات، فالأول كان بغزوة بدر،

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 709).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (15/ 139).

والثاني ما يجري لهم بعد بدر، كفتح مكة ونحوها من الغزوات.

ثم ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه السورة بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾، وذلك لكثرة ما ذُكر في هذه السورة من أقوالٍ باطلة في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من قبل الكفار، فنزّه الله نفسه عن ذلك كله، وسلّم على المرسلين لسلامة أقوالهم ومُعتقداتهم ودعوتهم، ثم حمد نفسه، والألف واللام في الحمد لاستغراق الحمد المطلق لله جلّ وعلا، فهو رب العوالم كلها ومربيها، سبحانه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- جواز القرعة شرعًا فيما لم يأتِ فيه دليل.

2- أن سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي نصر المؤمنين بالحجة والغَلَبة.

3- أن من أراد أن ينصره الله فليكن من جند الله وعباده الصالحين.

4- عجْز المشركين وآلهتهم عن إضلال البشر.

5- سلّم الله على المرسلين لسلامة أقوالهم ومُعتقداتهم ودعوتهم.

تفسير سورة ص

تفسير المقطع الأول من سورة ص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ (٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن
قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣) وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ
(٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ
ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ (٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧)
أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ
رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩) أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ
(١٠) جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو
ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ (١٣) إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ (١٥) وَقَالُواْ رَبَّنَا
عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (١٦)﴾.

شخصية السورة:

سورة ص؛ سورة مكية[1]، **والمقصد العام لها** هو الدفاع عن القرآن

(1) تفسير ابن كثير: (7/ 51).

ومجادلة المشركين في شبهاتهم حول **ثلاث قضايا، وهي: قضية** القرآن والرسول، **وقضية** البعث والنشور، **وقضية** تعدد الآلهة.

وقد جاء في سبب نزولها: حديث ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مرض أبو طالب، فأتته قريش، وأتاه رسول الله ﷺ يعوده، وعند رأسه مقعد رجل، فقام أبو جهل، فقعد فيه، فقالوا: إن ابن أخيك يقع في آلهتنا. وقال: ما شأنُ قومك يشكونك؟ قال: "يا عم، أُريدهم على كلمة واحدة تدينُ لهم بها العرب، وتؤدي العجم إليهم الجزية"، قال: ما هي؟، قال: "لا إله إلا الله"، فقاموا فقالوا: أَجعل الآلهة إلهـًا واحداً؟ قال: ونزل: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾[1].

قال الله تعالى: ﴿صٓ﴾، والراجح أنه حرف من حروف الهجاء؛ ليُدلل على أن القرآن معجزة لم تستطع قريش والعرب أن يأتوا بمثله.

وقوله: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾، **الواو** حرف قسم، **والقرآن** مُقسَمٌ به، **وذي:** بمعنى صاحب، **والذكر في معناه قولان**[2]، **الأول:** الشأن والمكانة، **كما في قوله:** ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾[الزخرف:44]، **والثاني:** التذكرة والموعظة، فالقرآن أُنزل لتذكير الناس بالله ودعوتهم إلى توحيده والإيمان به، ولا تعارض بينهما،

---

(1) مسند أحمد: (1/ 227)، برقم: (2008)، وسنن الترمذي: (5/ 365)، برقم: (3232)، **وقال:** هذا حديث حسن، والمستدرك على الصحيحين للحاكم: (2/ 469)، برقم: (3617)، **وقال:** صحيح الإسناد.

(2) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 140).

فهو صاحب شأن ومكانة، ومذكّر للناس، وجوابُ القسم لم يُذكر، ولكنه يُفهم من السياق، **وتقديره:** إن الكفار لفي ضلال.

وقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾، بل، للإضراب، وتأتي بمعنى لكن، **والمعنى:** فالقرآن جاء بلغتكم وهو شرفٌ لكم وفيه تذكير ووعظ لكم، فالواجب عليكم أن تؤمنوا به، ولكنكم كفرتم به، ثم بيّن أن سبب كفرهم ليس لأن محمداً ﷺ كذاب ولا أن القرآن ليس بمُعجِز، بل سبب كفرهم هو التكبر عن الحق، والاختلاف على محمد ﷺ بسبب التحاسد والتباغض بين القبائل، كما قال أبو جهل: تنافسنا مع بني هاشم حتى إذا كنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[1]، ونكّر عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما بينهم[2].

وقوله: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾،كم للاستفهام التعجبي من كثرة الأمم التي أهلكها الله قبل قريش بسبب كفرهم، والقرن معناه هنا الأمة، ويأتي القرن بمعنى الطبقة، **وبمعنى** مائة سنة في حساب العادّين، **والمناص:** المنجا والفوت، **يقال:** ناصه ينوصه إذا فاته[3]، فصاحوا بأعلى أصواتهم واستغاثوا بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عند نزول العذاب بهم، ولكن لا فائدة من ندائهم واستغاثتهم في زمن لا تُقبل فيه الاستغاثة، ولا تحصل فيه النجاة، فقد

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن كثير: (1/ 506).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 71).

(3) المصدر السابق: (4/ 72).

فات وقتها، فلا مهرب ولا منجى من الهلاك، فليحذر كفار قريش من هذه النهاية!.

وقولــــــه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾، الخطاب لكفار قريش، الذين بُعث فيهم رسول الله محمد ﷺ، وكان سبب تعجبهم كونه من البشر، وقد كانت هذه حجة الأمم السابقة، فإنهم استغربوا بعثة رسولٍ من البشر، **كما قال عنهم**: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[التغابن:6]، إضافة إلى تعجب قريش من كون الرسول هو محمداً ﷺ، وقد كانوا يظنون أن الرسالة لا تصلح له، **كما قال الله عنهم**: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾، [الزخرف:31]؛ لأن المؤهلات المعتبرة عندهم لذلك هي المال والجاه والسلطان، وهذه ليست مع محمد ﷺ، ووصفوه بأنه ساحر وكذاب، وهم يعرفون بطلان قولهم هذا، وأن محمداً ﷺ ليس بساحر ولا كذاب، فقد كان مشهوراً عندهم بالصادق الأمين، فلم يكذب على البشر، فكيف سيكذب على الله؟!

وقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾، وتعجبوا أيضًا من ترك الشرك بالله، وأن المعبود واحد لا شريك له!! وأن محمداً ﷺ جاء ليدعوا الناس إلى كلمة واحدة وهي لا إله إلا الله، وقد كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنمًا، تعبدها قبائل العرب من دون الله!، وإنما كان تعجبُهم لأنهم اعتادوا على كثرة الآلهة وتعددها، فكل قبيلة معها إله، فكيف نترك آلهتنا ونعبد إلهًا واحداً.

وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾،

أي: خرج كُبراء قريش الذين جاؤوا يُناقشون أبا طالبٍ في محمد ﷺ، وانطلقوا مصممين على الكفر والتكذيب بما جاء به محمد ﷺ، يوصي بعضُهم بعضًا بالصبر على الاستمرار في عبادة الأصنام، وعلّلوا ذلك بأن الأمر فيه مؤامرة وخطة محبوكة من محمد ﷺ، يريد من وراء هذه الدعوة الشرف عليكم والاستعلاء بها دونكم، وتكونون أنتم تبعًا له، فيتحكم بكم بما يريد، وقصدهم بهذا الكلام التحذير منه والتنفير عنه[1]، وهي تهمة ملفقة وجاهزة تقال حتى اليوم لكل من قام بالدعوة إلى الله وإرشاد الخلق إلى دينه، فإذا أرادوا أن يُورّطوا شخصًا من الدعاة اتهموه بأن من وراءه مؤامرة لقلب نظام الحكم، فقريش خوّفت الناس من اتباع محمد ﷺ تحت هذا المبرر، ثم كرروا حججهم الواهية لإبطال دعوة النبي ﷺ، وإبعاد الناس عن الإيمان بها، **فقالوا**: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾، ما سمعنا أن الآلهة تتحوّل إلى إلهٍ واحدٍ عند آبائنا وأجدادنا، فقد كان لهم آلهة متعددة، وكذلك في الملة الآخرة وهي النصرانية المحرفة، فقد كانت منتشرة في أطراف جزيرة العرب، وفيها آلهة متعددة، **ففرقة تقول**: إن الله هو المسيح، **وفرقة تقول**: إن المسيح ابن الله، **وفرقة تقول**: إن الله ثالث ثلاثة، فكان انحراف النصرانية عند التوحيد حجة للمشركين على بطلان التوحيد، ووصفوا ما جاء به محمد ﷺ من الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالألوهية بأنه أمر مختلق، وهو الكذب المخترع الذي لا شبهة لقائله[2].

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 483).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 213).

وقولـه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾، ثـم تساءلوا فيما بينهم سؤال استنكار وتعجب: كيف يُنزل عليه القرآن من بيننا؟!، فأنكروا أن يُخص محمدٌ ﷺ بالإرسال وإنزال القرآن دون غيره منهم، وفيها بيان لتكبرهم وغطرستهم، وأنهم كانوا أحق بها منه، فهم من الأثرياء الأغنياء الوجهاء، ومحمدٌ يتيم فقير مسكين، فكانت نظرتهم متعلقة بالجانب المادي، ولم ينظروا إلى الجانب القيمي الأخلاقي، وهذا يدل على جهلهم وقلة عقولهم، وما زالت هذه النظرة موجودة عند كثير من الناس إلى اليوم عند تقييمهم للأشخاص، فرد الله على تصورهم الباطل، بأن الذي منعهم من الإيمان بالحق هو شكُّهم في نزول القرآن على بشر مثلهم، لإعراضهم عن النظر الموجب لتصديقه، وإهمالهم للأدلة الدالة على أنه حق منزل من عند الله، بل اغتروا بإمهال الله لهم، وعدم نزول العذاب بهم رغم كفرهم وتكذيبهم، ولو ذاقوا العذاب على ذلك لعلموا وأيقنوا حقيقة ما هم به مكذِّبون، وهو نازل به قريباً لا محالة، وهذا ما يدل عليه التعبير بـ﴿لَّمَّا﴾، وهي من أدوات النفي المؤقت القريب، وفيه دلالة على أنَّ ذوقَهم على شرف الوقوع[1]، وقد نزل بهم بعد ذلك بأربع سنين فقط في غزوة بدر[2]، فقُتل منهم سبعون وأُسر منهم سبعون.!

وقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾﴾، هذا رد على استبعادهم

(1) ينظر: تفسير أبي السعود: (7/ 216).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 215).

نـزول الـوحي والرسـالة علـى محمـد ﷺ، وهـو سـؤال اسـتنكاري تعجبـي، والمعنـى: هـل أنـتم تملكـون خـزائن رحمـة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيمـة، حتـى تقررون من يعطى النبوة ومن لا يستحقها؟!.

(والعزيز) اسمٌ من أسماء الله التي تدل على القوة والاستغناء عن الخلق.

(والوهاب) اسمٌ يفيد المنح والعطاء، فـالنبوة عطـاء ومنحـة مـن قـوي عزيـز سبحانه يمنحها من يشاء.!

وقولـــــه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾﴾، وهذا سؤال استنكاري آخر، إن كانوا يملكون السموات والأرض ومـا فيهـا مـن مخلوقات وأجرام، وهي أحد أنواع خزائن الله العظيمة؟! والسبب كـل شيء يتوصل به إلى المطلوب من حبل أو غيره[1]، فإن كـان لهـم ذلـك فليصعدوا في المعارج والطرق التي يتوصل بها إلى السماء حتى يدبروا أمـر العـالم وملكـوت الله، وينزلـوا الـوحي إلـى مـن يختـارون ويمنعـوه عـن مـن يريـدون[2]؟!، ولـن يستطيعوا ذلك، وهو أسلوب من أساليب التـوبيخ لهـم بسبب اعتراضـهم على نبوة محمد ﷺ.!

ثم قال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾، هذا بشارة لمحمـد ﷺ ولأصحابه الذين كانوا مستضعفين معه في مكة، وقد بُشر بهـا النبي ﷺ، وعلـم موعدها ولم يَعْلم بها أحد غيره، كما كانـت بـشارة رؤيـا يوسف ليعقـوب حيث

(1) ينظر: تفسير القرطبي: (15/ 153).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 146).

علم بتأويلها قبل أن يعلمها يوسف، وقد نزلت على محمد ﷺ هذه الآيات في مكة قبل أن يُهاجر، فارتاحت نفسه واطمأنت، وكان هذا بمثابة وعد من الله لرسوله ﷺ بالنصر، حيث دعا بتحقيقه له يوم بدر، فقال: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني حتى سقط رداءه عن منكبيه!"[1].

والجند: مجموعة أشخاص يتجندون لحماية الحق أو لحماية الباطل، **والمقصود بهم** هنا جنود الباطل، ونكّرهم تحقيراً لهم، **وهنالك**: اسم إشارة للمكان الذي سيهزمون فيه، وقد تتعدد الهزيمة لهم في عدة غزوات، أولها يوم بدر، ثم ما بعدها من الغزوات.

والأحزاب: هم القوم الذين تجمّعوا على هدف، **والمقصود بهم هنا** الكفار المتحزبون على الشرك والباطل الذي يُقاتلون أهل الحق من قريش وغيرهم.

ثم قال الله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾، كذبت قبل قريش أقوام كثيرة، فذكر منها قوم نوح، وقوم عاد، ثم ذكر فرعون، وفصل بين ثمود وعاد مع أنهم كانوا متجاورين في الزمان والمكان، وذكر فرعون وهو متأخر عنهم وفي غير الجزيرة؛ لمشابهة عناده بعناد قريش وليُشعِرهم أن ما يفعلونه الآن مع محمد ﷺ قد فعله فرعون مع موسى ثم كانت النتيجة أن هلك فرعون مع قوته وجبروته!، **والأوتاد**: جمعُ وتدٍ، وهي التي تُمسك الخيمة من الاضطراب، والمقصود بها هنا أركان حكمه[2] من العساكر والقوة والعتاد

(1) صحيح مسلم: (3/ 1383)، برقم: (1763).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 76).

ونحو ذلك.

ثم قال: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾، ثمود هم قوم صالح، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب، والأيكة هي الشجرة الكبيرة، وأطلق عليهم لفظ الأحزاب؛ لاجتماعهم وتحزبهم على فكرة الكفر وتكذيب الرسل، فالتحزب هو التجمع على فكرة معينة، فإن اجتمعوا على حق فهي حزبية ممدوحة، وإن اجتمعوا على الكفر والضلال فهي حزبية مذمومة.

وقوله: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾، فجميع هؤلاء الأقوام كذبوا الرسل، **أي**: كل أمة منهم كذبت رسولها، ومن كذّب رسولاً واحداً فكأنما كذّب الرسل جميعاً، فثبت في حق كل أمة منهم العقاب الذي يستحقونه، فعاقب قوم نوح بالطوفان، وعاقب عاد بالريح، وعاقب فرعون بالغرق، وعاقب ثمود بالصيحة، وعاقب قوم لوط بحجارة من سجيل، وعاقب قوم شعيب بالظُّلّة.

وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾، وما ينتظر هؤلاء الكفار من أهل مكة إلا صيحة إسرافيل بهم فلا يفيقون بعدها ولا يرجعون إلى الدنيا، حتى يبعثهم الله بالصيحة الثانية يوم القيامة[1]، وفي هذا زجر لهم عظيم، وتهديد وخيم، وحذرهم عاقبة أمرهم إذا استمروا على كفرهم.

وقوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾، **القط**: هو القسط من

---

(1) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 203).

الشيء، لأنه قطعة منه[1]، **وقيل:** هو الحظ والنصيب[2]، **أي:** عجل لنا قسطنا وما قسم لنا من العذاب في الدنيا، استهزاء بمحمد ﷺ، الذي أنذرهم نزول العذاب بهم إن لم يؤمنوا به، وهذا دليل على قلة عقولهم، **كما قال عنهم:** ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[الأنفال:32]، ولو كانوا يعقلون لقالوا: فاهدنا إليه ووفقنا لقبوله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان عظمة القرآن لقسم الله به.

2- بيان أن المقاييس المادية هي التي غلبت على أمم الكفر فأضلتهم عن الحق.

3- أن من أسباب الكفر الاستكبار عن قبول الحق وعدم الخضوع له، والخلافات الشخصية والتنافس الأسري بين الناس.

4- بشارة الله لمحمد ﷺ ولأصحابه المستضعفين معه في مكة بالنصر القريب.

---

(1) تفسير الزمخشري: (4/ 77).

(2) تفسير ابن كثير: (7/ 56).

تفسير المقطع الثاني من سورة ص

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ
يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ
ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟
عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا
تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ
أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ
لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ
فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ
﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾
كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾، أمر

الله نبيه محمداً ﷺ أن يصبر على ما يقوله المشركون فيه من التهم الباطلة، كقولهم: ساحر، وكذاب، وكاهن، ونحوها، وأمره أن يتذكر سيرة وحال نبي الله داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ التي قصّها الله عليه، وهذا التذكر فائدتُه التسلية للنبي ﷺ، والبشارة له بأن حاله سيؤول إلى ما صار إليه حال داوود من النصر والتمكين والملك بعد كل الإيذاء والضعف الذي كان يلاقيه في مكة، وداوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وقد ذكره هنا بوصف العبودية تشريفًا لمكانتها عند الله، فإن العبد كلما ازداد عبوديةً لله كلما أحبه الله وقرّبه منه سبحانه، ووصفه بأنه صاحب قوة، وهي قوة الإيمان والعبادة والحجة لمقارعة الباطل(1)، وكان كثير الرجوع إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالتوبة والإنابة والعمل الصالح، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه(2).

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾، ثم ذكر ما أعطاه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لداوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الملك حيث سخر له الجبال الصماء فتُسبح بتسبيحه في آخر النهار وعند شروق الشمس، وكان هذا وقت صلاة داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد كان يُصلي في الصباح وفي المساء.

وقوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾، ومما سخره لداوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ جمع الطير وحبسها له في الهواء فلا تطير إذا سمعت التسبيح بل تجتمع وتُحشر في مكان واحد مع داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكل مِن داود والجبال والطير رجاّعٌ إلى طاعة

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 147).

(2) صحيح البخاري: (4/ 161)، برقم: (3420).

الله وأمره، **وقيل:** وكلٌ من الجبال والطير يُسبح بتسبيح داوود، ويردد وراءه التسبيح، والأول أرجح(1).

وقوله: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾، وقوّينا ملكه بما وهبناه من أنواع القوة وما منحناه له من أنواع الهيبة، وثبتناه بالنصر في المواطن على أعدائه وإلقاء الرعب منه في قلوبهم، وأعطيناه النبوة، ومطلق العلم والمعرفة، ومنحناه القدرة على الفصل في القضاء بين الخلق بالعدل وحسن المنطق.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾، بعد أن ذكر الله لنبيه ﷺ حال داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والثناء عليه بهذه الأوصاف العظيمة، سأله عن قصةٍ حصلت لداوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهي خبر المتخاصمين الذين دخلوا على داوود المحراب، وهو مكان عبادته، حيث بعث الله إليه ملكين في صورة بشر فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس، فتسورا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بين يديه جالسان، ففزع منهم لأنهم دخلوا عليه المحراب في غير يوم القضاء، ولأنهم نزلوا عليه من فوق وفي يوم الاحتجاب والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه(2)، فظن أنهما يريدان به شراً، فأصابه الفزع منهما، فلما رأوا عليه الفزع،

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 488).

(2) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 149).

قالوا له: لا تخف، فما جئنا لنؤذيك وإنما أتينا لنستفتيك، فنحن شخصان اختلفا واختصما في شيء، فبغى أحدنا على الآخر وظلمه، وقد جئنا إليك وارتضيناك حكماً بيننا، فاحكم بيننا بالحق الذي أراك الله ولا تتجاوزه إلى غيره، ولا تجامل أحداً على الآخر.

والشطط: هو مجاوزة الحد وتخطي الحق، وأرشدنا إلى الطريق الصواب في هذه المسألة واحملنا عليه[1].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾، ثم بدأ أحد الخصمين بذكر نوع الخصومة، ويظهر أن الأخوة هنا أخوة النسب[2]، فوجود مشكلات بين القرابة أشد تأثيراً على تمزق العلاقات من وجودها بين الأباعد، **والنعجة**: هي الأنثى من الضأن، إنّ أخي هذا عنده تسع وتسعون نعجة وعندي نعجة واحدة فطلب مني أن أُعطيه نعجتي، ليضمها إلى نعاجه، وغلبني وقهرني بطلبه هذا، وألح عليّ به حتى نفذت أمره، فما تقول في هذا؟!.

وقوله: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾، فلما سمع داوود من المدعي ورأى المُدَّعى عليه ساكتاً ولم ينفِ أو سأله فأقر، ولم يُذكر إقراره في النص القرآني، حكم داود بظلم

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 489).

(2) التحرير والتنوير: (23/ 235).

المدعى عليه، لعدم حاجته إلى تلك النعجة وأنه يكفيه ما عنده من النعاج الكثير! وعلّل ذلك الحكم بأن كثيراً من الشركاء الذين يختلط مالهم، يحصل في الغالب من بعضهم الظلم لغيره، ولا يراعي حقه، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم يتحرون العدل ولا يظلمون الشركاء ولا غيرهم، وهم قلة في مقابل الكثرة الظالمة لغيرها، وأيقين داود أن الله ابتلاه واختبره بسؤال هذين الملكين له، وقد وردت عدة روايات إسرائيلية باطلة في هذا الموضوع، فيها قدح بعصمة داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ[1]، وأصح ما يمكن الاعتماد عليه في ذلك أن القصة فيها تعريض لما حصل من دواد مع أحد جنوده، فقد كان من عادة الناس في عهد داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن يتنازل بعضُهم لبعض عن زوجاتهم إذا رغب فيها، وكان داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لديه عدة زوجات، ورأى زوجة أحد جنوده فأعجبته، فقال له: تنازل لي عنها، فتنازل له عنها، فتزوجها، وكان هذا من عادات وتقاليد القوم وليس فيه حيلة ولا خديعة، بل إن هذه العادة ضلت سارية في العرب إلى وقت الهجرة النبوية[2]، **فقد ثبت** أن سعد بن الربيع قال لعبد الرحمن بن عوف: لي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك[3]، ثم بعد ذلك أُلغيت في الإسلام، وما فعله داوود هو خلاف الأولى في حقه، وكان ينبغي له أن يتنزه عنه لعلوّ مرتبته ومتانة دينه، فإنه قد يعاتب الفضلاء على ما لا يعاتب عليه غيرهم[4]، لذلك سارع داود

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 566)، والدر المنثور في التفسير بالمأثور: (7/ 156).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 237).

(3) صحيح البخاري: (5/ 31)، برقم: (3781).

(4) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 206).

إلى التوبة والاستغفار لربه مما بدر منه وسجد تقرباً إلى الله وتاب إليه.

وقوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾، فقبل الله توبته واستجاب لدعائه واستغفاره فغفر له ما بدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، وبيّن أن لداوود منزلة عند الله عالية عظيمة، فهو من المقربين عند الله المرضي عنهم، ومصيره في الآخرة إلى الجنة، فنعم المرجع والمآب، وأكد الخبر بـ (إن)؛ لإزالة توهم أن يكون الله قد غضب عليه.

ثم قال سبحانه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾، **أي:** صيّرناك خليفة في الأرض، والخليفة هو الذي يخلُف غيره، فقد كان قبله ملوك وأنبياء فذهبوا وحلّ محلهم وخلفهم في الحكم في الأرض التي كان يعيش عليها، وأمره أن يقضي بين الناس بالعدل الذي هو حكم الله بين عباده ويبتعد عن ما تهواه النفس وما تشتهيه مما يخالف الحق، فإن اتباع الهوى سبب من أسباب الضلال عن طريق الحق، ثم بيّن له أن مصير الذين يُخالفون أمر الله ويحكمون بأهوائهم ويتركون الحق البيّن الواضح دون اجتهاد، لهم في الآخرة عذاب شديد وهو عذاب النار، بسبب تركهم العمل الصالح والحكم بالحق في الدنيا، ونسيانهم الوقوف بين يدي الله يوم القيامة للحساب فلم يستعدوا له.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾، ينفي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه خلق السماء والأرض عبثاً،

وإنما خلقهما لحكمة وغاية، وهي إقامة الحق، وللاعتبار بهما والاستدلال على خالقهما سبحانه، وأن القول أنهما خُلقتا عبثًا أو بدون غاية، هو قول صادر عن الذين كفروا بسبب ظنهم السيء بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب يؤدي إلى أن خلقهما عبث وباطل، فالجزاء هو الذي سبقت إليه الحكمة في خلق العالم، فمن جحده فقد جحد الحكمة من أصلها[1]، لذلك هددهم وتوعدهم على ذلك بالهلاك في النار إذا ماتوا على ذلك.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، الاستفهام إنكاري، **والمعنى**: لو أن الله خلق السموات والأرض عبثًا لتساوى المجرم مع المسلم، والمفسد مع المصلح، وهذا باطل عقلاً وشرعًا، فلن يجعل الله جزاء الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله ﷺ وعملوا الأعمال الصالحة كجزاء المفسدين في الأرض بالكفر والمعاصي، وإنما سيُجازيهم الله بما يستحقون، ولن يجعل الله جزاء الذين اتقوا عذابه وامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه مثل جزاء الفجار الذين كفروا به وخالفوا أمره؛ لأن التسوية بين الفريقين ظلم وعبث، والله تنزّه عن الظلم والعبث في خلقه وشرعه، بل يُجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فتظهر حكمة الله في هذا الجزاء الأخروي العادل بين الخلق.

وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾،

---

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 90).

هذا القرآن كتاب أنزله الله بواسطة جبريل الأمين إلى محمد ﷺ، وهو كثير الخير والبركة، وإثبات البركة للأشياء توقيفية، **فلا يوصف شيء بأنه مُبارك** إذا لم يرد دليل من القرآن أو السنة الصحيحة عليه، إلا إن قصدت بذلك الدعاء فلا بأس، **كقولك**: عُرسك مبارك، جمعة مباركة، ونحوها، **ومعناه**: أسأل الله أن يبارك عرسك، وأن يجعل جمعتك مباركة، ومن بركة القرآن أن الله يهدي به الخلق إلى الحق والصواب، وفيه الشفاء من الأسقام الحسية والمعنوية، ثم بيّن الحكمة من نزوله وهو التفكر والتأمل في معاني الآيات وألفاظها وأحكامها وما فيها من دروس وعبر، فيحصل لهم التذكر والموعظة بما فيه من الوعد والوعيد، وخص التذكر بأولي الألباب، وهم أصحاب العقول والقلوب السليمة التي تنتفع بالقرآن الكريم، فمن أراد أن ينتفع بالقرآن فليُطهر قلبه ويُزكِّ نفسه ويتدبر الآيات القرآنية وسيجد الفهم والفائدة والثمرة من تدبره، وتتّعظ نفسه تنزجر بما فيه من الوعد والوعيد؛ فيُقبل على دين الله ويمتثل أمره فيزداد إيمانُه، نسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يوفقنا جميعًا لذلك.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان فضائل نبي الله داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأن ما وقع منه هو خلاف الأَوْلى في حقه.

2- أن الأنبياء معصومون من المعاصي والكبائر وما يؤثر على البلاغ لرسالتهم.

3- بيان مشروعية الشراكة ووجوب الوفاء بين الشريكين وتحريم الظلم والتعدي بينهم.

4- من آداب الدخول على الناس عمومًا وأهل الفضل خصوصًا؛ الاستئذان منهم.

5- أن حكمة الله من خلق السموات والأرض تظهر في الجزاء الأخروي العادل بين الخلق فيُجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

6- بيان فضيلة تدبر القرآن، وأن ذلك من أهم الحكم والغايات لتنزيله، وأن من يستفيد من التدبر والتذكر هم أصحاب القلوب والعقول السليمة.

تفسير المقطع الثالث من سورة ص

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ
الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ
بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا
عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ۖ إِنَّكَ
أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)
وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ
وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا
وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ
إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾، **الواو** عاطفة على ما سبق ذكره من قصة داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فذكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطى ومنح داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ ولداً اسمه سليمان، ووصفه بأنه نعم العبد، وهو مدح وثناء عليه، وبيّن سبب هذا المدح والثناء؛ بأنه كان كثير الرجعة والتوبة والإنابة إلى الله جلّ وعلا، مما يقع منه من السهو والغفلة.

وقوله: ﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ ﴾، ثم ذكر شيئًا مما حصل لسليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فترة ملكه، فقد ورث الملك عن أبيه داوود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومنحه الله تعالى النبوة بعد أبيه، فعرض عليه ساسة الخيل في مملكته الخيول التي كان يملكها، وكان موعد العرض في فترة العشي، وهي فترة ما بعد زوال الشمس عن منتصف السماء بعد الظهر[1]، وكان ذلك من عادة الأمم القديمة، مثل ما يُسمى اليوم بالعروض العسكرية بالمناسبات أو وقت التدريب، فكانوا يعرضون ما عندهم من الخيول والفرسان ونحوها؛ لمعرفة قدراتها واستعدادها للحروب من ناحية، وللتمتع بمناظر تلك العروض من ناحية أخرى، والصافنات: وصفٌ للخيل الأصيلة المدربة.

والصافن: هي الخيل التي تقف على ثلاث قوائم وترفع الرابعة، أو لا تمكّن قدمها الرابعة من الأرض[2]، ويكون لها منظر جميل بهذا الوصف، كما يدل على قدرتها على الفروسية، **والجياد:** اسمٌ للخيول، ويدل على جودتها أيضًا.

وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣ ﴾، فتم العرض لها خلال هذه الفترة، فانشغل بها سليمان عن الذكر، وهو ذكر الله المطلق أو عن صلاة العصر حتى غربت الشمس، فعاتب نفسه بأنه آثر النظر إلى هذه الخيول فأخذت وقته وشغلته عن ذكر الله وتسبيحه أو عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، وتأخر

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 154).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 571).

عما كان قد تعوّد عليه من الذكر والصلاة، فأمر بردها عليه، فأرجعوها عليه بعد أن كانت قد ذهبت إلى إسطبلاتها؛ فطفِق؛ فعلٌ من أفعال الشروع، وخبره لا بد أن يكون فعلاً مضارعًا، والتقدير فطفق يمسحها مسحًا، **أي**: فما زال يضرب بالسيف سوقها وأعناقها، حتى انتهى من ذبحها، ثم أطعم لحمها الفقراء من قومه تقربًا إلى الله؛ لأنها شغلته عن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **وقيل**: إن المسح هنا كان للتبريك عليها، وليس لذبحها، **والمعنى**: أن ساسة الخيل جاءوه بالخيل بعد العصر يعرضونها عليه، فقال: إني مشغولٌ الآن بذكر ربي اذهبوا بها، فذهبوا بها حتى غربت الشمس وانتهى من ذكره، ثم أمرهم أن يُعيدوها عليه، فلما أتوه بها مسح عليها تبريكًا ودعاءً لها بالخير لتكون عُدته في الحرب، واختار هذا المعنى ابن جرير[1]، والمعنى الأول أرجح للسياق[2]، ويدل عليه أيضًا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكرمه وأعطاه مُلكًا آخر من الرياح والشياطين بدلاً عنها كما سيأتي، لأنها شغلته عن ذكر الله، ومن ترك شيئًا لله عوّضه الله خيراً منه.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، **هذه فتنة أخرى، فالفتنة الأولى**: كانت فتنته بالمال الخيل حتى انشغل عن ذكر الله فحصل منه إنابة وعودة إلى الله وتخلّص منها لأنها شغلته عن ذكر الله، **والفتنة الثانية**: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختبره بأن سلّط عليه شيطانًا من العفاريت جلس على كرسي ملكه، ولم يستطع سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُدير

---

(1) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 196).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 66)، وفتح القدير للشوكاني: (4/ 495).

مملكته بسبب وجود هذا الشيطان على كرسيه، وهو قول جمهور المفسرين[1]، بغض النظر عن ما هو سبب جلوس الشيطان عليه، كما تذكره الروايات الإسرائيلية المختلفة[2]، فتصور ذلك الشيطان في صورة إنسان وجلس على كرسي سليمان فترة من الزمان، فدعا سليمان ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُعيد له مُلكه، فأرجع الله له ملكه بعد ذلك، **وقيل**: إن فتنة سليمان كانت بسبب مرض شديد ألقاه الله عليه[3]، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أخذ منه قوة التفكير وإدارة الملك بالمرض، فكان يجلس على كرسيه كالجسد الذي لا تفكير فيه ولا نشاط، ثم شفاه الله وأرجع الله له قوة التفكير والإرادة، والراجح الأول للسياق.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾، فقدّم طلب المغفرة استشعاراً بقصور حاله من جهة، ومن جهة ثانية قدّم طلبَ صلاح الدين على صلاح الدنيا، وهذا من عنايتهم بآخرتهم قبل دنياهم، وطلبَ مُلكًا لا يكون لأحد من بعده، والذي دفعه إلى هذا الطلب ما حصل له من تسلط العفريت على كُرسيِّه ومُلكه سابقًا، فخشي من تكراره؛ فلذلك طلب من الله أن لا يمنحه لغيره، وليكون معجزة دلالة على نبوته[4]، فشمل الزمان كله، فلم يحصل لأحدٍ بعده من الملك مثل ما حصل له، ففي الحديث أن النبي ﷺ، قال: "إن عفريتًا من الجن تفلّت علي البارحة ليقطع

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (3/ 573).

(2) ينظر: تفسير الطبري: (21/ 197).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 394).

(4) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1795).

عليّ الصلاة، فأمكنني الله منه فأخذته، وأردت أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم أجمعون، قال: فذكرت دعوة أخي سليمان: رب هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي، فرددته خاسئًا"(1)، **والوهاب**: اسمٌ من أسماء الله الذي يُعطي ويهب بدون مقابل.

وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾، فاستجاب الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ دعاءه وأعطاه أنواعًا من الملك لم تحصل لأحدٍ بعده، **وهي**: **أولاً**: سخّر له الريح، **أي**: ذلّلها وهيأها وجعلها رهن إشارته، فتستجيب لطلبه وتمشي بأمره، وتجري حيثُ يريد بكل لينٍ وسهولة فلا يقع فيها اضطراب؛ لأنه كان يركب على بساط وتأخذه الريح حيث يُريد، **وجاء في آية أخرى**: ﴿عَاصِفَةً﴾[الأنبياء:81]، وهي بمعنى سريعة، فتكون لينة سريعة، وكانت سرعتُها أن تسير من الصباح إلى الزوال مسيرة شهر، ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر، **كما قال عنها**: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ:12].

ثانيًا: سخّر له الشياطين متنوعي الحرف والأعمال والأوصاف، فمنهم البناؤون الذين يأمرهم فيبنون له القصور والمباني العظيمة، وما زال يُوجد منها مبانٍ ضخمة جداً أو كهوف يصعُب أن يقوم بها البشر، فلعل تلك من بقايا عمل شياطين سليمان الذين سخرهم الله له، **كما قال**: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾[سبأ:13]، ومنهم الغواصون الذي

(1) مسند أحمد:(13/ 349)، برقم (7969)، وصحيح البخاري: (4/ 162)، برقم (3423).

يغوصون في البحر فيستخرجون منه اللؤلؤ والياقوت والزبرجد وغيرها من الدرر التي تكون في قيعان البحار، وسخّر له مردة الشياطين حتى قرنهم في الأصفاد، وجعلهم مُقيدين في الأغلال لا يستطيعون التحرك، وهم الذين يُخالفون أوامره، أو يُؤذون خلق الله، فهذه كانت عقوبتهم، لأن سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مسيطراً على عالم الجن والشياطين.

ثم قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾، **أي:** ما سبق ذكره من تسخير الرياح والشياطين لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو عطاء من الله وهبه له بدون مقابل، وجعل أمر التصرف في هذا الملك لسليمان؛ فأعطِ من شئت وامنع من شئت منه، وفُك من شئت من الشياطين المقيدين واربط من شئت منهم، فلن تُحاسب على عطائك، ولا على منعِك، فمهما فعلت فهو جائز لك(1)، وهذا من إكرام الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لسليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الدنيا، وأما في الآخرة فله مكانة عظيمة وقريبة عند الله وجزاءً وثوابًا يليق به، وله حسن مرجِع يرجع إليه في الجنة، فجمع له بين خيري الدنيا والآخرة.

ثم قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾، ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتذكر قصة عبدِه أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويقتدي به في الصبر على المكاره، فقد ابتلاه الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالضر في جسده وماله، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 74).

به على مرضه إلا زوجته حفظت ودّه لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك معه مال جزيل وأولاد وسعة من الدنيا، فسلب جميع ذلك، ورفضه القريب والبعيد[1]، فلما طال به المرض واشتد به الحال؛ تضرّع إلى الله ربه ورب العالمين أن الشيطان قد أصابني بنصب: وهو التعب والإعياء.

وعذاب: وهو الألم[2]، ووصفه بالعبودية لأنها أعلى مقامات البشرية، **والمناداة**: الصوت المرتفع، **والمناجاة**: الصوت المنخفض، فنادى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وشرح له حاله وأن الشيطان قد أصابه بأمر متعب ومُعذب له سواءً كان في جسده أو في نفسه، وتأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأضاف الإصابة إلى الشيطان، والله خالق الخير والشر، فاستجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وأمره أن يضرب برجله الأرض التي كان جالساً عليها ضرباً خفيفاً؛ لأن المرض كان قد أنهكه، فضربها فنبعت له عين ماء صافية باردة فشرب منها، فذهب كل مرض في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه[3]، **وقيل بل ضرب الأرض ضربتين: ضربة** خرج منها ماء دافئ، فاغتسل منه، وجعل فيه الشفاء لما بظاهر جسده من ألم، **وضربة** خرج منها ماء بارد، فشرب منها، وجعل فيه الشفاء لما بداخله من ألم، وتكاملت العافية فيه ظاهراً وباطناً[4].

(1) ينظر: المصدر السابق: (7/ 74).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 500).

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 507).

(4) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 74).

وقولــــه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾، أي: أعطيناه بدلاً عن من ذهب من أولاده، فقد ولدت له امرأته مثل عدد الموتى، ومثلهم معهم، وأخلف الله عليه أكثر مما ذهب من ماله(1)، وقيل: أنه أحياهم له بأعيانهم(2)، لكن لا يوجد دليل على ذلك، والهِبة أعم من أن تكون مجرد إحياءً لمن مات، ورحمَه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالشفاء وبإعطائه الأهل والأولاد والأموال مرة أخرى، وجعل قصته ومعجزة الشفاء له فيها موعظة وتذكير لكل ذي عقلٍ سليم يقرأها ويتذكر أن عاقبة الصبر الفرج والراحة، وأن الله على كل شيءٍ قدير.

وقولــــــه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾، وكانت زوجتُه قد أغضبته أثناء مرضه، فحلف أن يجلدها مائة جلدة، فلما شفاه الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ رحم الله زوجته لصبرها عليه، وأفتاه الله أن يأخذ ضغثًا، وهو الحزمة من الحشائش فيها مائة عود، فيضربها به ضربة واحدة، فيبرّ بذلك يمينه ويخرج من حنثه، ففعل ذلك رحمةً بالمرأة وبرّأ يمينه، وقد فعل ذلك النبي ﷺ برجلٍ من أصحابه زنى وهو بِكر وكان مريضًا لا يقوى على جلد المائة(3)، وعلى هذا يُقاس عليه كل من كان هذا حاله، ثم وصف الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالصبر على أقدار الله من الابتلاءات والأمراض التي أصابته،

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1093).

(2) ينظر: تفسير الزمخشري: (3/ 131).

(3) ينظر الحديث في مسند أحمد: (36/ 263)، برقم: (21935)، وسنن أبي داود: (4/ 161)، برقم: (4472)، وإسناده صحيح.

ومدحه بأنه نعم العبد فهو كثير الأوبة والرجوع إلى الله بالتوبة، **وهذه العبارة ذُكرت وصفًا لنبيين: الأول** سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **والثاني** أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **وسليمان** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان ملِكًا لم يفتنه الملك ولا السرّاء عن دينه، **وأيوب** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مبتلىً بالضراء فلم تفتنه الضراء عن دينه، فمن صبر على فتنة السراء وفتنة الضراء فهو نِعم العبد، ومن أعطاه الله نعمًا فلا يغفل عن العودة إلى الله والرجوع إليه بين الحين والآخر حتى لا تُلهيه عن طاعة ربه ويصاب بالعجب والغرور فيهلك، وعلى من ابتُلي بالضراء من مرض وفقر ونحوها فلا يغفل أيضًا عن العودة إلى الله والاستغفار والتوبة؛ حتى لا يصاب باليأس والقنوط فيهلك، فإن العُجب والغرور واليأس والقنوط بابان للشيطان يدخل منهما إلى الإنسان ليُخرجه من دينه، والموفق من وفّقه الله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه.

2- أن الله يستجيب للعبد إذا دعاه ما لم يستعجل.

3- جواز ضرب الرجل لزوجته تأديبًا، ضربًا غير مُبرّح.

4- أن الصبر على الضراء يساوي عند الله الشكر على السراء، ومن فعلهما فهو نعم العبد لله.

تفسير المقطع الرابع من سورة ص

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ (٤٥) إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم
بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ (٤٧) وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ
وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٤٩) جَنَّٰتِ
عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ (٥٠) مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ (٥١) ۞
وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن
نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ
حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ (٥٧) وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ
إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ (٥٩) قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ (٦٠) قَالُواْ رَبَّنَا
مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ (٦١) وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ
ٱلۡأَشۡرَارِ (٦٢) أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ
ٱلنَّارِ (٦٤)﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ (٤٥)﴾، ما زال الحديث متصلاً بذكر أنبياء الله ورسله الذين قصهم الله تعالى على نبيه محمد ﷺ في هذه السورة، فأمره أن يذكر من عباده المرسلين إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أبو الأنبياء الثاني بعد آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فجميع الأنبياء من ذرية

إبراهيم، وهو من أولي العزم من الرسل، وذكر معه ولده إسحاق وهو الولد الثاني لإبراهيم من زوجته الأولى سارة، وذكر معه ابنه يعقوب، فجمع بين الأب والابن والحفيد، ووصفهم جميعًا بأنهم أصحاب القوة، والمقصود بها قوة الإيمان والعمل الصالح وطاعة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتلمس مرضاته، والأبصار: جمعُ بصيرة، وهي القلوب التي تتأمل وتُفكر وتُبصر الحق وتتبعه، كانوا أصحاب قوة في العمل، وأصحاب قوة في الفكر والتأمل.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾، **أي:** منَّ الله عليهم بأن نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها(1)، فلا تشغلهم الدنيا عنها، وإنما كان همهم الأكبر تذكر الدار الآخرة والاستعداد لها بالعمل الصالح، وإذا كان قلب العبد دائمًا متعلقًا بالدار الآخرة فإنه يظل معموراً بالإيمان والتقوى والاستعداد للقاء الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ومشغولاً بدعاء غيره إليها، وقد اصطفاهم الله واختارهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته للناس، ومن أُعطي هذه الخصلة وهذا الفضل العظيم، فهو من الأخيار الذين ارتبط بهم الخير واتصفوا به في سائر جوانب حياتهم في عبادتهم ودعوتهم وأخلاقهم وسلوكهم وشأنهم كله.

وقوله: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾، وأمره أن يتذكر الأنبياء، إسماعيل وهو الولد الأكبر لإبراهيم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وقد أرسله الله للعرب الذين كانوا يعيشون معه في الجزيرة، واليسع، وذا الكِفل، وهما من أنبياء

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 76).

بني إسرائيل، فيذكرهم جميعاً بالثناء الحسن، فإن كلاً منهم كان من الأخيار الذين اختارهم الله للنبوة، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة[1].

ثم ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خبره عن الأنبياء بقوله: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾﴾، هذا ذكرٌ؛ إشارة إلى ما تقدم في هذه السورة من ذكر الأنبياء[2]، ذكّرناك بهم وأخبرناك بحالهم لبيان مكانتهم عند الله، ومن أجل أن تقتديَ بهم وتسير بسيرتهم وتتأسى بأحوالهم، **والمتقون**: كلُ من اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا شك أن الأنبياء والرسل في أعلى درجات التقوى، وأن مرجعهم إلى الله سيكون حسناً، ثم بيّن لنا حسن المآب بأنها جنات عدنٍ التي من دخلها لم يخرج منها، بل يُخلّد فيها، ووصفها بأن أبوابها مُفتّحة لهم لا تغلق عنهم، والمقصود بها أبواب الجنة الرئيسية الثمانية، ولكن لا يمنع أن يكون المقصود بها أيضاً أبواب قصورهم، وأن الغلمان يقومون بفتحها كثيراً لخدمتهم؛ لأن مُفتّحة صيغة مبالغة من كثرة الفتح، واللام للاختصاص، فالفتح لهم لا لغيرهم.

وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾، وحالهم أنهم يجلسون فيها جلسة المتكئ على الأرائك والفُرش الوثيرة، وهي الجلسة التي تدل على الراحة والسعادة والاطمئنان، ولا

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 715).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 211).

يقومون لخدمة أنفسهم، بل يطلبون ويأمرون الخدم من الغِلمان بما يشتهون من الفاكهة الكثيرة المتنوعة في طعمها وأنواعها وألوانها، وما يشتهون من شراب الخمر، وتنوين شرابٍ هنا للتعظيم، أي شراب نفيس في جنسه[1]، ومنحهم الله في الجنة النساء اللاتي يقصُرن طرفهن على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيره، وبسبب جمالهن يقصُر زوجها طرْفه عليها فلا ينظر إلى غيرها، وهن متساويات في السن هن وأزواجهن، ويشمل هذا الوصف النساء من زوجاتهم من أهل الدنيا ومن الحور العين[2]، **وقد جاء في الحديث:** "يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين، أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة"[3]، وهي متوسط الشباب والقوة والنضارة والجمال، وفي الآية إشارة إلى عفتهن وجمالهن.

ثم قال سبحانه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾، هذا الذي سبق ذكره من وصفٍ مُوجَز لنعيم أهل الجنة، هو ما تُوعدونه، **واللام** للتوقيت، **أي:** تحصلون عليه حينما يحين وقت الحساب يوم القيامة، فتُحاسبون حساباً يسيراً ثم تنتقلون إلى هذا الجزاء العظيم الذي وعدكم الله في الجنة، هو رزقنا لكم وهو لا ينتهي ولا ينقطع بل يستمر أبد الآبدين، لأن ما يُنغص العبد في الدنيا إذا أعطاه الله نعمة أحد أمرين: أن يموت ويترك النعمة، أو أن تنتهي النعمة وهو حي، فجمع الله لأهل الجنة هاتين النعمتين: فلا يموتون، ولا تنتهي النعمة عنهم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 282).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 283).

(3) سنن الترمذي: (4/ 682)، برقم: (2545)، وإسناده حسن.

ثـم قـال الله سـبحانه: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦﴾، **هذا:** اسم الإشارة مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض آخر، فبعد أن ذكر الله حال أهل الجنة؛ انتقل إلى ذكر حال أهل النار، **والطاغون:** هم الموصوف بالطغيان، وهو مجاوزة الحد في التكبر والتعاظم، والمراد بهم عظماء أهل الشرك لأنهم تكبروا بعظمتهم على قبول الإسلام، فمرجعهم شر مرجع، وهو جهنم يدخلونها فيحترقون فيها من الجهات كلها، فبس الفراش فراشهم، **كما قال:** ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾[الزمر: 16].

ثم قال: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾، هذا العذاب والنكال الموعودون به هو جزاؤهم، وهو الماء شديد الحرارة، والصديد الذي يخرج من جروح أهل النار، فليشربوا منه وليتذوقوا طعمه الخبيث، ولهم أنواع وأصناف أخرى متعددة من العذاب يُعَذَّبون بها في الآخرة.

ثم قال: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾، ثم تقول الملائكة للطغاة والكُبراء فإنهم أول من يدخل النار، هؤلاء جماعة من الأتباع سيدخلون معكم النار فرحّبوا بهم!!، **والفوج:** جماعة من الناس، **والمقتحم** الداخل في زحام وشدة(1)، فإن أهل النار يُساقون إليها جماعات بحسب أصنافهم، فالكُبراء والرؤساء وأهل الطغيان فوج، والضعفاء والأتباع فوج، فيرد الكبراء عليهم لا مرحباً بهم، **أي:** لا يلقون مكاناً رحباً ولا

(1) ينظر: تفسير ابن جزي: (ص: 1807).

خيراً، إنهم داخلون النار كما دخلناها قبلهم، وإنما رفضوا الترحيب بهم استنكاراً منهم لجمع الضعفاء معهم على عادتهم في الدنيا، فما زالوا يُؤمنون بالطبقية حتى وهم داخل جهنم!!، فلما سمع قولَهم الأتباعُ والضعفاء ردوا عليهم بل أنتم لا تستحقون الترحيب؛ لأنكم كنتم سبباً في دخولنا النار، حينما هيأتم وزينتم لنا الكفر ودعوتمونا إليه، فاتبعناكم فيه، فبئس دار القرار لنا ولكم جهنم، والعياذ بالله، ثم سألوا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن من أغوانا بالكفر وشجعنا عليه في الدنيا؛ فاجعل عذابه زائداً علينا ومضاعفاً في النار، **كما في قوله:** ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾[الأحزاب:68]، وسبب هذا دعاء ما يُلاقيه المستضعف في جهنم من غَبنٍ حينما اتبع الكُبراء، فالمستضعفون الذين ساروا وراء الكُبراء الذي زينوا لهم الكفر والباطل، تحترق قلوبهم من الغِل والحقد على الذين أضلوهم في الدنيا، ولكن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حكَم عدل سيعاقب كل كافر بما يستحق، ولذلك خلق النار دركات متفاوتة في العذاب، وكل درَك لفئة محددة من الكفار، فيأتيه من العذاب بقدر ما عنده من الكفر والفساد!!.، وفي الآية إشارة إلى انقطاع المودة بين الكفار، وأن المودة التي كانت بينهم تصير عداوة يوم القيامة.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾، وقائل هذا القول هم الكُبراء من أهل النار، حيث يسألُ بعضُهم بعضاً أين من كنا نراهم في الدنيا من المؤمنين المخالفين لنا، وكنا نظنهم أشقياء قد خسروا لذة الحياة باتباعهم الإسلام ورضاهم بشظف العيش؟! أكانوا على حق واستهزاؤنا بهم

كان باطلاً، فلم يدخلوا النار ولم يستحقوا العذاب؟، وهذا هو الواقع، أم كانوا على باطل واستهزاؤنا بهم كان حقًا، وقد دخلوا النار، ولكن لم تقع عليهم أبصارنا فيها؟، وهذا باطل ولكنهم قالوه تمويهًا وتضليلاً للأتباع كما كانوا يفعلون في الدنيا[1]، ثم بيّن أن الذي حكاه الله عنهم من التخاصم بين القادة والأتباع أمر واقع منهم حتمًا يوم القيامة لا شك فيه، وفيه إشارة إلى سوء العلاقة بين أهل النار، وفيه التعريض بوعيد المشركين وإثبات حشرهم وجزائهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان فضل الله على الأنبياء حيث نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وخصصهم بحب الآخرة.

2- تنوّع نعيم المؤمنين المتقين في الجنة، وتنوّع وتعدد عذاب الكفار في جهنم.

3- بيان سوء العلاقة بين أهل النار وشدة تخاصمهم فيها.

4- بيان غبن المستضعفين من الكفار في النار ودعائهم فيها الكبراء الذين أضلوهم في الدنيا.

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 716).

تفسير المقطع الخامس من سورة ص

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ
﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا
خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن
طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ
فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ
﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ ﴾، أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر كفار قريش المكذبين به بأن الله أرسله إليهم رسولاً يخوفهم ويحذرهم من عقوبة الله لهم إن استمروا على الكفر به، ويُخبرهم أن الإله الحق الذي يستحق العبادة دون

غيره هو الله الواحد الذي لا شريك له ولا مثيل، ولا شبيه له ولا نظير، الذي قهر الخلق بقوته وقدرته وعزته وجبروته، وهو خالق ومدبر ومربي ومربوب جميع من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، وهو القوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يبطش بمن كفر به والغفار لذنوب من تاب ورجع إليه من عباده، وفي ذكر هذين الاسمين ترهيب وترغيب للكفار في العودة إلى الله فلا تبتعدوا عنه بالكفر فيبطش بكم، وارجعوا إليه بالإيمان يغفر لكم.

ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾، **قل يا محمد للكفار:** إن هذا القرآن الذي جئتكم به وما تضمنه من أخبار الشريعة والتوحيد والرسالة والدار الآخرة[1] خبرٌ ذو شأنٍ عظيم، ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه؛ لعظم قدره وكثرة منفعته، ولعظيم ما تضمنه من الزواجر والأوامر، لم يأتِ مثلُه من قبل ولن يأتي بعده مثله، وقد أعرضتم عن الإيمان به وقد نزل بلغتكم، وعجزتم عن أن تأتوا بمثله، مما يدل على ضعف عقولكم وقلة فهمكم، فإن العاقل إذا رأى شيئًا عظيمًا اعتبر به واتّعظ به.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾، وأخبرْ قومك بأنك لم تكن تعلم شيئًا قبل أن نُوحي إليك هذا القرآن، عما جرى بين سكان السموات من الملائكة من الجدال والخصومة فيما بينهم حول خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ وموقف الملائكة منه وتفضيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لآدم وإكرامه، وأمْر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1812).

وتخلّف إبليس عن السجود، فهذه المعلومات كلها كانت غيباً لا يعلم بها محمد ﷺ ولا تعلم بها قريش قبل ذلك، وإنما علم بها عن طريق الوحي، بعد أن أرسله الله رسولاً منذراً لهم ومبيناً لهم وموضحاً لهم عاقبتهم الوخيمة إن استمروا في كفرهم.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾، ثم أخبره بقصة خلق آدم والحوار بين الله والملائكة حوله، ولعل هذه الآية من هذه السورة هي أول ما نزل على النبي ﷺ من ذكر قصة خلق آدم وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود، فإن هذه السورة في ترتيب نزول سور القرآن لا يوجد ذكر قصة آدم في سورة نزلت قبلها[1]، فاذكر ذلك لقومك حين أخبر الله الملائكة بأنه سيخلُق بشراً هو آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأن خلقه سيكون من الطين بالطريقة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن خلق آدم، في عدد من الآيات في سور أخرى، حيث قبض قبضةً من تراب الأرض كلها ثم أضاف إليها الماء فصارت طيناً، ثم ترك هذا الطين فترةً حتى تخمر وصار طيناً لازباً أو صلصالاً، ثم تركه فترة حتى نتن فصار حمأً مسنوناً، ثم تركه فترة جف وصار كالفخار، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً مكتمل الخلقة، ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، فامتثل الملائكة المخاطبون بالسجود كلهم أجمعون، فوقعوا سجوداً بين يديه

(1) التحرير والتنوير: (23/ 297).

تكريمًا له، وأتى هنا بتوكيدين ليدل على كمال ونوع الامتثال، **فالتوكيد بـ** (كل)؛ لبيان أنه لم يتخلف منهم أحد، **والتوكيد بـ** (أجمعون)؛ لبيان أنهم سجدوا سجوداً واحداً في زمنٍ واحد دون اختلاف بينهم، إلا إبليس ولم يكن منهم جنسًا كان من الجن، فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه، فامتنع امتثال أمر الله ولم يسجد معهم بسبب مبالغته في التكبر على آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واعتقاده أنه أفضل منه، ووقع في الكفر حال تكبره، وخرج بذلك الفعل من وصف المؤمنين وصار من جملة من كفر بالله رب العالمين.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾، ثم خاطب الله إبليس موبخًا له وسائلاً له عن سبب امتناعه عن تنفيذ الأمر بالسجود لآدم الذي خلقتُه بيديّ، وخصيته وشرفته بذلك، وفي ذلك إشارة إلى فضل آدم على إبليس وتوبيخ وتقريع لإبليس لعصيانه الأمر، قائلاً له: أَمنَعك الكِبر الآن من السجود لآدم والاعتراف بفضله، أم كنت متصفًا به من قبل ذلك، فأجاب إبليس بأنه ترك السجود استكباراً؛ لأن جنسه خيرٌ من جنس آدم، لأن النار في نظر إبليس أفضل من الطين، وهو اعتدادٌ برأيٍ لا دليل عليه، فإن الفلاسفة يُقرون أن التراب أفضل من النار(1)؛ لأن النار لا تشتعل بذاتها وإنما بما يُوقد فيها، وما يُوقَد فيها هو من مُخرجات الطين وهو النبات والأرض والأحجار والتراب، وأنها إذا اتقدت وصارت شديدة أطفئت بالطين، فالطين أقوى منها، لكن القياس العقلي

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 304).

البعيد عن الشرع يُفسد صاحبه، ولذلك حُذر من الأقيسة الباطلة، **ولذا قيل**: أول قياس فاسد هو قياس إبليس.!

وقوله: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾، فلما رأى بطلان حجته لم يستمر بمجادلته، بل حكم عليه بالخروج من الجنة، ووصفه بأنه مرجوم ومطرود من كلّ خيرٍ وكرامةٍ في الدنيا والآخرة، واستحق لعنة الله إلى يوم البعث والجزاء، والتقييد لها إلى يوم الدين لا يعني أنها تنقطع عنه يومئذٍ، بل يفيد أنَّه سيلقى يوم القيامة من ألوان العذاب والعقاب ما ينسى بسببه اللَّعنَة!.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾، فلما علم إبليس بحاله ومآله وما صار إليه بسبب تكبّره وكفره طلب من الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وتوسل إليه بالربوبية معترفاً له بسلطانه وقهره عليه، أن يتركه حياً ولا يُميته إلى يوم يبعثون، فهو لا يُريد أن يموت؛ لأن الموت شديد على كل نفس، فحقق الله له طلبه وتركه حياً إلى الوقت الذي قدَّره الله وعيَّنه لفناءِ الخلائقِ، وهو وقت النفخة الأولى، وهي نفخة الصعق الذي يموت فيها الخلق أجمعون.

وقوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٨٣﴾، فلما حصل على طلبه، وهو تأخير موته؛ أقسم بعزة الله أنه سيسعى في غواية وإضلال بني آدم أجمعين، بتزيين الشهوات لهم، وإدخال الشبهات عليهم، وهي العلة التي طلب إبليس تأخير موته من أجل تحقيقها، ولكنه استثنى من لا

يقدر على إضلاله، ولا يجد السبيل إلى إغوائه، وهم عباد الله الذين أخلصهم لعبادته وعصمهم من الشيطان الرجيم، فهؤلاء لا يستطيع إبليس أن يُغويهم، وفيها إشارة إلى أهم أسباب النجاة من كيد الشيطان، وهما: العبودية الحقة لله، والإخلاص في العمل.

وقوله: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾، فرد الله على إبليس هذا القول بأنه هو الحق، وما يقوله هو الحق، لأملأن جهنم منك يا إبليس ومن ذريتك الشياطين وممن تبعك في الغواية والضلالة من ذرية آدم أجمعين، وبهذا القول الفصل انتهى الحوار بين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وبين إبليس، وفي ذلك دلالة على عدل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فإنه حاور إبليس وأعطاه فرصة يُعبّر بها عن رأيه، وأقام الحجة عليه حتى لا يكون له عذر في الآخرة.

ثم خُتمت السورة بقوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾، أمر الله نبيه أن يقول لكفار قريش الذين كذبوه: لا أطلب منكم أُجرة على دعوتي لكم وإبلاغي لكم الرسالة، فالدعوة إلى الله مجانية، وما جئتكم به ليس فيه زيادة على ما أمرني الله به، وليس فيه تعنّت ولا مشقة عليكم، بل تستطيعون فعله بكل يُسرٍ وسهولة، وما أرسلت به ليس خاصاً بكم، بل هو وسيلة لتذكير وموعظة العالمين أجمعين، وفي ذلك إشارة إلى عالمية رسالته ﷺ، وسوف تعلمون أيها الكفار خبر صدق ما أرسلت بعد حين قريب، وقد حصل ذلك، وعلم من بقي منهم صدق رسالة

محمد ﷺ، ودخلوا في دين الله أفواجًا، وأما من مات على الكفر قبل انتصار الإسلام وظهوره؛ فسيعلم صدقه يوم القيامة لا محالة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- القياس في معارضة النص قياس فاسد.

2- أن كفر إبليس كُفر عناد واستكبار.

3- أن العبودية الحقة لله والإخلاص في طاعته من أهم أسباب النجاة من إغواء إبليس.

4- مجانية الدعوة إلى الله، واحتساب الأجر والثواب عليها عند الله.

5- أن التكلف مذموم في كل شيء، في الملبس والمأكل والمشرب والكلام ونحوه.

6- أن هذا الدين صِدقٌ وحقٌ لمن تفكر وتأمل فيه بتجردٍ، فإنه لا يسعه إلا الإيمان به.

تفسير جزء الزُّمر

(24)

تفسير سورة الزمر

تفسير المقطع الأول من سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1) إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ
مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (2) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ
كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3) لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (4) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ
الْغَفَّارُ (5) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ
يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۖ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (6) إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن
تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (7)﴾.

شخصية السورة:

سورة الزمر: سورةٌ مكية[1]، **ومن أعظم مقاصدها** الدعوة إلى التوحيد

---

(1) تفسير ابن كثير: (7/ 84).

الخالص، ونبذ عبادة غير الله، والتحذير من الشرك، ومجادلة المشركين في شبهاتهم التي كانت سببًا في شركهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد جاء في فضلها من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: "كان النبي ﷺ لا ينام على فراشه، حتى يقرأ بني إسرائيل، والزمر"(1).

يقول الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾، يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تنزيل الكتاب -وهو القرآن العظيم- من عنده تبارك وتعالى، ونزّله بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، على رسوله محمد ﷺ، وذيّل الآية بذكر اسمين عظيمين من أسمائه، وهما العزيز الحكيم، إشارة إلى أن هذا الكتاب عزيز الجناب، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومحفوظ من التحريف والتبديل، وهو حكيم؛ بمعنى حاكم على أفعال الناس وتصرفاتهم ويقضي فيها، وهو حاكم على معارضيه بالحجة، وحاكم على غيره من الكتب السماوية، فهو كلام الله، والكلام صفة من صفات الله، وما يقال عن ذات الله يقال عن صفاته، فكلامه كامل من كل وجه، ولا مثيل له، وليس فيه خلل ولا نقص.

وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾، الخطاب لرسول الله ﷺ، من باب الملاطفة والامتنان عليه بهذه النعمة الكبرى التي منحه إياها، **كما قال:** ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[الشورى:52]،

---

(1) مسند أحمد: (41/ 394)، برقم: (24908)، وسنن الترمذي: (5/ 31)، برقم: (2920)، والسنن الكبرى للنسائي: (9/ 263)، برقم: (10480)، وإسناده صحيح.

والباء باء الملابسة، **أي:** أن هذا الكتاب مُلابَسًا للحق لا ينفك عنه[1]، وهو الكتاب المُشتمل على الحق، والتوطئة بذكر هذا الامتنان عليه يقتضي أن يقابله الرسول ﷺ بالشكر، لذلك أمره بإفراده بالعبادة، والإخلاص لله في جميع أعماله الظاهرة والباطنة، والمقصود بالدين مُطلق عمل الإنسان، فإن كان في باب العبادة فليكن خالصًا لله، وإن كان في أعمال الدنيا فليكن متقنًا، حتى تؤجر على ذلك كله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾، **ألا:** لتنبيه السامع للكلام الذي يأتي بعدها، واللام لام الاستحقاق، **أي:** أن الله هو الذي يستحق أن يكون الدين الخالص له لا لغيره، والدين هو الطاعة، والخالص هو النقي الذي ليس فيه شرك ولا رياء، ثم شنّع على من أشرك بالله، واتخذ من دونه أولياء، وهم الشركاء المعبودون من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[2]، بحجة داحضة وشبهة باطلة، خلاصتها: نحن ضعفاء ونريد أن نصل إلى الله، فلا بد أن يكون لنا وسطاء بيننا وبين الله من الصالحين، يقربونا إلى الله منزلة وقربة، وهذه الشبهة سببها قياسهم الخالق على المخلوقين، حيث قاسوا حال العبد مع ربه على حال ضعفاء الناس مع ملوكهم، فإذا أرادوا الدخول عليهم بحثوا لهم عن وساطة تُوصلهم إليهم، تعالى الله عن ذلك، بل الله قريب من خلقه، فلا يحتاج الخالق إلى وساطة بينه

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 315).

(2) ينظر: تفسير ابن جزي: (2/ 215).

وبين خلقه، **كما قال:** ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[البقرة:186]، فجعلوا عبادة غير الله وسيلة إلى القرب من الله، فنقضوا بهذه الوسيلة مقصدها!![1]، **وهذه الشبهة** ما زالت باقية إلى اليوم عند بعض الناس، ولذلك تجدهم يطوفون ويتبركون بقبور الصالحين، ويستشفعون بهم وهم أموات يحتاجون إلى دعاء الحي لهم، ولو قُدِّر له أن يتكلم لقال: يا متوسل بي ادع الله لي!!

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، **أي:** إن الله سيفصل بين أهل الأديان المختلفة يوم القيامة، ويجزي كل عامل منهم بعمله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾، **أي:** إن الله يحرم هداية التوفيق الكاذب المتعمق في الكذب على الله، والكَفّار: كثير الجحود والإعراض عن الله، **ومثلها في الحكم قوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:51]، **وقوله:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[المنافقون:6]، ونحوها، فمن أراد أن يهديه الله ويوفقه للحق والسداد؛ فليبتعد عن هذه الصفات.

والهداية في نصوص الوحي وردت على معنيين: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه مبذولة لكل الناس، **كما قال:** ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد:7]، فقد أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، لإرشاد الناس إلى طريق الحق، **وهداية** التوفيق والتسديد، وهذه بيد الله، يمنحها من يشاء، ويحصل عليها العبد بالأخذ بأسبابها.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 321).

ثم قال سبحانه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ﴾، **لو:** حرف امتناع، ويجوز في لغة العرب أن يُقيَّد شرط الامتناع بمستحيل من باب التنزُّل مع الخصم والمحاورة له، واتخاذ الله الولد أمر مستحيل؛ لأمورٍ، **منها:** ليس له صاحبة فيكف يكون له ولد؟!، وأن الولد شبيهٌ بأبيه، فلو وُجد ولد لله؛ لكان مُشابهًا لله، والله لا شبيه له، **كما قال في سورة الإخلاص:** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، ولو أراد الله أن يُقرب أشخاصًا منه لاصطفى منهم من يشاء، كما قرّب الملائكة واصطفاهم، وقرَّب الرسل واصطفاهم، ولكن هذا التقريب والاصطفاء لا يخرجهم عن كونهم مخلوقين مربوبين لله، وليسوا أنداداً له، ولذلك نزّه الله نفسه مما نسبه إليه الكفار من الصاحبة والولد والشبيه.

وقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾، **أي:** المُنفرد بالألوهية، فلا ثانيَ له، ولا إله غيره، والألوهية تقتضي انفراد الله بالقهر، وغير الله مقهور تحت أمره وسلطته، فثبتت عبودية المقهور لله وانتفت ألوهيته.

وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾، **بيان** لقدرتُه وعظمته وقوته واستحقاقه للألوهية، فهو الذي خلق السموات والأرض -وهي من أعظم الأجرام السماوية- بالحكمة البالغة الموافقة للحق، ومن أجل إقامة الحق، ولم يخلقهما باطلاً لغير شيء، ومن علامات قدرته وانفراده بالألوهية هذا التداخل بين الليل والنهار، والتكوير: طرح الشيء بعضه على بعض[1]، ومنه كوّر العِمامة، إذا لفّها على رأسه، **أي:**

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 516).

سخرهما يجريان متعاقبين لا يقران، فالليل والنهار يغشى، ويكر أحدهما على الآخر كروراً متتابعـًا، ويدخل أحدهما في الآخر، ولذلك يزيد الليل أحيانًا وينقص أحيانًا، ويزيد النهار أحيانًا وينقص أحيانًا، دون خلل، وهذا علامة على إتقان صنع الله في خلقه، وعظمته وقدرته.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾، **أي:** ذلّلهما وجعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب لمنافع العباد، تجريان في فلكهما إلى أن تنصرم الدنيا ويأتي يوم القيامة، **وأَلَا:** حرف تنبيه، **والعزيز** صاحب العزة والقوة، وفيه ردع وتخويف للكافر المخالف لأمره، **والغفار:** كثير المغفرة لذنوب عباده؛ فلا تيأسوا ولا تقنطوا من مغفرته مهما كثرت ذنوبكم.

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، **أي:** خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة، هي آدم(1)، حيث خلقه من تراب، ثم خلق من ضلعه زوجته حواء، ثم كان التزاوج بين آدم وحواء، فخلق الله منهما ومن نسلهما البشر.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، أنزل **أي:** خلق وأنشأ لكم، وجعل الخلق إنزالاً، لأن الخلق إنما يكون بأمرٍ ينزل من السماء(2)، **والثمانية الأزواج من الأنعام، هي:** الإبل والبقر والضأن والمعز ومن كل نوعٍ صنفان، هما: الذكر والأنثى.

---

(1) تفسير ابن كثير: (7/ 86).

(2) فتح القدير للشوكاني: (4/ 517).

وقولـه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾، هذا بيان لكيفية خلق الأجنة في بطون الأمهات، فالله يُقدر خلقكم تقديرًا محددًا في مراحل متتالية، النطفة، ثم العلقة، ثم المُضغة، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم يصير جنينًا مكتمل الخلقة، **والظلمات الثلاث هي: ظلمة** البَطن، **وظلمة** الرحم، **وظلمة** المشيمة[1]، والذي فعل هذا كله بكم هو الله الذي أوجدكم ورباكم، وهو المالك المتصرف فيكم، وهو من يستحق الألوهية وحده لا شريك له، وهذا من الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فكيف بعد هذا البرهان تبتعدون عن الإيمان به، وتنصرفون عنه؟!، وهو سؤال تعجبي من فعلهم المنافي للحجة والبرهان لو كانوا يعقلون.

ثم قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، **أي:** إن كفرتم بالله فلا تظنوا أنكم بكفركم تضرون الله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن إيمان الناس، فلا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين، **وفي الحديث:** "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا"[2]، وإنما ضرر ذلك على أنفسهم، وهو سبحانه لا يحب الكفر، ولا يقرّه بل نهى عنه وحرّمه، ولا يرضاه لأحد وإن وقع بإرادته، والشكر إيمان وطاعة وعبادة، ولذلك يحبه الله ويرضاه للخلق، وليس معنى ذلك أن يقع في الكون شيء بدون إذن الله، فإن الإرادة

---

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 9).

(2) صحيح مسلم: (4/ 1994)، برقم: (2577).

نوعان، الأولى: الإرادة الكونية التي لا تتخلف، فإذا أراد الله شيئًا كان، ولكن لا يلزم منها أن الله يُحب هذا الشيء الذي كان، مثل خلق إبليس، فقد أراد الله خلق إبليس، ولكنه لا يُحبه، ومثله الكفر، فالإرادة الكونية متعلقة بالوجود الكوني، ومرتبطة بإرادة الله سبحانه، فلا يوجد في الكون شيء إلا بإرادة الله، والثانية: الإرادة الشرعية، وهي التي يريدها الله من الخلق ويحبها، وهي مرتبطة بإرادة العبد، وهي المأمور بها شرعًا، وجاءت الرسل من أجلها، وأنزلت الكتب بالأمر بها، وقد تتحقق من العبد فيُؤجر، وقد لا تتحقق فيأثم، وقد تجتمع الإرادة الشرعية والكونية في شيء واحد، مثل إيمان المؤمن، فهما إرادتان، خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم من الفرق التي جعلت الإرادة نوعًا واحدًا، فحصل لهم تناقض وتعارض في فهم بعض النصوص بسبب ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، **وهذه قاعدة عامة في الإسلام:** أن المذنب يتحمل ذنبه، وأن المسيء يتحمل إساءته، وأنه لا أحد يحمل ذنب أحد إلا إن كان سببًا فيه، **كما في قوله:** ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾[النحل:25].

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾، فمردّ الجميع إلى الله، فيخبر الله كل إنسان بعمله الذي كان يعمله في الدنيا، ثم يُجازيه عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وقد أحاط علمُه بما في صدور الخلق من الوساوس والخواطر التي لم تظهر ولم يقولوها، فالله يعلم بها ويطلع عليها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - بطلان مذهب المشركين الذين يتوسلون إلى الله بالأشخاص، وجواز التوسل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعمل الصالح الذي يفعله العبد خالصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

2 - بيان رعايته سبحانه للمخلوق الجنين وهو في بطن أمه.

3 - أن الله غنيٌ عن إيمان الناس، فلا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.

4- أن المذنب يتحمل ذنبه، وأن المسيء يتحمل إساءته، وأنه لا أحد يحمل ذنب أحد إلا إن كان سببًا فيه.

5 - أن الإرادة نوعان؛ الإرادة الكونية: التي لا تتخلف، ولا يلزم أن الله يُحبها، والإرادة الشرعية: وهي التي يريدها الله من الخلق ويحبها، وقد تتخلف، وهي مرتبطة بإرادة العبد.

تفسير المقطع الثاني من سورة الزمر

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ
يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ
ٱلنَّارِ ٨ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ
يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
١٢ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا
شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ
ٱلۡمُبِينُ ١٥ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ
فَٱتَّقُونِ ١٦ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾، **هذا بيان** لما طُبع الإنسان عليه، وهو الهلع والجزع من الشر، إلا أن المؤمن يسعى في تهذيب نفسه من هذه الصفات السيئة، فتقلّ فيه،

وتبقى واضحة في غير المؤمنين، والسياق يؤكد أن هذا مثال ضربه الله لتقلب المشركين بين إشراكهم مع الله غيره في العبادة، وبين إظهار احتياجهم إليه، فإذا مسهم الضر وأصابتهم المصائب؛ لجأوا إليه وحده، **والتخويل**: الإعطاء والتمليك دون قصد عوض[1]، **أي**: وإذا منحهم الله النعمة ورفع عنهم الضراء؛ نسوا تضرعهم وإقبالهم على الله، وأعرضوا عن شكره وجعلوا له شركاء مساوين له يعبدونهم من دونه، فأضلوا أنفسهم بهذا الفعل، وانحرفوا عن طريق التوحيد والهداية، وكانوا سببًا في ضلال غيرهم من الخلق، فقل يا محمد لهذا الصنف من الناس: استمتع بكفرك بقية عمرك، وكلها أيام معدودة وتنتهي وتعود إلى الله يوم القيامة؛ فيُعاقبك بالخلود في النار وملازمتها وعدم الخروج منها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن الصالح، فإن من طريقة القرآن المقارنة بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر، فلما ذكر حال الكافر وإعراضه عن الله في الدنيا وعقوبته في الآخرة؛ بيّن هنا حال المؤمن المداوم على الطاعة والملازم لها، الذي يقضي أوقات الليل في سجود وركوع وقيام وخشوع، وقد دفعه إلى ذلك الخوف من وقوفه بين يدي الله في الآخرة، والرجاء في رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فجمع بين عبادتين عظيمتين من عبادات القلب وهي الخوف والرجاء، وهذه صفة للمؤمنين **كما قال**: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[السجدة:16]، **أي**: رغبةً ورهبة، فالمؤمن يعبد الله خوفًا ورجاءً، ويستحب له أن يُغلّب الخوف في وقت الصحة

(1) التحرير والتنوير: (23/ 343).

والعافية حتى يضبط نفسه فتستقيم له ولا تُصاب بالغرور والعُجب، فإذا ضعُفت أو مرضت أو حضرها الموت فيستحب له أن يُغلّب الرجاء، ويحسن الظن بالله، ويثني على نفسه بما فيها من خير سابق، حتى لا تصاب بالقنوط واليأس، **وفي الحديث**: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسن الظن بالله"(1)، **أي**: عند اقتراب أجله ونزول مقدمات الموت به، ففي هذا الوقت لا بد من تغليب الرجاء على الخوف، وتقديم حسن الظن بالله سبحانه.

وقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، قل يا محمد للناس: هل يستوي الذين يعلمون ما أوجب الله عليهم بسبب معرفتهم بالله، وأولئك الذين لا يعلمون شيئًا من ذلك؟ والمقصود بالعلم هنا هو العلم النافع الموصل إلى الله، فالذين يعلمونه ينطبق عليهم الوصف الأول، وهو القانت الساجد، والذين لا يعلمون ينطبق عليهم الوصف الثاني المحذوف، والذي يمكن تقديره من السياق، وهو المعرض البعيد عن الله وعن طاعته.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾، **أي**: إنما يتعظ بهذه الأمثلة والمواعظ أصحاب القلوب الحية والعقول السليمة.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾، أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لعباده المؤمنين: استزيدوا من تقوى الله سبحانه، وهي مرتبة عظيمة من مراتب الإيمان، وهي فعلُ القربات، وتشمل

(1) صحيح مسلم: (4/ 2205)، برقم: (2877).

فعل الواجبات والمستحبات، وترك المنكرات، وتشمل الحرام والمكروه، وأخبرهم أن المؤمن المتقي الذي أحسن الإيمان والعمل الصالح وأتقنه في الدنيا، يمنحه الله حسنة في الدنيا، وهي النصر والتمكين والعيشة الراضية، والسعادة والاطمئنان في الحياة الدنيا، فيعيش مُنشرح الصدر مرتاح البال، **كما قال:** ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾، [النحل:97]، وأما حسنة الآخرة فيدخله الجنة.

وقوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾، **أي:** في حالة تعذر على الإنسان إقامة دينه في بلد؛ فليتركه ويهاجر إلى بلد آخر يستطيع فيه أن يقيم دينه، فليس مطلوبًا من الإنسان أن يترك دينه من أجل أن يبقى في أرضه، فأرض الله واسعة، ولأن ترك الديار والأموال صعب على النفس ولا تصبر على ذلك؛ بشر الصابرين على مشاق الطاعة من احتمال البلاء ومهاجرة الأوطان بعطاء عظيم من الأجر والثواب لا يعد ولا يحسب، مما يدل على كثرته وأنه لا نهاية له.

ثم قال سبحانه لنبيه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾، قل يا محمد لكفار قريش الذين أكثروا عليك من الاقتراحات المخالفة للتوحيد: أنا مأمور أن أعبد الله عبادة خالصة من الشرك والرياء، والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وأمرت بما أمرت به لأجل أن أكون أول المسلمين من هذه الأمة، وقد كان أول من خالف دين آبائه، وهجر عبادة الأصنام.

وقولـــــــــه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾، وأبلغهـم أيـضًا بأنـك تخـاف مـن عـذاب الله العظـيم في الآخـرة لـو عصيت أمره، واتبعت أهواءهم، ووافقت على طلباتهم، فقد كان كفار قريش حريصين على أن يُشاركهم في دينهم الباطل، وأخبرهم بأنك تنفذ ما أمرك الله به من إخلاص العبادة له، وترك عبادة غيره.

وقولـــــه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، هـذا تهديـد، ووعيـد، ومفاصـلة لهـم، فـلا تطلبـوا مني أن أشـارككم في عبادة غير الله، بل إن أبيتم الإيمان فاعبدوا ما شئتم من الأصنام والأوثـان، فـأنتم الخاسرون بسبب ذلك، ثم أمره أن يخبرهم بمصير الخاسرين، الـذين خسروا أنفسهم بدخول النار، وخسران الأهل بأن يفرق بينه وبين أهله، فـلا التقـاء لهـم أبدًا، سواء ذهب أهلوهم إلى الجنة، وهم ذهبوا إلـى النـار، أو أن الجميع كـانوا من أهل النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور[1].

وقوله: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٥﴾، إشعار بأن هذا الخسران الذي حل بهم قد بلـغ مـن العِظـم غايتـه، وأنـه لا خسـران يـساويه، ولا عقوبة تدانيـه، وهـو خسران واضح لا لبس فيه، ثم وصف ما يجري لهم بعد دخولهم النار.

فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾، **ظُلل** جمع ظلة، **أي**: لهم من فوقهم أطباق من النار تلتهب عليهم، ومن تحتهم أطباق من النار، وسمي ما

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 90).

تحتهم ظللاً؛ لأنها تظل من تحتها من أهل النار[1]، أو لأنه يلتهب ويصعد من أسفلهم إلى فوقهم[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾، **أي:** ما سبق ذكره من عذاب أهل النار هو لتخويف عباد الله، من أجل أن ترتدع النفوس وتتوب إلى الله قبل يوم القيامة، والعبودية هنا تشمل عبودية المسلم والكافر؛ لأن الكافر عبدٌ لله كرهًا، والمؤمن عبدٌ لله طوعًا، والجميع يُسمون عبادًا لله، ثم أمرهم جميعًا باتقاء عذاب الله بالإيمان بالله والعمل الصالح، والبعد عن الكفر والشرك وسائر المنكرات.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن من طبيعة الإنسان الكافر؛ الهلع والجزع عند النقمة، ونسيان الله عند النعمة.

2- أن الخوف والرجاء صفتان من صفات أهل الإيمان، وأصلان من أصول العبادة الصحيحة.

3- أهمية الإخلاص في العبادة، وأن الله لا يقبل عملًا أشرك فيه العبد مع ربه غيره.

4- أن الكفر سبب للخسران المبين في الدنيا والآخرة، وأن الإيمان سببٌ

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 523).

(2) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1830).

للفوز والراحة والسعادة في الدنيا والآخرة.

5- أن الهدف من ذكر عذاب أهل النار، وإخبار الخلق به، هو تخويفهم به لعلهم أن يتقوه قبل أن يقعوا فيه.

تفسير المقطع الثالث من سورة الزمر

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾، بعد أن ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حال أهل النار من عباد الأوثان؛

ذكر حال المؤمنين الصادقين، وهم الذين أعرضوا عن عبادة غير الله، فالطاغوت اسم لكل ما عُبد من دون الله[1]، وهو مشتق من الطغيان، وهو تجاوز الحد، فإن حد المخلوق أن يكون عبدًا، فإذا جُعل إلهًا، فقد تجاوز حده، وابتعدوا عن طاعة كل ما يُعبد من دون الله، ورجعوا إلى الله وتابوا إليه من كل ذنبٍ أو معصية وقعوا فيها، فمن كان هذا حاله فله البشرى المطلقة من الله، وهي الخبر المُفرح، ثم أمر الله رسوله أن يبلغهم بهذه البشارة، وهي الثواب الجزيل، وهي الجنة التي فيها ما لا عين رأت وأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم وصف حال هؤلاء العباد بأنهم يُتقنون فن الاستماع، حيث يستمعون بإنصات لما يقال لهم، ويتدبرون المراد منه، ويميزون بين الحسن منه والقبيح، فيتبعون أحسن القول لما فيه من النفع، ويتركون القبيح منه لما فيه من الضرر، وهذا الانتقاء هو ثمرة للاستماع الحسن، والتأمل في كل قول تسمعه، فإن كان كله حَسَن؛ اختار الأحسن، وفيه إشارة إلى ترك الاستماع لكل قول سيء، كاللعن والسب والكلام القبيح، ومن توفرت فيه هذه الصفة فقد استحق الهداية من الله لأنه أخذ بأسبابها، ومن أسباب الهداية تدبر الكلام الحسن واختيار أفضله، ولذلك لما منع المشركون أنفسهم من سماع القرآن؛ حرموا الهداية إلى الإيمان، ومن استمع منهم إلى القرآن بإنصات وتدبر؛ قذف الله في قلبه الهداية، ومن اتصف بتلك الصفات فهو دليل على سلامة عقله، فإن العقول السليمة هي التي ينتفع بها أصحابها وتدلهم على الحق، **والمقصود بسلامة العقل**: السلامة

---

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1831).

الشرعية، فبعض الناس قد يكون ذكيـًا وعقله فطنٌ في الأمور الدنيوية، ولكنه بليد وغبي في الأمور الشرعية، فهذا لا يُوصف بأنه من أولي الألباب، فمثلاً: الطبيب الهندي المتمكن في تخصصه ويسجد لبقرة ويتبرّك بأبوالها، فهذا عقله غير راشد شرعًا، ولم ينتفع به الانتفاع الصحيح، وإن كان ذكيًا في الطب والهندسة وسائر العلوم الدنيوية، ولو كان من أولي العقول السليمة الراشدة؛ لهداه عقله -بعد توفيق الله له- إلى عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ١٩﴾، هذان سؤالان بدون جواب، والجواب مفهوم من السياق، وتقديره: لا تستطيع يا محمد أن تهديه في الدنيا، ولا تستطيع أن تنقذه من عذاب النار في الآخرة، والمعنى: أن من سبق في علم الله أنه لا يهتدي، فليس بقدرتك إدخال الهداية إلى قلبه مهما بذلت من جهد في دعوته وإقناعه، لكي تنقذه بهذه الهداية من النار في الآخرة، وقد كان النبي ﷺ حريصًا كل الحرص على إسلام عدد من كُبراء قريش، ومنهم عمه أبو طالب، ولكنه لم يستطع أن يُدخل الإيمان إلى قلوبهم فماتوا على الكفر، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بسبب إعراضهم عن دعوته.

وقوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ٢٠﴾، **لكن**: حرف استدراك يُفيد الإضراب عما سبق، وقد سبق ذكر حال أهل النار وأنهم في ظُللٍ من النار، فأضرب عن حالهم وانتقل لبيان حال أهل الجنة، وهم الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لهم غُرف، اللام للاختصاص، **وغُرف**: جمع غرفة، وهي البيت المبني على

بيت آخر[1]، **وفي الحديث:** "إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم"[2]، **أي:** إن منزلتهم في الجنة مرتفعة عن من تحتهم، مثل ارتفاع مكان النجوم في السماء عن الأرض، وبناء الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، كما جاء في الحديث[3]، وتجري من تحت هذه الغرف وبساتينها وأشجارها أنهار الجنة المتنوعة، وهذا العطاء لهم هو وعدٌ من الله لعباده، والله لا يُخلف وعده.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾، **الرؤية هنا** بصرية؛ لأن الناس كلهم يرون نزول المطر من السماء، فأدخله ونظمه ينابيع في الأرض على شكل عيون وأنهار من الجبال والأودية، أو يكون في جوف الأرض ويستخرج بواسطة الآلات، وهو ما يُسمى اليوم بالمياه الجوفية، فيُنبِت بهذا الماء أنواعًا مختلفة من الزروع والثمار، ثم بعد أن يكتمل نمو هذا الزرع ييبس فيتحول لونه من الاخضرار إلى الاصفرار وتذبُل أوراقه شيئًا فشيئًا، ثم يتحطم ويتساقط وتنتهي دورة حياته، إن في قصة إنزال المطر ونبات الزرع به واكتماله تذكرة وعِظة لكم أيها البشر، فحياتُكم تشبه حياة الزرع تمامًا، فقطرة المطر تُشبه قطر المني التي يُخلق منها الإنسان، والزرع ينمو

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 373).

(2) صحيح البخاري: (4/ 119)، برقم: (3256).

(3) مسند أحمد: (14/ 359)، برقم: (8747)، وإسناده صحيح.

صغيرًا ثم يكون كبيرًا ثم يحصد وينتهي، وهكذا حال حياة الإنسان يكون جنينًا ثم طفلًا ثم شابًا ثم شيبةً هرمًا ثم يموت وينتهي، والفرق بين المثالين أن الزرع لا يُؤاخذ ولا يبعث ولا يُحاسب، والإنسان يبعث ويُحاسب على أعماله؛ لأنه مُكلف، فهلّا اعتبرتم بذلك يا أصحاب العقول السليمة.

ثم قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾، هذه مقارنة بين حال من هداه الله للإيمان والإسلام وبين من لم يهتدِ إليه، فمن هداه الله للإسلام وشرح صدره لقبول الإيمان؛ حصلت له الراحة والاطمئنان، بسبب النور الذي منحه الله له، وهو نور الإيمان والهداية، فأذهب به القلق والاضطراب عن صاحبه، ورأى به طريق الحق فاتبعه وطريق الباطل فاجتنبه، بخلاف حال من لم يشرح الله صدره للإسلام، فقلبُه قاسٍ، وهو متوَعّد بالهلاك، وبسبب كثرة إعراضه عن ذكر الله وعدم قبوله؛ أصيب قلبه بالقسوة، فذكْر الله سبب في لين القلوب وإشراقها إذا كانت القلوب سليمة من مرض العناد والمكابرة والكبر، فإذا حلّ فيها هذا المرض، صارت إذا ذكر الله عندها أشد مرضًا مما كانت عليه[1]، فالإعراض عن ذكر الله سبب لقسوة القلوب، كما أن الإقبال على ذكر الله سبب للين القلوب، **وقيل**[2]: قاسية بمعنى خالية، والمعنى: فويلٌ للخالية قلوبُهم من ذكر الله، ومن كان هذا حاله فهو في ضلال واضح يعلمه كل مؤمن شرح الله صدره

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (23/ 382).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1834).

للإسلام، أما هم فلا يعرفون أنهم في ضلال، بل يظنون أنهم على هدى مستقيم، وهذا من تلبيس إبليس عليهم!

ثم قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾، ثم ذكر سبحانه بعض أوصاف كتابه العزيز وهو القرآن الكريم، ووصفه بأنه أحسن الحديث؛ لأنه كان يحدّث به قومه ويخبرهم بما ينزل عليه من القرآن، وهو كلام الله، ولا أحسن من كلام الله، وقد صار مكتوبًا مقروءًا من الناس، لأن النبي ﷺ كان يأمر كُتّاب الوحي بكتابة ما نزل عليه من الآيات والسور في الصحائف، وهذا الكتاب يُشبه بعضُه بعضًا في الأحكام والقصص والألفاظ والعبارات، ويشبه بعضه بعضًا في الحُسن والإحكام وصحة المعاني وقوة المباني، وهذا الكتاب تُثنى فيه القصص وتتكرر فيه المواعظ والأحكام، وتُثنى فيه التلاوة، فلا يملّ سامعه ولا يسأم قارئه، وتُثنى فيه الأخبار المتقابلة، فإذا ذكر أهل الجنة ثنّى بذكر أهل النار، وإذا ذكر المؤمنين ثنّى بذكر الكفار، **والقشعريرة:** حالة تعتري جلد الإنسان إذا تقبض وتجمع من الخوف[1]، وهي علامة على الحياة والتأثر بما سمع، **والخشية** هي الخوف مع التعظيم، فقلوب المؤمنين وجلودهم لها **حالتان** عند سماع القرآن الكريم ومواعظه، **الأولى:** الانقباض والفزع عند آيات الخوف، **والثانية:** اللين والفرح عند آيات الرجاء، فهم يتعبدون لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بعبادة

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 527).

الخوف والرجاء، فإذا خُوّفوا بآيات العذاب اقشعرت جلودهم وانقبضت، فإذا ذُكرت عليهم آيات الرجاء والرحمة استبشرت ورجت الخير من الله، وارتاحت واطمأنت، وذكْر الله هنا هو القرآن الكريم، وكل ما يُقرب العبد من الله من المواعظ والنصائح، واسم الإشارة يعود إلى ما وهبه الله لهؤلاء من خشية عذابه، ورجاء ثوابه، هو من هداية الله لهم، فالله يمنح هداية التوفيق من يشاء من عباده، ولكن على العبد أن يأخذ بأسبابها، ومنه التعرض لها وطلبها من الله، **كما في الحديث:** "يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم"[1]، ومن يقع عليه الضلال بسبب انحرافه وزيغه، فلا يملك أحد أن يُدخل هداية التوفيق إلى قلبه، لأنه لا يملكها إلا الله.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾، ثم ذكر حال الكافر في الآخرة على سبيل المقارنة بين حاله وحال من هداه الله في الدنيا لقبول ذكر الله وأدخله الله الجنة في الآخرة، فهل يستوي هو ومن كفر فمات على كفره، فأدخله الله النار يوم القيامة، وليس له وقاية من عذاب النار إلا وجهه؟ **وذكر الوجه هنا** لأنه أشرف الأعضاء، أو لأن يديه مغلولة فاتقى العذاب بوجهه، وتقول الملائكة لهم ولأمثالهم الذين ماتوا على الكفر على سبيل التوبيخ والتبكيت: ذوقوا العذاب الأليم جزاء عملكم السيء الذي عملتموه في الدنيا.

---

(1) صحيح مسلم: (4/ 1994)، برقم: (2577).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن هداية التوفيق ليست بيد أحد من الخلق، وإنما هي بيد الله سبحانه، فيجب طلبها منه.

2- من صفات أهل الإيمان والتقوى حسن الاستماع للقرآن والذكر والكلام الحسن.

3- أن عباد الله المؤمنين يتعبدون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعبادة الخوف والرجاء.

4- أن التكذيب بالرسل وبما جاءت به الرسل سبب من أسباب نزول العذاب في الدنيا والآخرة.

تفسير المقطع الرابع من سورة الزمر

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ
ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي
هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾
ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ
لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ
تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ
أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ
ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾، أخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن حال المكذبين من الأمم السابقة، فكان عاقبتُهم الهلاك، وجاءهم العذاب الدنيوي فجأة وهم غافلون آمنون فلم يستعدوا له، وجاءهم من وجهٍ لم يكونوا يتوقعونه، وأخزاهم الله بالذل والصغار والهوان، فجمع لهم بين

العذاب الحسي والعذاب المعنوي في الدنيا، وما أصابهم من عذاب الدنيا لا يعفيهم من عذاب الآخرة، بل عذاب الآخرة أشد وأعظم، ولو كانوا يعلمون أن هذا مصيرهم في الدنيا والآخرة؛ لما كفروا وكذبوا الرسل، والمقصود من كل ذلك التخويف والترهيب، وبيان أن عواقب الجهل وخيمة وخاصة الجهل بدين الله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فقد أكثر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا القرآن من ضرب الأمثال، وهي وسيلة من وسائل تقريب المعلومات إلى الناس، **فالمَثَلُ** هو تقريب المعنى البعيد بذكر معنى قريب يُشابهه، **حتى قيل:** بالمثال يتضح المقال، وأمثال القرآن متنوعة بحسب حال المستمع ونوع القضايا، وأمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، والحكمة من ضرب الأمثلة هي أن يتّعظوا بها فيقبلوا الحق ويتركوا الباطل، وجعلناه قرآنًا عربيًا، **أي:** بلسان عربي، واضح الألفاظ، سهل المعاني، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، بل هو محكم في اللفظ والمعنى، فلا لبس فيه ولا غموض ولا تناقض، ولا اعوجاج في أحكامه، بل كلها يسر واعتدال وليس فيها مشقة، والحكمة من ذلك تحقيق العباد لتقوى الله، فالاستقامة عليه سبيل للتقوى، وقدّم ذكر التذكرة على التقوى لأنها سبب لها.

ثم قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾، هذه أحد أنواع الأمثلة التي ضُربت في القرآن، والتعبير بالفعل الماضي يدل على أنه قد تم، وهو مثال ضربه

الله لبيان حال الموحد وحال المشرك، فالمشرك حاله كحال العبد الذي يملكه عدة شركاء، بينهم تنازع واختلاف شديد، وكل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه في حوائجهم، وهو متحيّر في أمره، لا يعرف من يطيع منهم، والموحّد حاله كحال العبد الذي يملكه شخص واحد لا ينازعه فيه أحد، وانظر الفرق بين كلمة سَلَم ومتشاكسون، فسَلَم: تشير إلى سلامة أخلاق صاحب هذا العبد، وحسن تصرفاته معه، **ومتشاكسون:** تشير إلى سوء أخلاق وتصرفات الشركاء مع ذلك العبد المسكين، وهكذا حال المشرك الذي يعبد عِدة آلهة، يعيش في تعاسة، بخلاف حال الموحّد الذي يعبد الله وحده، **فهل يستويان في عيشهما وراحتهما؟! الجواب:** لا، فثبت الحق وزهق الباطل، والحمد لله وحده المنفرد باستحقاق الألوهية، وإن كان أكثر الخلق لا يعلمون الفرق بين حال الموحّد وحال المشرك في الدنيا والآخرة، ولو علموا لسارعوا إلى الإيمان والتوحيد وترك الشرك.

ثم قال الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، هذا الخطاب لرسول الله ﷺ، ولقومه من كفار قريش الذين كذبوا وكفروا بما جاء به، وكانوا ينتظرون موته، وهو ينتظر هلاكهم، **والمعنى:** ستنقلون من هذه الدار لا محالة بالموت، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصمون فيما كنتم عليه في الدنيا مختلفين من التوحيد والشرك بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فيفصل بينكم يوم القيامة بالحق وهو خير الفاصلين، وهذا التخاصم يشمل كل المتنازعين المختلفين في الدنيا الذين لم تنتهِ مظلمتُهم فيها،

فإنها تنتقل معهم إلى الآخرة، ويفصل بينهم فيها الحكم العدل سبحانه، ولذلك يُستَحب للمسلمين أن يُنهوا خصومتهم مع إخوانهم المسلمين في الدنيا، فهو أسهل لهم وأفضل من تأجيلها إلى بين يدي الله سبحانه، فخصومة الدنيا تنتهي بالمال والكلمة الطيبة والاعتذار، وخصومة الآخرة فيها انتظار كبير في يوم شديدة أهواله، وتقضي على الحسنات، وتزيد بالسيئات ونهايتها النار -والعياذ بالله-، وأن يبقوا خصومتهم مع الكفار إلى يوم القيامة، ليحكم الله لهم ويثيبهم عليها، وهو خير الحاكمين.

قال الله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾، لا أحد أشد ظلمًا ممن اتصف بصفتين قبيحتين: الكذب على الله، والتكذيب بما جاء من عند الله، فرفض قبول الحق، وقال الباطل ودعا إليه، **والمقصود بالصدق هنا** ما جاء به محمد ﷺ من الهدى والدين، فرفض المشركون تصديقه، وقالوا عنه كلامًا باطلًا، ويشمل هذا الحكم كل من اتصف بهاتين الصفتين ممن جاء بعدهم فكذَّب بالحق وقال الباطل، والسؤال تقريري يفيد التهديد والوعيد، **أي:** ألا يستحق من فعل ذلك أن يكون مصيره ومستقرّه ومسكنه في جهنم؟، الجواب: بلى.

ثم قال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾، ولما ذكر الله الكاذب المكذِّب، ذكر الصادق المُصَدِّق، وهذه من طرائق القرآن في البيان والمقارنة بين الشيء ونقيضة، والذي جاء بالصدق هم الأنبياء ومنهم نبينا محمد ﷺ، والذي صدّق

به المؤمنون بهم ومنهم أوائل أصحاب رسول الله ﷺ، ومن جاء بعدهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فمن اتصف بذلك فهم الذين اتقوا عذاب الله بالإيمان والعمل الصالح، ولهم عند ربهم في الجنة ما يتمنون ويشتهون من النعيم المقيم، وذلك الثواب والجزاء لهم كان بسبب إحسانهم في عبادة ربهم في الدنيا.

وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾، **اللام** للتعليل، **أي**: ما وعدهم بذلك الجزاء إلا لأنه أراد أن يمحوا عنهم السيئات التي عملوها في الدنيا، بتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم، وهذا يدل على أن الإنسان غير معصوم، ولو كان من المتقين المحسنين، فقد تقع منهم بعض الذنوب، فيتوبون منهم ويغفرها الله لهم، ويُثيبُهم على أعمالهم الطيبة الحسنة في الدنيا بأكثر مما يستحقون، فإن الله يُضاعف لهم الحسنات أضعافاً كثيرة، ويكافئهم على الأعمال الصالحة القليلة بأجور وحسنات عظيمة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب الإقناع، وعلى الداعية أن يستخدمه في دعوته.

2- أن الخصومة العامة يوم القيامة ستكون بين أهل الإيمان وأهل الكفر، والخصومة الخاصة بين المؤمنين الذين ماتوا ولم يتسامحوا.

3- لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب، وكذب بالحق الذي جاءت به الرسل.

4- أن الإنسان غير معصوم، ولو كان من المتقين المحسنين، فقد تقع منهم بعض الذنوب، فيتوبون منهم ويغفرها الله لهم.

تفسير المقطع الخامس من سورة الزمر

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى
ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا
تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ
هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾
ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ
عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ
ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾، هذا استفهام استنكاري؛ لأن المشركين خوّفوا النبي ﷺ

بأصنامهم وأوثانهم، وأنها ستؤذيه إن تعرّض لها بسوء، فأخبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هذه الأصنام لا تفعل شيئًا، وأن الله يكفيك شرها وشر غيرها، والخطاب لرسول الله ﷺ، ويصلح لكل مؤمن صادق في إيمانه بعده، وقد كان من عادة المشركين واعتقادهم أن الأصنام تنفع وتضر، وما زال هذا الاعتقاد عند بعض العوام من المسلمين اليوم ببعض القباب والأضرحة التي يطوفون حولها ويدعونها من دون الله، فلو نهيتهم عن ذلك وأردت هدم تلك القبة لخوّفوك بالولي الذي هو مدفون فيها، وهو ميّت لا يضر ولا ينفع، ثم أخبر أن الله بيده الهداية والضلال، فمن حرمه الله هداية التوفيق، فلن يستطيع أن يمنحها له أحد، ومن منحه الله هداية التوفيق، فلن يستطيع أن يحرمه منها أحد، ومن كفر بالله وانحرف عن شرعه؛ فقد أغضب الله، ومن أغضب الله انتقم الله منه وعاقبه بما يستحق، وله العزة المطلقة التي يقهر بها كل شيء، ويكفي بها عباده ويدافع عنهم، وينتقم بها ممن كفر به وآذى عباده الصالحين.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾،

ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين الذين يخوّفونك بالذين من دونه، من هو الخالق للسموات والأرض، لقالوا: إن الخالق لها هو الله، فقل لهم: فلماذا تركتم عبادته واتخذتم غيره آلهةً تعبدونها وتدعونها من دون الله،فمن الذي بيده الضُر والنفع، الأصنام أم الله؟! ومن الذي يكشف الضر إن نزل بالعبد ويمنع

الخير عنه لو أراد؟ فسيقولون الله، أما الأصنام والأوثان فهي عاجزة عن ذلك كله، فليس بيدها المنع وليس بيدها العطاء، فقل لهم يا محمد: يكفيني الله في هذا كله، فهو الذي يُعطي، وهو الذي يمنع، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي يمنح الخير، وهو الكافي لخلقه جميعًا، ويجب أن يتوكل عليه المؤمنون المتوكلون في جلب مصالحهم ودفع ما يضرهم، والتوكل هو الاعتماد على الله وتفويض الأمور إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾، قل يا محمد لهؤلاء المشركين، اعملوا على طريقتكم وحالكم، واستمروا على كفركم وتكذيبكم بي، إني عامل بديني ومستمر في دعوتي لكم، وسوف تعلمون نتيجة عملكم ونتيجة عملي، وهو أسلوب يفيد التهديد والوعيد لهم، وليس إقرارًا لهم على الشرك والكفر، بل تحذيراً لهم من الاستمرار فيه، لأنه ربط بقاءهم على الكفر بنزول العذاب المخزي لهم في الدنيا، كما أخزاهم الله يوم بدر، وعلمت العرب والعجم بهزيمتهم، والعذاب المقيم هو عذاب الآخرة، وهو عذاب الخلود في النار الملازم لهم، الذي لا ينفك عنهم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، ثم أخبر الله رسوله أنه مكلّف بالبلاغ للناس وليس عليه هداهم، فقد أنزل الله عليه القرآن ملابسًا للحق ومقرونًا به لا ينفك عنه؛ ليدل الناس على الهدى ويرشدهم إليه،

ويحذرهم من الضلال، فمن اهتدى به وقبله؛ فنفْعه وثمرة الهداية تعود إليه، ومن ضل، فضرر ضلاله وثمرة الغواية تعود إليه، ولست مأموراً بأن تجبرهم على الإيمان وتحملهم عليه، فالقبول به وعدمه مفوض إليهم، وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ، بسبب إصرار بعضهم على الكفر.

وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾، ذكر الله أنه يتوفى الأنفس عند الموت، وعند النوم إلا أنه يمسك الأنفس التي قضى عليها الموت ولا يردها إلى البدن، فهذه هي الوفاة الكبرى، ويرد النائمة إلى البدن عند اليقظة وتبقى على هذه الحال إلى وقت حدده الله لموتها، وهذه هي الوفاة الصغرى، حيث يقبض الله الروحَ قبضةً صُغرى، فالنائم يُشبه الحي من جهة، ويُشبه الميت من جهة، فيُشبه الميت من حيث إن النائم لا يدري ماذا يحدث حوله؟ ويُشبه الحي من حيث إنه يتنفس وروحه في جسده، ثم عند الاستيقاظ تعود إليه حياته الكاملة، أما في حالة الوفاة الكُبرى فتُنتزع الروح كاملة من الجسد، فالموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام كامل، والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه[1]، **ولذا يشرع** لمن أراد أن ينام أن يدعو بقوله: "باسمك اللهم أموت وأحيا"[2]، **وبقوله:** "اللهم إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك

(1) ينظر: تفسير الرازي: (26/ 456).

(2) صحيح البخاري: (8/ 69)، برقم: (6312)

الصالحين"[1]، واسم الإشارة يعود على ما يجري لنفس الإنسان من الإمساك والوفاة والإرسال، ففيها موعظة للمتعظين وتذكرة للمتذكرين، وهي علامات وبراهين على قدرة الله سبحانه، لمن تأمل وتفكر فيها، وهي أدلة عملية على إثبات البعث والنشور الذي كان يُجادل فيه كفار قريش، فلفت انتباههم إلى نومهم ويقظتهم، وهو نموذج أصغر للموت والبعث، فمن قدر على ذلك فهو قادر على البعث والنشور يوم القيامة.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حفظ رسوله ﷺ حتى يُبلغ الرسالة.

2- أن المشركين كانوا يعترفون أن الله هو الخالق، ولكنهم عبدوا غيره، فاستحقوا بذلك النار.

3- أن من اهتدى؛ فثمرة الهداية ونفعها يعود إليه، ومن ضل فضرر ضلاله وثمرة الغواية تعود إليه.

4- أن في النوم والاستيقاظ آية ينتفع بها من تفكر فيها.

---

(1) صحيح البخاري: (8/ 70)، برقم: (6320).

تفسير المقطع السادس من سورة الزمر

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا
يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ
وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ
عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ
لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ
أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ
أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ
سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ
شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ

﴿تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾، **أم هي المنقطعة التي بمعنى**: بل، **أي**: اتخذ المشركون من دون الله من الأصنام والأوثان آلهة تشفع لهم عند الله، فقل لهم يا محمد: أتتخذونهم شفعاء يشفعون لكم وهم لا يملكون لكم شيئًا من حوائجكم، ولا عقل لهم يفهمون أنكم تعبدونهم؟! فالأحجار والأوثان لا تسمع، ولا تُبصر، ولا تعقل، ولا تقدر على شيء، ولا تملك من أمرها شيئًا، وقل لهم يا محمد: إن الله وحده لا شريك له هو الذي يملك الشفاعة، وهو مصدرها، فلا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه، ولا يقبل الشفاعة إلا لمن رضي عنه، وفي الآية إشارة إلى أن شفاعة العبد لغيره مرتبط نفعها بتوفيق الله تعالى وإذنه، فقد تشفع لغيرك في شيء تقدر عليه وقد ينفع الله بشفاعتك، وقد لا ينفع بها، فالأمر يعود إلى الله أولًا وآخِرًا، وهو المالك المُتصرف في السموات والأرض ومن فيهن؛ فلتطلب الشفاعة منه، وليكن القلبُ معلقًا بالله، فهو الذي بيده النفع والضر، والخلق كلهم راجعون إلى الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم، فيُثيب المحسن ويُجازي المسيء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾، هذه الآية تتحدث عن واقع المشركين الذين زعموا أنهم يعبدون هذه الأصنام حتى تقربهم إلى الله، ثم إذا ذُكر الله وحده، وسمعوا قول: (لا إله إلا الله)؛ انقبضت ونفرت قلوبهم عن التوحيد، واستكبرت وكفرت بالله، وظهر الغيض والقترة على وجوههم، والاشمئزاز: أن يمتلئ قلبه غمًا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في بشرة وجهه[1]،

(1) ينظر: تفسير الزمخشري: (4/ 132).

وإذا ذكرت الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها؛ فرحوا وظهر السرور على وجوههم، والاستبشار أن يمتلئ قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل، وهذا يدل على كفرهم بالله، وأن قلوبهم قد أُشرِبت حب الشرك، فلم يعودوا يفرحوا بالتوحيد ولا بذكر الله وحده سبحانه.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٤٦﴾، ولما كان حال المشركين هو كثرة الجدال وذكر الشبه الباطلة التي لا تنتهي؛ أمر الله رسوله أن يدعوه بأسمائه الحسنى، فهو خالق السموات والأرض وأوجدهما من دون مثال سابق، وهو مدبرهما، وهو عالم ما غاب عن الخلق وما ظهر لهم، فوصف نفسه بكمال القدرة وكمال العلم، ومن كان هذا شأنه فهو القادر وحده دون سواه على الفصل بين خلقه المؤمنين والكافرين يوم القيامة في كل ما كانوا فيه مختلفين في الدنيا من الحق والباطل والتوحيد والشرك وسائر الأمور، فيثيب المحق ويعاقب المبطل.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾، أخبر الله عن مصير الفريق المبطل بعد حكم الله بين عباده يوم القيامة، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، وأنهم من أهل النار المستحقين لسوء عذابها الشديد؛ فيتمنوا أن لا يدخلوها ولو طُلب منهم مقابل ذلك ما في الأرض جميعًا، فيشمل كل عزيز

عليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم من الذهب والفضة وسائر الأموال ومثله معه، ليدفعوه فداءً لأنفسهم من سوء العذاب الذي شاهدوه يوم القيامة وقد أعد لهم، وهو افتراض تعجيزي لهم يدل على حرص الكافر على التخلص من العذاب في الآخرة ولو بأغلى ثمن، وقد كان بإمكانه اتقاؤه في الدنيا بالإيمان بالله وترك الكفر، ولو فُرِض أنهم حصلوا على هذه الفدية لم يُقْبل منهم، **كما قال:** ﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾[المائدة:36]، **وفي الحديث:** "يجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبًا أكنت مفتديًا به؟، فيقول: نعم يا رب، قال: فيقال له: لقد سئلت أيسر من ذلك"(1)، وهو الإيمان بالله ورسله، وظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب الذي أعد الله لهم ما لم يكونوا يتوقعونه وكانوا في غفلة عنه في الدنيا، وهو كناية عن تعظيم العذاب الذي يصيبهم وتنوعه، وظهر لهم جزاء وعقوبة سيئاتهم التي عملوها في الدنيا، ونزل بهم العذاب الذي كانوا يستهزئون بذكره لهم في الدنيا، وأحاط بهم من جميع الجهات، فقد كانوا ينكرون البعث والجنة والنار، ويستهزؤون بالرسل ومن يحذرهم من عذاب الله في الآخرة.

ثم قال الله سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾، أخبر الله عن طبيعة الإنسان

(1) صحيح البخاري: (8/ 112)، برقم: (6538).

الكافر أنه إذا نزل به ضُر من مرض أو فقر أو مصيبة، أقبل على الله يدعوه ويتضرع إليه بكشف ما نزل به، فإذا استجاب الله له ورفع عنه الضر وأنعم عليه بالنعم على سبيل التفضل عليه، نسب تلك النعم إلى نفسه وأنه حصل عليها بعلمه هو وذكائه وفطنته، أو أن الله أعطاه تلك النعمة لعلمه أنه يستحقها، فهو يزعم أنه كريم على الله، فرد الله عليه هذا القول الباطل، وأثبت أن العطاء والمنع من الله للعبد اختبار وابتلاء له لينظر كيف يتعامل معه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، فيحصل منهم مثل هذه الأقوال الباطلة التي سبق أن قالها الكفار الذين كانوا قبلهم، فهم لا يقرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقًا عليهم، كما صرّح بذلك قارون في قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[القصص:78]، فما أغنى عنهم ذلك الاعتقاد الباطل والقول الفاسد الذي اكتسبوه من عذاب الله شيئًا، بل أصابهم جزاء هذه السيئات التي فعلوها في الدنيا، بعقوبتهم في الدنيا، وسينالون عقوبتها في الآخرة، وليس هذا الحكم خاصًا بمن سبق، بل هو قاعدة عامة وسنة مُطّردة في كل من كفر وظلم واكتسب السيئات من السابقين ومن أتى بعدهم من كفار قريش وغيرهم، فلن يستطيعوا أن يفلتوا من عذاب الله، ولن يُعجِزوا الله في عذابهم، فإن الله لا يُعجزه شيءٌ في الأرض وفي السماء.

ثم قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾، هذا جواب على من ادعى أن حصوله على النعمة كان بسبب استحقاقه لها، فهؤلاء الذين يدّعون أن الله رزقهم بحذاقتهم أو لأنهم مستحقون للرزق دون غيرهم يجهلون أن إعطاء الله تعالى الناس

الأرزاق ليس بناءً على أنهم محبوبون أو مبغوضون عند الله، بل إن الأرزاق في الدنيا أقدار يبسُطها الله لمن يشاء من الخلق ولو كانوا كفارًا، ويضيّقها الله على من يشاء ولو كانوا مؤمنين؛ لأنها ابتلاء واختبار، **وفي الحديث:** "ولو كانت الدنيا تُساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء"[1]، فليس العطاء دليل على الحب، ولا المنع دليل على البغض، وذلك اسم الإشارة يعود على البسط في الرزق والتضييق فيه، واختلاف حال الناس فيه، ففي ذلك براهين وحجج على أن الله هو المتصرف في الكون، وهو الذي يمنح من يشاء، ويحرم من يشاء، وهو المدبِّر لأمور الكون وحده سبحانه، ويستفيد من هذه البراهين والحجج القوم المؤمنون، فيزيدهم ذلك إيمانًا وتصديقًا بربهم سبحانه، أما الكافر والمعاند فلا تنفعه البراهين والحجج ولا يتّعظ بها.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الله وحده هو الذي يملك الشفاعة، وهو مصدرها، وأن شفاعة العبد لغيره مرتبط نفعها بتوفيق الله تعالى وإذنه.

2- أن نفور قلوب المشركين من ذكر الله وحده دليل على فسادها.

3- أن الإيمان بالله في الدنيا، يعادل ضعف ملءِ الأرض ذهبًا في الآخرة.

4- أن عقوبة الله سنة مُطّردة في كل من كفر وظلم واكتسب السيئات من

(1) سنن الترمذي: (4/ 138)، برقم: (2320)، وسنن ابن ماجة: (2/ 1376)، برقم: (4110)، وإسناده صحيح.

السابقين ومن أتى بعدهم.

5- أن ما يمنحه الله من النعم للناس ابتلاء واختبار لهم، فليس العطاء دليل على الحب، ولا المنع دليل على البغض.

تفسير المقطع السابع من سورة الزمر

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ
ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ
عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ
مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾، أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لكل مسرفٍ على نفسه بالكفر والشرك وسائر الذنوب والمعاصي ألا يقنط من رحمة الله، والقنوط هو شدة اليأس، ورحمة الله تعالى وسعت كل شيء، ولكن نحن

من يبتعد عنها، أما من اقترب منها وأخذ بأسبابها فإنه لا يُحرَم منها، والله يغفر جميع الذنوب من شرك وكفر ونفاق وكبائر وسائر المعاصي، وإنما خص المُسرفين بالذكر؛ لأن المسرف هو الذي تجاوز الحد في الذنوب وأكثر على نفسه منها، فظنوا أن الله قد أغلق عنهم باب التوبة، **وفي الحديث**: "أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾[الفرقان: 68]، ونزلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾[الزمر: 53]"[(1)]، فخاطبهم الله ترغيباً لهم بالعودة إليه، وهذه الآية أعظم آيات الرجاء في القرآن؛ لأنها فتحت الباب على مصراعيه لكل مذنب ومسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي والمنكرات إذا أرد أن يتوب منها فالباب مفتوح، ومن أسمائه الحسنى أنه غفور يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه، ورحيم يرحم العباد، ومن آثار رحمته أن فتح لهم باب التوبة وقبل منهم العودة إليه، وهذا الخطاب يشمل المشركين والمؤمنين، فالمشركون إنابتهم إلى التوحيد واتباع دين الإسلام، والمؤمنون بالتوبة من المعاصي والإكثار من الحسنات.

وقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ

(1) صحيح البخاري: (6/ 125)، برقم: (4810).

ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾، ثم أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتخاذ الوسائل التي تُحقق التوبة، والإنابة معناها الرجوع إلى الله مع ندم وشعور بالذنب، والتوبة من كل ذنبٍ تكون بحسبه، فالكافر يتوب من الكفر بالإسلام، والعاصي يتوب من الذنب بتركه، والمنافق يتوب بترك النفاق، والمُنيب هو كثير الإنابة والرجوع إلى الله ولو لم يعمل المعاصي، والرب هو الذي رباكم وأوجدكم ومنحكم النعمة الكثيرة، فاستسلموا لأمر الله واخضعوا له؛ لأن الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا لغيره، فقد حدّد لكم وقتًا للتوبة، فلا تتأخروا عنها حتى ينزل بكم عذاب الله، وحينئذ لا تنجون منه، سواء كان عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فكلاهما يأتيهم بغتة، وأمرهم بأن يتبعوا أكمَل ما أُنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الكريم وأحكامه، فإنه أكمل الكتب وأتمها وأعظمها، وبه خُتمت الرسالات، وأن يكون هذا الاتباع في وقت الإمهال ولا يتأخرون عنه؛ حتى لا ينزل بهم العذاب وهم على كفرهم وإعراضهم، فطلب منهم أمرين، الأول: الإنابة والعودة والرجوع إلى الله، والثاني: تبديل العمل السيء بعمل صالح، فلا فائدة من التوبة بدون عمل صالح، فهما شرطان متلازمان، كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[الفرقان:70]، ولا بد من المسارعة إلى التوبة قبل انقضاء وقتها.

وقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وأخبر أن كل من تأخر

عن التوبة حتى نزل به العذاب، فسيندم ويتسحر على نفسه، ونكَّر لفظ نفس؛ لتعم كل النفوس التي لم تتب ولم تستعد للقاء الله، **والمعنى:** لئلا تقول نفس يا حسرتا، الألف عوض عن ياء المتكلم، **أي:** يا حسرتي، واستخدم أسلوب الاستعارة المكنية فجعل الحسرة شخصًا ينادَيه ليحضر، فهذه الندامة المصرّح بها زائدة على التي أسرّها في نفسه، حيث أخرجها من مجرد الحسرة النفسية الداخلية إلى النطق بها وإعلام من حوله أنه مُتحسر على ما ضيّع من دين الله وشرعه وأمره ونهيه، وأنه متندم على استهزائه وسخريته بالصالحين في الدنيا، **فقد جمع فيها بين سوأتين:** **سَوءة** المعصية، **وسوءة** قلة الأدب، وهذا حال بعض الكفار والعصاة اليوم، يكفرون بالله ويؤذون عباد الله، وأخبر بأن نفس الكافر يوم القيامة تحتج بالقدر على كفرها، **وتقول:** لو أن الله أرشدني إلى دينه لكنت ممن يتقي الشرك والمعاصي، **وهذا من جملة ما يحتج به المشركون** من الحجج الزائفة بقصد الاعتذار والتنصل، وهذا الاحتجاج باطل ولا يجوز؛ لأن ترك الإيمان يقع باختيار العبد، وفعل المعاصي يقع باختيار العبد، ومن أعجب القَصص أن بعض أصحاب هذا المذهب كان يحتج بالقدر على فعل المعاصي، وكان الوُلاة آنذاك يعقدون المناظرات بين المختلفين، فحضر هذا الذي يقول بالجبر، وحضر شخص من أهل السنة للنقاش بين يدي الوالي، فتناقشوا في هذه المسألة، فلم يصلوا إلى نتيجة، فأخذ السني نعله وضرب الرجل في وجهه، فقال: لماذا ضربتني؟ قال: قدّر الله عليّ أن أضربَك، فسكت ولم يقدر على الجواب، فقال الوالي: يكفيك هذا، وعُد عن هذا المذهب، وهذا الذي يحتج

بالقدر على المعصية لا يحتج به في أمور الدنيا، بل يأخذ بالأسباب ليصل إلى ما يريد، فهو يبحث عن العلاج إذا مرض، ويبحث عن الرزق، ويهرب من أسباب الهلاك، ويبحث عن أسباب النجاة، فلماذا لا يفعل ذلك في البحث عن الإيمان والهداية إلى الصراط المستقيم؟!، بل أعرض وتولى عنها، **وقيل**: إن (لو) في هذا الموضع للتمني، **أي**: ليت أن الله هداني فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب وأستحق الثواب، وليست (لو) هنا شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل كل حجة باطلة[1]، أو تقول هذه النفس الكافرة عند رؤيتها عذاب جهنم في الآخرة، لو يعطيني الله فرصة أرجع فيها إلى الدنيا فأسلم وأقوم بالعمل على أكمل وجهٍ وأحسنه.

وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾، هذا جواب لما سبق من تمني النفس الكافرة العودة إلى الدنيا للإيمان والعمل الصالح، فكذب في هذا التمني، فليس الأمر كما زعم صاحبه، فقد كان في الدنيا وكان بإمكانه أن يؤمن بالله ورسله وما جاءوا به من الحجج والبراهين الدالة على صدقهم، ويقبل بها، ولكنه رفضها وأعرض عنها وبالغ في التكبر عن قبولها وكان من الجاحدين لها، فسؤال الرد إلى الدنيا مرفوض لأنه نوع من العبث.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 728).

﴿جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، وفي يوم القيامة ترى يا محمد الذين كذبوا على الله بأن له شركاء وصاحبة وولداً وجوههم مسودة لما أحاط بهم من العذاب، وشاهدوه من غضب الله ونقمته، وهو سواد حقيقي، وهو علامة على الخزي والندامة **كما قال**: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[عبس:40-41]، وهذا يشمل جميع المشركين الذين عبدوا عيسى، وعبدوا عُزيرًا، وعبدوا الأصنام، وعبدوا الكواكب، فكل هؤلاء كذبوا على الله وعبدوا غيره، أليس في جهنم مكانٌ يستقر فيه المتكبرون عن الإيمان بالله ورسله؟! **الجواب**: بلى، فبسبب تكبرهم عن عبادة الله في الدنيا؛ سوّد الله وجههم، وبعثهم محتقرين، وجعل مقرهم جهنم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾، وفي يوم القيامة ينجّي الله الذين اتقوا -وهم من بلغوا درجة التقوى- من العذاب بسبب ما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله(1)، وبسبب أعمالهم الصالحة، **وقيل**(2): بنجاتهم من النار، وفوزهم بالجنة، **كما قال**: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾﴾[النبأ:31-32]، **ففسّر المفاز** بدخول الجنة التي فيها الحدائق والعنب، ولا تعارض بين المعنيين، فالأول سببٌ للثاني، ويسلّمهم الله من أن يصيبهم المكروه في القبر وفي المحشر، ولا يمسهم عذاب النار الذي يسوؤهم، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا؛ لأن الله قد عوضهم ما

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 111).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 541).

هو أعظم منها، ولا يصيبهم الفزع في الآخرة، بل لهم الأمن التام حتى يصلوا إلى دار السلام.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 – سعة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنها تسع المشركين والكفار والمنافقين إذا تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه.

2 – أن الندم توبة، بشرط أن يكون في وقته، وأن يتبعه عمل صالح.

3 – أن الكِبر خُلُق ذميم يمنع صاحبه من قبول الحق.

4- أن سواد الوجوه يوم القيامة علامة من علامات الشقاء، وبياض الوجوه علامة من علامات السعادة.

5- أن التقوى سبب من أسباب النجاة يوم القيامة.

تفسير المقطع الثامن من سورة الزمر

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ
تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ
لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا
قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ
بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ
ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا
يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾﴾، أخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه هو خالق الأشياء كلها، صغيرها وكبيرها، فلا خالق غيره سبحانه ولا رب سواه، فالله هو المُوجد، وهو المصور، وهو المُشكِّل للأشياء، وهو البارئ لها على غير مثالٍ سابق، وفي الآية ردٌّ على كل من قال بقدم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقدم الأرض والسموات، وكالقائلين بقدم

الأرواح[1]، وكل الأشياء كلها موكولة إليه، فهو القائم بحفظها وتدبيرها، فهو حفيظٌ على كل شيء، ومُدّبر أمر كل شيء، وفي الآية إشارة إلى إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، فلا يغيب في الوجود عن علمه وتدبيره شيء.

وقوله: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾، **المقاليد:** هي المفاتيح، **أي:** بيده مفاتيح خزائن السموات والأرض[2]، والخاسر الحقيقي هو من كفر بآيات الله الشرعية والكونية، فخسر الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه لم يحقق ما خُلق من أجله، وأما في الآخرة فيصير حاله إلى النار فيهلك بعذابها، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾، أمر الله نبيَّه محمداً ﷺ أن يسأل كفار قريش الذين دعوه إلى عبادة غير الله، فقد كان بهم من الجهل ما الله به عليم، فقد كانوا يصنعون الصنم ثم يعبدونه، ولم يكتفوا بهذا الفعل القبيح، بل طلبوا من النبي ﷺ أن يُشاركهم في عبادة الأصنام، فوصفوا بالجهل المطلق؛ لأن من عبد غير الله وأشرك بالله فهو جاهل؛ فالعلم سبب للإيمان والتوحيد، والجهل سببٌ للكفر والشرك بالله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾، لقد أوحى الله إلى جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم بتحقيق التوحيد، وإفراد الله بالعبودية، ونهاهم عن الشرك وحذرهم منه، ومن

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 728).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 543).

أشرك ومات على شركه بطل عمله السابق، وفي الآية بيان أن الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خطير، وأن الأنبياء والرسل لو وقعوا فيه لحبطت أعمالُهم، فمن باب أولى غيرهم من البشر!

والحُبوط مرضٌ يصيبُ الأنعام حين تأكل من الزرع كثيرًا فتنتفخ بطنها فتموت بسبب ذلك، والشرك ربما يُزيَّن للناس فيقعون فيه فيهلكون بسببه، والمقصود بالشرك هنا الشرك الأكبر، وهو الذي يُبطل العمل الصالح السابق إن مات صاحبه مشركًا، أما الشرك الأصغر وهو الرياء فيُحبِط العمل الذي وقع فيه الرياء فقط، فمن وقع في الشرك الأكبر، حرم من دخول الجنة وصار من أهل النار، فكان في الآخرة من الخاسرين، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾، بل تفيد الإضراب، **أي:** لا تفعل ما سبق، وافعل ما يأتي، فلا تُشرك بالله، بل اعبد الله وحده لا شريك له، وكن مُخلصًا له في أعمالك كلها، واشكره على نعمه التي أنعم بها عليك، بالقلب والجوارح واللسان.

ثم قال الله سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾، **أي:** ما عظَّموا الله حق تعظيمه، ولو عظّموه حق التعظيم لما أشركوا به ولما عبدوا غيره من الأصنام والأوثان، فمن شبّه المخلوق بالخالق العظيم، أو شبّه الخالق بالمخلوقين الضعفاء؛ فقد غفل عن قدرة الله العظيمة، التي من مظاهرها في العالم الأخروي الأبدي أن الله تعالى يجعل الأرض في قبضته، ولفظ القبضة

يدل على تمام التمكن من المقبوض، وأن المقبوض لا تصرّف له ولا تحرّك، وفيه إشارة إلى تعطيل حركة الأرض وانقطاع مظاهرها أسباب الحياة فيها[1]، والطي: لفّ الشيء بعضه ببعض، **أي:** يلفّ السبع السموات لفّا، طبقةً بعد طبقة، **وفي الحديث:** "يقبض الله الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض"[2]، وهذا دليل ومظهر من مظاهر قدرته وعظمته سبحانه، ثم نزَّه نفسه عما يقوله المشركون من الأقوال الباطلة، ونفى عن ذاته النقص والخلل، وأثبت لها الكمال المطلق.

ثم قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾، **أي:** ينفخ إسرافيل الموكّل بالصور، وهو قرنٌ عظيم، ينفخ فيه نفختين، النفخة الأولى للصعق والموت، ومن شدة صوته تصعق الناس **أي:** تنخلع قلوبُهم فيموتوا، إلا من شاء الله، وهم الملائكة والأرواح[3]، فإذا ماتوا جمع الله أرواحهم داخل هذا الصور في فترة البرزخ، فإذا أمر الله إسرافيل بالنفخة الثانية خرجت أرواحهم من هذا الصور والتقت بأجسادها فتحيا[4]، فإذا صاروا أحياءً قاموا على أقدامهم، فإذا وقفوا على أقدامهم نظروا إلى ما يجري في هذا اليوم وانتظروا ما يُفعل بهم[5].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 62).

(2) صحيح البخاري: (6/ 126)، برقم: (4812).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 65).

(4) ينظر: فتح الباري لابن حجر: (11/ 367).

(5) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1859).

ثم قال: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾، **أي:** تشرق أرض المحشر بنور الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ إذا جاء للفصل بين العباد[1]، وقد خلق الله الخلق وأنشأهم نشأة تجعلهم يتعرضون لنوره سبحانه فلا يحرقهم[2]، وتختلف أرض المحشر عن أرض الدنيا، فليس فيها جبال ولا أودية ولا زوايا، بل دائرية مبسوطة، **كما قال:** ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾[طه: 107]، وجميع الخلق يُعرضون على الله فيها، لا تخفى منهم خافية، ثم تُوزِّع وتنشر كُتب الخلق وصحائف أعمالهم، وكل واحد يحصل على كتابه بيمينه أو بشماله من وراء ظهره، ثم يبعث الله النبيين ويجمعهم في مكان، ويأتي بالشهداء، وهم الملائكة الحفظة على كل شخص، فيشهد النبيون أنهم قد بلَّغوا الرسالة وأدوا الأمانة، وتشهد الملائكة أنهم كتبوا ما فعل العبد وسجلوا ما عمل دون زيادة ولا نقصان، فإن جادل العبدُ الملائكةَ؛ أتى الله له بشهود من نفسه، وهم أعضاؤه، فيشهدون بما عمل، ثم يحكم الله بين الخلق أجمعين بالعدل والقسط التام، فلا يظلم أحداً، بل كل إنسان يستوفي ما له وما عليه من خير أو شر، **والتوفية:** إعطاء الشيء وافياً لا نقص فيه[3]، والله أعلم بما كانوا يفعلون من خير ومن شر في الدنيا، فعلمه محيط بالخلق، ولا تخفى عليه منهم خافيه، وسيُجازيهم على ذلك يوم القيامة.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 118).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 730).

(3) ينظر: التحرير والتنوير (24/ 68).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن الشرك مُبطل للأعمال، لا فرق في ذلك بين نبيٍ وغيره، فكل من مات وهو يُشرك بالله فعمله باطل.

2- عظمة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وقدرتُه، وأنه يقبض الأرض ويطوي السماء ليُري الناس قدرته يوم القيامة.

3- من تمام عدل الله يوم القيامة إحضار الأنبياء للشهادة على أقوامهم، وإحضار الملائكة المكلفين بتسجيل أعمال العباد بين يديه، وهو يفصل بين الناس.

تفسير المقطع التاسع من سورة الزمر

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾، يخبرُ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن كيفية حشر الكفار إلى جهنم، فإن ملائكة العذاب تسوقهم سوقًا عنيفًا بزجرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ، وتدفعهم إلى النار دفعًا، **كما قال:** ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[الطور:١٣]، عن طريق

الصراط، وهو الجسر الواصل بين المحشر والجنة، والنار تحته، يمر الناس عليه أجمعون مؤمنهم وكافرهم، **كما قال:** ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[مريم:71]، **وفي الحديث:** "ويضرب الصراط بين ظهري جهنم"[1]، **أي:** يُنصب الجسر فوق متن النار، فتسوقُ الملائكة أهل النار جماعات متتابعة، كل جماعة تتبع الأخرى، وبمجرد أن يصلوا إليها تفتح لهم أبوابها سريعًا، لتُعجّل لهم العقوبة، حالها في ذلك كحال سائر أبواب السجون، فإنها لا تزال مغلقة حتى يأتي أصحاب الجرائم الذين يسجنون فيها فيفتح لهم ثم يغلق عليهم[2]، ولجهنم سبعة أبواب، **كما قال:** ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ [الحجر:44]، فيُقسمون بينها وفقًا لذنوبهم، فكل مجموعة متشابهة بالذنب تكون مع بعض، **كما قال:** ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾[الصافات:22]، **أي:** أشكالهم، فكل واحد مع من يُشابهه، ثم تسألهم الملائكة الذين يحرسون جهنم، وعددهم تسعة عشر ملكًا، **كما قال:** ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾[المدثر:30]، سؤال استفهام تقريري يقصد به التوبيخ والزجر لهم، وليس سؤال استعلام، فقد سبق السؤال والحساب لهم في المحشر، ألم تأتكم رسلٌ من جنسكم أبلغوكم دين الله وتلوا عليكم آياته، والمراد بها هنا الأقوال الموحى بها إلى الرسل، ويخوفونكم ويحذرونكم لقاء هذا اليوم الذي صرتم فيه، وهو يوم القيامة قالوا: بلى، وهذا اعتراف منهم بقيام الحجة عليهم، فأقرّوا أن ذلك كله قد حصل لهم

---

(1) صحيح مسلم: (1/ 163)، برقم: (182).

(2) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (9/ 224).

في الدنيا، ولكن لم تحصل لنا الهداية بسبب إعراضنا عن أسباب الهداية، فوجبت علينا كلمة العذاب، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[السجدة: ١٣][1].

وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، ولم يذكر اسم القائل لهم هذا القول، فقد يكونون الملائكة أو غيرهم، ولكن في إخفاء اسم القائل إشارة إلى أن الكون كله ينادي هؤلاء المجرمين على وجه الإهانة والإذلال بدخول أبواب النار، وكل طائفة تدخل من الباب الذي يخصها بحسب نوع عملها وكميته، ماكثين في النار لا يتزحزحون ولا يخرجون منها، هي مقرهم الدائم، وبئس المقر مقرهم؛ لأنهم أعرضوا عن قبول الإسلام بسبب الكبر، فعاقبهم الله بالذل والإهانة لهم في جهنم.

ثم قال: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾، شتان بين سوق ملائكة العذاب للكفار إلى النار، وسوق ملائكة الرحمة للمؤمنين إلى الجنة، وعبّر عن الإسراع بهم إلى الجنة مكرّمين بالسوق، والمسوق هو دوابهم، لأنهم لا يذهبون إليها إلا راكبين[2]، وتأتي الملائكة معهم مُشيّعين لهم، **كما قال:** ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[مريم:85]، حيث يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة، جماعةً بعد جماعةٍ: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 546).

(2) ينظر: البحر المحيط في التفسير: (9/ 224).

يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبها، الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم[1]، فيتجاوزون الصراط، ويبقى في القنطرة قبل دخول الجنة من كان في قلبه غلٌّ لأخيه المؤمن حتى يتم تخليصهم منه، **كما قال الله:** ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾[الحجر:47]، **وفي الحديث:** "إذا خلص المؤمنون من النار، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة"[2]، وقد سبقهم محمد ﷺ إلى الجنة، فإن الجنة لا تُفتحُ حتى يطرق بابها هو ويشفع لأهلها بالدخول، **كما في الحديث:** "فأكون أول من يدق باب الجنة، فيقول خزنتها: من؟ فأقول: محمد. فيقولون: أُمرنا أن لا نفتح لأحدٍ قبلك"، فيصلون إلى أبوابها الثمانية فيجدونها مفتوحة لهم، على ما تعارف عليه الناس في استقبال الضيوف المكرمين عندهم، وتتلقاهم الملائكة الخزنة عند أبواب الجنة بالسلام والثناء عليهم، والبشارة لهم بالسلامة من كل آفة وشر، فقد طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته في الدنيا[3]، فبسبب ذلك كله ادخلوا الجنة؛ لأنها دار الطيبين ومثوى الطاهرين، قد طهّرها الله من كل دنس، وطيّبها من كل قذر، فلا يدخلها إلا الطيبون من أمثالكم، ماكثين فيها لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، بل يبقون في نعيمها مخلدين.

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 119).

(2) صحيح البخاري: (3/ 128)، برقم: (2440).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 730).

وقولــــه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾، فإذا دخلوا الجنة ورأوا ما أعده الله لهم من النعيم المقيم، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ نطقت ألسنتهم بالحمد والثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي أنجز لنا ما وعدنا به في الدنيا من النعيم المقيم عن طريق رسله، وأورثنا وملّكنا أرض الجنة نتصرف فيها كما يتصرف المالك في ملكه، وعبّر بلفظ الوراثة؛ لأن المؤمن يرث مقعد الكافر في الجنة، والكافر يرث مقعد المؤمن في النار، **وفي الحديث**: "يقال للمؤمن: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فقال النبي ﷺ: "فيراهما جميعاً""[1]، فيتخذ متبوأً ومقراً ومنزلاً في أي مكان يريده من الجنة، لسعتها، **وفي الحديث**: "آخر من يدخل الجنة له مثل الدنيا عشر مرات"[2]، فنِعم الجزاء والعطاء لمن اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً.

ثم ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السورة، بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، الخطاب لكل راءٍ في ذلك اليوم العظيم[3]، **وقيل**: الخطاب لمحمد ﷺ[4]، وهو خطاب

---

(1) صحيح البخاري: (2/ 90)، برقم: (1338).

(2) صحيح البخاري: (9/ 147)، برقم: (7511).

(3) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 731).

(4) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 74).

تشريف له في ذلك اليوم العظيم يوم القيامة، حيث يرى الملائكة محيطين محدقين بعرش الرحمن من جميع الجهات، يقال حف القوم بفلان: إذا أطافوا به[1]، وهو أعظم المخلوقات، **وفي الحديث:** "ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"[2]، وهم يُثنون على الله ويحمدونه، وينزهونه ويُقدسونه عما لا يليق به، قد حكم الله وفصل بين جميع الخلائق يوم القيامة بالعدل والقسط، فيقول الكون ومن فيه: الحمد لله رب العالمين، فيحمدونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عدله وفضله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- حشر الكفار إلى النار مهانين ذليلين، وحشر المؤمنين إلى الجنة مُكرمين ومُعززين.

2- خلود الكفار في النار، وخلود المؤمنين في الجنة.

3- أن العمل الطيب يُورث الجزاء الطيب، وأن العمل السيء يُورث الجزاء السيء، ما لم يتب الإنسان منه.

4- أن الكون كله يُثني على الله ويحمده على حسن صنيعه وكمال عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 549).

(2) صحيح ابن حبان: (2/ 76)، برقم: (361).

تفسير سورة غافر

تفسير المقطع الأول من سورة غافر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ
ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ
وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ
﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ
وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

شخصية السورة:

سورة غافر؛ وتسمى سورة المؤمن[1]، **وهي** سورة مكية[2]، **وهي** أول

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 550).

(2) تفسير ابن كثير: (7/ 0).

الحواميم، وهن سبع سور، **والمقصد العام من هذه السورة** هو بيان حال المجادلين في آيات الله والرد عليهم.

ابتدأت بقوله: ﴿حمٓ﴾، **الراجح في معناهما** أنهما حرفان من حروف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب؛ ذكرت لبيان إعجاز القرآن، بدليل أن كل السور التي ابتدأت بأحرف مقطّعة جاء بعدها الحديث عن القرآن الكريم.

وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾، الكتاب هو القرآن الكريم، أنزله الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نزولًا إجماليًا، ثم نزولًا تفصيليًا، فالنزول الإجمالي أنزله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة، ثم النزول التفصيلي على مدى ثلاثٍ وعشرين سنةً على قلب النبي ﷺ، بواسطة جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، **كما قال:** ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء:193]، وذِكرُ أسماء الله الحسنى في نهاية الآيات له حكم وغايات، فالعزيز هو القوي الذي لا يُعجزه شيء، والعليم الذي أحاط بكل شيءٍ علمًا، فناسب ذكر التنزيل مع هذين الاسمين الكريمين، فثبت أن الكتاب الذي فيه ذلك منه، وأنه تام العزة، كامل العلم، جامع لجميع صفات الكمال[1].

ثم قال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾، هذا وصفٌ لله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإنه يغفر ما سلف من ذنوب العباد، ويقبل التوبة لمن تاب إليه ورجع إليه، وهو شديد العقاب لمن استمر في كفره وإعراضه، وهو صاحب السِعة في الفضل والخير والإحسان، المتفضل على

(1) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (17/ 2).

عباده بجميع النعم، فجمع بين أسلوبي الترغيب والترهيب في آنٍ واحد، فرغّب عباده في التوبة والمغفرة، وخوّفهم من شدة عقابه وبطشه، ليعبدوه بالخوف والرجاء، وهو سبحانه لا نظير له ولا شبيه في جميع أسمائه وصفاته، ولا إله غيره، ولا رب سواه، وإليه يرجع الخلق في الآخرة، فيثيب المحسِن على إحسانه، ويُعاقب المُسيء على إساءته.

ثم قال: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، حصر صفة الجدال بالباطل في آيات الله، وهي الحجج والبراهين الواضحة الدالة على توحيده وصدق رسله، في الكفار لغرض ردها وإبطالها، ولذلك يقبُح بالمؤمن أن يُكثر من الجدال والخصومات بغير فائدة، وغالبًا ما يكون الجدال مذمومًا؛ لأن الهدف منه غالبًا محاولة هزيمة الخصم بحق أو بباطل، وقد ترتفع الأصوات أثناء الجدال، ويحصل للنفوس الغضب، وتطلق منهم الألفاظ غير الجيدة، وبسببه تضيع الأوقات، ولذلك كانت هذه الصفة ملتصقة بالكفار، وقد كان كفار قريش كثيري الجدال فيما يأتيهم من آيات الله الكونية، فقد جادلوا في انشقاق القمر، وهي آية كونية ومعجزة حسية، وجادلوا في القرآن وفي آياته الشرعية، وقالوا: إنه سحر، ونحو ذلك من الألفاظ التي تدل على أنهم لا يُريدون معرفة الحق ولا الخضوع له، ولذلك نهى الله نبيّه أن لا تغتر بما يتقلبون فيه من النعم الدنيوية، كالمال والولد ونحوها، وهو خطاب عام يشمل أمته من بعده، فإعطاء الله الدنيا للكفار ليس دليلاً على محبته لهم أو أنهم على الحق، بل هو نوع من الابتلاء والاستدراج لهم، **والاغترار:** الخديعة[1]، وهو أن ترى ظاهر

---

(1) المصباح المنير: (ص: 230).

الشيء حسنًا ويكون باطنُه قبيحًا، فمظهر الكفار وطريقة حياتهم الظاهرة قد تكون حسنة، ولكنهم يعانون من الضنك والقلق في الدنيا، ولا يستمتعون بحياتهم، فربما يستمتع الفقير المسلم بحياته أحسن منهم، إضافة إلى ما ينتظرهم من عقوبة وعذاب في الآخرة على هذه النعم التي استخدموها في معصية الله.

ثم قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾، ذكر الله أن كفار قريش قد سبقهم أمم كثيرة كذبت الرسل، منها قوم نوح، ونوح هو أول رسل الله إلى الأرض بعد آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، **والأحزاب** جمعُ حزب، وهم الذين تجمعوا على الكفر وطاعة الشيطان فصاروا من حزب الشيطان، ويدخل في ذلك قوم عاد وثمود ولوط وغيرهم، والهَمّ المقصود به هنا العزم، **فإن الهَمّ همّان: خواطر** في النفس لا يُؤاخذ الله العبد بها، **وهمّ** تحول إلى عزيمة وإرادة، وهو الذي يُؤاخذ الله العبد عليه حتى ولو لم يعمل؛ لأنه قد صار من أعمال القلب، وأعمال القلب يُؤاخذ الله عليها، فإن كانت خيرًا يؤجر عليها، وإن كانت شرًا عوقب بها، فكل أمة من أمم هؤلاء المرسَلين همت بمعاقبة أو قتل أو إيذاء رسولها، وكان شغلُهم الشاغل كيف يتخلصون، فلم يقتصروا على تكذيب الرسل، بل تجاوزوا ذلك إلى أذيتهم، وكان من صفاتهم المجادلة بالباطل، فليس كفار قريش هم أول من اتصف بالجدال بالباطل، بل قد سبقهم إلى ذلك أقوام كثيرة قبلهم، والباء للملابسة، **أي:** أن جدالهم ملتصق ومرتبط بالباطل لا

ينفك عنه[1]، وهدفهم من المجادلة بالباطل هو إزهاق وإذهاب حجة الحق، **والأصل في الإدحاض** هو زلل القدم من المكان[2]، فكأنهم يُريدون أن يزيلوا أثر الحق من الوجود، وهذا يدل على أن أهداف أعداء الملة والدين أهداف خبيثة، وأن الخلاف معهم صفري، وأنهم لا يقبلون بوجود أي نسبة للحق، ولذا كانت عاقبتهم وخيمة، بسبب أفعالهم القبيحة، حيث أهلكهم الله ودمرهم، فكيف وجدتم عقابي لهم؟! وهو سؤال تعجبي، وجوابه معروف للسامع، فقد كان عقابًا شديدًا وأليمًا، وكانوا عبرة للخلق، وعظة لمن أتى بعدهم.!

ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦﴾، وما حصل للكفار من الأمم السابقة من عقوبة سيحل بكفار هذه الأمة، ووجبت عليهم كلمات الوعيد والعذاب إذا لم يقلعوا عن كفرهم؛ لأن الله وعد المؤمنين بالنجاة، ووعد الكافرين بالعذاب من أي أمة من الأمم، ووصفهم بأنهم أصحابُ النار الملازمون لها والمُخلدون فيها.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾، ثم أخبر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن حملة العرش، وعددهم ثمانية من الملائكة المقربين، **كما قال:** ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[الحاقة:17]، وهم من أكبر الملائكة وأعظمهم خلقة، **وفي الحديث:**

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 86).

(2) ينظر: تاج العروس: (18/ 327).

"أُذن لي أن أُحدّث عن أحد حملة العرش ما بين منكبيه وشحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مائة عام"[1]، وأخبر عن الملائكة الذين يطوفون حول العرش، وهم الكروبيون، وهم سادة الملائكة[2]، وأنهم جميعًا مشغولون بذكر الله والثناء على الله، قد جمعوا بين التسبيح الدال على نفي النقائص، والتحميد المقتضي لإثبات كمال الصفات، ويصدقون بأنه واحد لا شريك له، وذكر إيمانهم بالله هنا للتشنيع بحال الكفار، لذين لا يساوون ذرة من ذرات الكون، وهؤلاء مع عظمتهم وقوتهم يؤمنون بالله، ويستغفرون للمؤمنين من أمة محمد ﷺ؛ لأنهم المقصود في هذا المقام، ويلحق بهم كل مؤمن برسل الله السابقين، ثم ذكر طرفًا من دعائهم، ليُعلمنا كيف ندعو الله مثلهم، فنبدأ بالثناء على الله وحمده وتنزيهه مما لا يليق به، ثم التوسل إليه بأسمائه وأفعاله، وخصوا سعة رحمته وعلمه بالذكر؛ لأن سعة الرحمة مما يطمع باستجابة الغفران، وسعة العلم تتعلق بثبوت إيمان المؤمنين، ثم تفرع على هذه المناجاة لله تعالى طلب المغفرة للذين تابوا؛ لأنه إذا كان قد علم صدق توبة من تاب منهم، وكانت رحمته وسعت كل شيء، فقد استحقوا أن تشملهم رحمته لأنهم أحرى بها[3]، وفي هذا تشجيع للناس على التوبة، فإن الملائكة تدعوا للتائبين، الذين تحققت فيهم شروط التوبة، وهي الإقلاع عن الذنب، والعزيمة على عدم العودة إليه، والندم على فعله، ولا بد أن يصاحب التوبة الصادقة اتباع سبيل الله، وهو منهجه، والعمل بما أمرهم الله

---

(1) سنن أبي داود: (4/ 232)، برقم: (4727)، وإسناده صحيح.

(2) ينظر: تفسير البغوي: (7/ 139).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 90).

واجتناب ما نهاهم عنه، واشتمل دعاء الملائكة للمؤمنين الوقاية لهم من الوقوع في أسباب عذاب النار في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة من دخول النار.

وقولـــه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾، لأن الوقاية من عذاب الجحيم لا يلزم منه دخول الجنة مباشرة، كما يحصل لأهل الأعراف، أو للذين يتجاوزون النار من المؤمنين فيُحبسون على قنطرة باب الجنة، فهم ليسوا في النار، ولكن ليسوا في الجنة، فلذلك اتبعوا دعاءهم بإدخالهم جنات عدن، **وعدْن في اللغة:** دوام الإقامة في المكان[1]، فهي جنة الخلد التي لا تحوّل عنها ولا خروج منها، وهي وعد الله للمؤمنين، ومن دعاء الملائكة أن يدخل الجنة مع المؤمنين الصالحين من الآباء والأزواج والذرية، فيجمعهم في منزلة واحدة فيها، وهي نعمة لمّ الشمل في الجنة، **وقد سبق أن تحدثنا عنها في تفسير قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[الطور:21]، فدعت الملائكة للمؤمنين أن يلمّ الله شملهم، ويجمع أهلهم كلهم في الجنة، لتكتمل الفرحة باجتماع الأسرة كلها في درجة واحدة الأصول والفروع القريبة، لأن فيها معنى الأُنس، وعلّلوا ذلك كلّه بأن الله عزيز حكيم، فالعزة تقتضي إنفاذ الوعد، والحكمة تقتضي معاملة المحسن بالإحسان.

وقولـه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾، **أي:** احفظ المؤمنين من فعل السيئات وآثارها، وسُميت

---

(1) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (2/ 397).

سيئة لأنها تسوء صاحبها حسًا أو معنى، دنيا أو آخرة، وعلّلوا ذلك بأن كل من وقي عقوبة السيئات يوم القيامة، فقد نالته رحمة الله كاملة، واسم الإشارة يعود إلى ما سبق من وقاية عذاب النار ودخول الجنة، وجمع الآباء والأزواج والذرية في مكان واحد، ووقاية السيئات وعقوبتها في الآخرة، فمن تحقق له ذلك، فقد حصل على الفوز العظيم الذي ليس بعده فوز، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان طريقة القرآن في الدعوة بأسلوبي الترهيب والترغيب، وإرشاد الدعاة للأخذ به في دعوتهم.

2- من آداب الدعاء التي علمتنا الملائكة؛ الثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قبل أن ندعوه.

3- استحباب الدعاء لإخواننا المؤمنين بظهر الغيب.

4- بيان كرامة الله على المؤمن، حين سخّر له الملائكة تدعو له، وتشفع له عند الله.

5- بيان نعمة لمّ الشمل في الجنة للأسرة الواحدة.

6- أن الوقاية من عمل السيئات رحمة من الله بالعبد.

تفسير المقطع الثاني من سورة غافر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ
تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا
بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ
ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى
بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾، بعد أن ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآيات السابقة جزاء المؤمنين، ودعاء الملائكة لهم بإدخالهم

جنات عدن، ذكر هنا ما يُلاقيه الكافرون من عذابٍ وشدةٍ في الآخرة، وهو أسلوب من أساليب القرآن في المقارنة بين أهل الإيمان وأهل الكفر في الجزاء والثواب، فبيّن لنا أن الكافرين إذا دخلوا جهنم وذاقوا ما فيها من العذاب الأليم؛ كرهوا أنفسهم واحتقروها احتقاراً شديداً، فتُناديهم الملائكة وتقول لهم: إن مقتكم لأنفسكم في جهنم قليل في مقابل مقت الله لكم في الدنيا حين كفرتم به وابتعدتم عن الإيمان، فمقتُ الله وغضبُه وبغضه وكرهه للكفار أثناء إعراضهم عن الإيمان في الدنيا، واحتقاره لهم أشد من احتقارهم ومقتهم لأنفسهم وهم في النار.

وقوله: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ۝١١﴾، ثم نادوا ربهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بأسلوب فيه تلطُّف، فقالوا: يا ربنا أنت القادر على كل شيء، **ومن قدرتك علينا أنك أمتنا مرتين، الأولى**: حين كنا عدمًا فأوجدتنا إلى الحياة، فالعدم في حكم الموت، **والثانية**: أماتهم حين انتهت آجالهم، **وأحييتنا مرتين، الأولى**: أحياهم حين خلقهم من العدم، **والثانية**: أحياهم حين بعثهم بعد الموت، فنحن نعترف لك بذنوبنا التي فعلناها، والمقصود من الاعتراف هو اعترافهم بالحياة الثانية؛ لأنهم كانوا ينكرونها، فهل يمكن أن تُخرجنا من النار بعد اعترافنا وتوبتنا الآن، واستخدموا أسلوب الاستفهام للاستعطاف في رفع العذاب عنهم، ونكّر لفظ الخروج ليشمل أي خروج ينتفعون منه ولو كان مؤقتًا، وفيه إشارة إلى حالة القنوط التي يعيشونها، وأهمل ذكر الجواب لهم، **وتقديره**: لا ينفع اعترافكم بارتكاب الذنوب ولا

توبتكم منها الآن؛ لأن التوبة لا تقبل في غير وقتها، وقد انتهى وقتُها بالموت.

وأخبرهم بسبب استحقاقهم لهذا العذاب، **فقال:** ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾، اسم الإشارة يعود إلى العذاب والمقت الذي حصل لهم في جهنم، **والباء** سببية **أي:** بسبب كفركم وعدم إيمانكم بالله وحده في الدنيا، فقد طلب منكم أن تقولوا: لا إله إلا الله، فلم تقبلوا، واستغربتم من ذلك، **كما في قوله:** ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[ص:5]، ولم تقبلوا التوحيد الخالص، وقبلتم بالشرك، وهذا يدل على ضعف عقولكم، فكيف تكفرون بالله الخالق الواحد المستحق للعبادة، وتُصدقون باستحقاقها لصنم لا يملك من أمره شيئًا؟!، فالحكم المطلق اليوم ملكٌ لله وحده، وهو الذي حكم عليكم بالخلود في النار، وعدم الخروج منها، وختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى، وهما العلي الكبير؛ لأن معناهما مناسب لحرمانهم من الخروج من النار، فالعلي المتعالي عن أن يكون له مماثل في ذاته ولا صفاته، والكبير الذي كبر على أن يكون له مثل أو صاحبة أو ولد أو شريك[1]، فحكم من هذا وصفه يقتضي الحكمة والعدل.!

ثم قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ١٣﴾، الخطاب لكفار قريش، **أي:** يُظهر عليكم دلائل توحيده، وعلامات قدرته، وهي تشمل الآيات الكونية الموجودة في الكون والأنفس، والآيات الشرعية الموجودة في نصوص الوحي، فكلها آيات نراها

---

(1) فتح القدير للشوكاني: (4/ 555).

ونتأمل فيها فنستدل بها على وحدانية الله سبحانه فنؤمن به، ومن آياته ونعمه على الخلق: إنزال المطر من السماء، وسماه رزقًا؛ لأن به ترزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، واللام للامتنان به عليهم، وما يتعظ بهذه الآيات إلا من أقبل على محبة الله وخشيته وطاعته والتضرع إليه، وهو صاحب القلب الخائف المتعلق بالله، فهذا الذي تنفعه الذكرى، أما صاحب القلب الغافل فلا يستفيد من الذكرى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾، هذا خطاب للمؤمنين بأن يدعوا الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مخلصين له في عبادته وسؤاله، فيشمل دعاء المسألة ودعاء الإجابة، **فدعاء العبادة:** الثناء المطلق على الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالحمد والتسبيح له وذكره وشكره، ودعاء المسألة: بأن تطلب منه حاجتك، وكلاهما يُستحَب فيه رفع اليدين؛ لأن بعض الناس إذا سمعوا الإمام يُثني على الله لا يرفعون أيديهم، وهذا من الخطأ، بل هذا من الدعاء، وهو أعظم من دعاء المسألة؛ لأن فيه تعظيم لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وثناء عليه، بخلاف دعاء المسألة فهو طلب حاجة للعبد، فاخلص في عبادتك كلها ولا تصرف شيئًا لغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مهما كره ذلك منك الكافرون؛ لأن الكافرين يكرهون الإخلاص، **كما قال:** ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾[الزمر:45]، فطبيعة الكفار الشرك والرياء، فلا تتشبهوا بهم، بل خالفوهم بتحقيق التوحيد والإخلاص لله في كل أعمالكم، ولا تبالوا بهم.

وقوله: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥﴾، **أي**: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفع ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالت ذاته[1]، ينزل الوحي بأمره الشرعي، من حلال وحرام، وأمر ونهي، على من يشاء من عباده، وهم رسله وأنبياؤه الذين اصطفاهم لذلك، وسُمي الوحي روحًا؛ لأنه يُحيي القلوب كما تحيا الأجساد بالأروح، وإلقاء الوحي إليهم يكون عن طريق جبريل، أو مشافهةً دون حجاب، أو من خلال النفخ في الروع، والغاية والهدف من إنزال الوحي على الرسل هو الإنذار لأقوامهم وتخويفهم بيوم التلاق، وهو يوم القيامة، وسُمي يوم القيامة بيوم التلاق، **لعدة أقوال**[2]، **قيل**: يلتقي فيه الأولون والآخرون، **وقيل**: لالتقاء الظالم بالمظلوم، **وقيل**: لالتقاء المخلوقين بخالقهم للفصل بينهم، **وقيل**: يلتقي المرء بعمله، **وقيل**: لالتقاء أهل السماء -وهم الملائكة- بأهل الأرض -وهم الناس-، وكل هذه الأقوال يشملها معنى التلاقي، لحصول ذلك كله يوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾، هذا وصف لحال الخلق يوم القيامة، فكلهم ظاهرون في ساحة المحشر، لا يخفى من أجسادهم ولا من أعمالهم ولا من خفايا نفوسهم شيء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا جمعهم وحشرهم بين يديه، **قال**: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، ثلاثًا، **أي**: من هو المالك لهذا اليوم العظيم، الجامع للأولين

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 734).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 33).

والآخرين، فلا يجيبه أحد، فيرد على نفسه، بقوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، **أي**: لله المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، الذي قهر الخلق ودانت له المخلوقات وذلت وخضعت[1].

وقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾، وهذا من تمام جواب الله على نفسه السابق، أن يوم القيامة يوم المجازاة لكل نفس بما عملت من خير أو شر، فمعيار الجزاء هو كسب النفس، فلا يؤاخذ أحد بما لم يفعل، لأنه ظلم، والله قد حرّم الظلم على نفسه، **كما في الحديث القدسي**: "يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا"، وسيكون حساب الخلق مع كثرتهم سريع في هذا اليوم؛ لأنه سبحانه لا يحتاج إلى تفكر في ذلك كما يحتاجه غيره، لإحاطة علمه بكل شيء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة، وقد جاء عن ابن مسعود أنه قال: "إنه لا ينتصف النهار حتى يكون أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار"[2].

ثم قال: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ١٨﴾، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن ينذر ويخوف الناس المخاطبين يوم القيامة، وسُمي بيوم الآزفة لدنوه وقربه[3]، ثم وصف شدة ذلك اليوم بأن قلوب الخلق تصعد إلى مكان الحناجر، مع أن مكان القلب في الصدر،

---

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 734).

(2) الزهد والرقائق لابن المبارك: (1/ 463)، برقم: (1313).

(3) ينظر: معاني القرآن للزجاج: (4/ 369).

والحنجرة في الرقبة، إلا أنها من شدة الفزع والخوف ترتفع فتلتصق بالحنجرة فلا ترجع إلى مكانها، ولا تخرج فيستريحون من الكرب والغم، وقد جاء هذا الوصف لحال البعض من شدة الخوف في الدنيا كما في قصة الأحزاب، **كما في** قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾[الأحزاب:10]، ويوم القيامة سيكون الأمر أشد وأخطر، ويكون الناس ساكتين لا يتكلمون من شدة الموقف مغمومين، مكروبين يكتمون حزنهم وينتظرون الفرج، وفي ذلك اليوم يفتقد الكفار الأقرباء والأصدقاء الذين ينفعونهم، فكل واحد مشغول بنفسه، ولا يوجد لهم شفيع يطاع، فيشفع لهم عند الله، لأنه لا يجترئ أحد على الشفاعة عند الله إلا إذا أذن له، فلا يشفع عنده إلا من يطاع.

وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، ثم أخبر عن علم الله المحيط بكل شيء، ومنها علمه بخائنة الأعين، **وهي:** حركة جفن العين وغمزتها فيما لا يحبه الله ولا يرضاه[1]، **أو هي:** مسارقة النظر لشيء بحضرة من لا يحب النظر إليه[2]، والذي بجوارك لا يعرف ماذا تريد بها، فقد تريد بها شرًا أو خيرًا، **وفي الحديث:** "لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وسماهم، ومنهم عبد الله بن أبي سرح، فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة؛ جاء به حتى أوقفه على

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 33).

(2) التحرير والتنوير: (24/ 116).

رسول الله، ﷺ، فقال: يا نبي الله بايع عبد الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟"، فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك، قال: "إنه لا ينبغي لنبيٍ أن تكون له خائنة الأعين"[1]، أي: لا يليق به هذا الفعل، فخائنة الأعين من أفعال الجوارح، ولكن لا يعلم ماذا يُقصد بها إلا الله، ويعلم كذلك ما تخفيه الصدور من الوسواس والخواطر والنيات.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾، ثم أخبر عن حكمه بين الخلق يوم القيامة، وأنه يفصل بينهم بالعدل والقسط، فقوله حق وحكمه حق، فلا يُظلم أحد عنده، وأن الأصنام والأوثان وسائر المعبودات من دون الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا قضاء لديهم ولا حكم، ونفى عنها القضاء بحق أو بباطل، إظهاراً لعجزها، ووصف نفسه بالسمع المطلق والبصر المطلق، فهو السميع لأصوات الخلق أجمعين، وهو بصير يرى أشخاصهم وأعمالهم ثم يحاسبهم على ذلك، وفيه تعريض بأن آلهتهم لا تسمع ولا تبصر، فكيف جعلوها آلهة من دون الله؟!.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن محل قبول التوبة هو الدنيا، فلا توبة مقبولة في الآخرة.

---

(1) سنن أبي داود: (3/ 59)، برقم: (2683)، وإسناده صحيح.

2- أن الموعظة تنفع من أقبل عليها بقلبه وجوارحه، أما الغافل فلا ينتفع بها.

3- بيان أن المؤمن الصادق لا تؤثر فيه مواقف الكفار الرافضة لدينه.

4- أن كل ملوك الدنيا وجبابرتها ينتهي ملكهم يوم القيامة، فلا مالك بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

5- أن التذكير بيوم القيامة سبب من أسباب العودة إلى الله.

6- أن القلوب من شدة الفزع والخوف يوم القيامة ترتفع فتلتصق بالحنجرة.

تفسير المقطع الثالث من سورة غافر

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ
هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ
(٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ
وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ (٢٤) فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ
ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَٰلٖ (٢٥) وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ
دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم
مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ
إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ
كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ (٢٨) يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن
يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ (٢٩)﴾.

قـول الله تعـالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾، هذا الخطاب موجّه للمشركين الذين كانوا يُكذبون برسول الله ﷺ، والاستفهام تقريري، **والسير:** هو الحركة في الأرض بالأقدام ونحوها من الوسائل، **والنظر:** هو التفكر والتأمل في آثار القوم المكذبين من الأمم السابقة، وسبب إهلاك الله لهم، والوقوف على كيفية نهايتهم، ثم ذكر لنا بعضاً من وصف تلك الأمم، فقد كانوا من حيث قوة الجسد وكثرة العدد وعمارة الأرض بالحصون والقصور أقوى من قريش ومن العرب، **والآثار:** جمع أثر، وتُطلق على بقايا الشيء، وآثار قوتهم واضحة من خلال مساكنهم، كمدائن صالح وأهرام الفراعنة، وهي ما زالت موجودة حتى اليوم، ولكن بسبب كفرهم لم تنفعهم تلك القوة ولا تلك الآثار؛ فقد أهلكهم الله بسبب ذنوبهم، وأعظم ذنب عُصي الله به هو الكفر والشرك به سبحانه، ولم يكن لهم من يمنعهم من الله ويرد بأسه عنهم، ولا يقيهم عذابه الذي نزل بهم، فأهلكهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٢﴾، اسم الإشارة يعود إلى الأخذ والهلاك الذي أصابهم وأنه بسبب موقفهم السيء من الرسل، حينما جاءوهم بالبينات، وهي الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صدق الرسل، فكفروا بالآيات والرسل، فأهلكهم، بسبب ذلك؛ لأنه قويٌّ شديد العقاب، والقوي اسمٌ من أسماء الله الحسنى، **أي:** صاحب القوة المطلقة، الذي لا يعجزه شيء، فلا يُعطل مراده ولا

يتأخر، وهو شديد العقاب لمن عصاه وكفر به.

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤﴾، وذكر هنا قصة موسى مع فرعون بعد حديثِه عن تكذيب المشركين لنبي الله محمد ﷺ، من باب التسلية له، وموسى هو ابن عمران عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو أفضل أنبياء ورسل بني إسرائيل، أرسله الله بالمعجزات والحجج والبراهين القوية، إلى فرعون زمانه، وإلى وزير مملكته هامان، وإلى كبير تجار مملكته قارون، وهو من بني إسرائيل ولكنه بغي وفسد والتحق بفرعون، كما قال الله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [القصص:76]، وهؤلاء الثلاثة هم القادة الكبار في قوم فرعون، فلما أرسل الله موسى إليهم كفروا به واتهموه بالسحر والكذب عليهم، وهذه شبهة تكررت في كثير من الأمم المكذبة مع رسلهم.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾، فلما جادلهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وأبطل شبهتهم وأثبت لهم بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم؛ اقترح الملأ على فرعون وسيلة أخرى لمعاقبة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وإيقافه عن الدعوة، وهو قتل الذكور من أبناء الذين آمنوا معه، وترك البنات أحياء حتى يخاف الناس فيمتنعوا عن الإيمان به، وهذا القرار كان قد اتخذ مثله فرعون سابقًا حينما رأى الرؤيا وخاف

على ملكِهِ، فأمر بقتل كل الذكور من بني إسرائيل وإبقاء الإناث، ثم رأى أن ذلك سيُؤدي إلى فناء بني إسرائيل، وهو محتاج إليهم لخدمته، فقرّر أن يتركهم سنةً ويذبحهم سنةً، وكان هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قد وُلد في السنة التي ترك فيها القتل، وموسى وُلد في السنة التي كان فيها القتل، وأنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من القتل ورباه في قصره، ولكن الملأ أعادوا هذا المقترح على فرعون بعد بعثة موسى إليه، وجعلوه خاصًا بمن آمن به، فأبطل الله كيدهم ومكرهم وقصدهم في تقليل عدد بني إسرائيل، ولم يُتم الله لهم ما أرادوا، فقد رفض فرعون هذا المقترح وأشار عليهم بغيره، وهو قتل موسى نفسه الذي هو سبب المشكلة، وعبّر بلفظ ذروني أي: اتركوني، وهو أسلوب من أساليب التمويه عند الظلمة، وإلا من يمنع فرعون من قتله، وزاد في فجوره وطغيانه فتحدى موسى أن يمنعه من ذلك بدعاء ربه، وهي كلمة قبيحة تدل على فساده وانتكاسة فطرته، وهذا حال كل من بلغ في الطغيان مبلغه، فينسى أنه مخلوق ضعيف، وأن الله قادرٌ عظيم سبحانه، ثم برّر فرعون هذه الفعلة القبيحة الشنيعة بحرصه على دين الفراعنة وحفاظًا له من التبديل والتغيير!!، وحماية للمجتمع من فساد موسى ودعوته!!، فأي دين يحرص فرعون على بقائه؟! وهل ما كان عليه فرعون وقومه من الرسوم والطلاسم والخزعبلات يُسمى دينًا؟!!، ونسب الدين إلى قومه من أجل أن يستحث فيهم النخوة للدفاع عنه، وهو أسلوب يستخدمه الظلمة في كل زمان ومكان حينما يعجزون عن استنهاض شعوبهم لحماية عروشهم، فلا بد يُدخلوا موضوع الدين في القضية ويجعلوا المسألة مسألة دين

وعقيدة، ليستحثوا الشعوب على حمايتها، لأنهم لو قالوا للناس: حافظوا على عروشنا ومصالحنا، لما استجاب لهم إلا القلة من أتباعهم، ففرعون أستاذهم الأول في ذلك وهم تبعٌ له، وما هو الفساد الذي سيُظهره موسى في أرض مصر؟! هل عبادة الله وإقامة العدل فساد؟!، وكيف سمى ما يفعله موسى فسادًا وهو عين الصلاح وحقيقته؟!!، ولكن هذا حال أهل الباطل فإنهم يسمون فسادهم صلاحًا، ويسمون صلاح غيرهم فساداً، تزييفًا للحقائق وخداعًا للناس، **كما قال الله عن المنافقين:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[البقرة:11]، وهل كان موسى حاضراً هذه المشاورة أم لا؟!، الذي يظهر لي أن هذه المشاورة كانت خاصة بآل فرعون، وأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن موجوداً معهم، ولذا سماه كيداً، وهو ما يدبره الشخص لخصمه دون أن يعلم، وقد بلغه بعد ذلك.

فرد عليهم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾، **أي:** إني الْتَجأتُ إلى الله واستعذت به، فهو ربي وخالقي ورب المؤمنين معي، من شر فرعون وشر أمثاله الذين بلغوا في الكبر والطغيان درجات عالية، وكفروا بالله وأنكروا البعث والنشور والحساب، وفي ذكر الحساب إشارة إلى أن الله سيُحاسبهم على هذا التكبر والفساد يوم القيامة.

قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾،

وقد حضر هذه المشاورة رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه بموسى عن قومه، وقد يكون هو الذي بلّغ موسى بما جرى بعد ذلك، وإنما ذكر الله استعاذة موسى بالله منهم قبل قصة مؤمن آل فرعون من باب ذكر التهديد والموقف منه في آن واحد، ففرعون هدّد موسى بالقتل، فكان موقف موسى اللجوء إلى الله والاستعاذة به من شره وشر قومه، حتى تكون القضايا مترابطة في ذهن السامع، ولم يُذكر اسم الرجل؛ لأن الهدف بيان ما قام به من عمل، وهذه طريقة القرآن في قصصه وأخباره فإنه لا يلتفت إلى الأسماء غالبًا، وإنما يركّز على ذكر العظة والعبرة حتى يستفيد القارئ منها، ويكفي هنا وصفه بالرجولة والإيمان، وأنه من آل فرعون **أي**: من الأقباط، ووصفه بأنه يكتم إيمانه، فلما سمع ما دار في المجلس لم يسكت، بل دافع عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو في بساط السلطان وفي قصره، وهذا يدل على شجاعته وقوة إيمانه وإيثاره للدار الآخرة على الفانية، **وفي الحديث**: "أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"(1)، وقد حاورهم بطريقة هادئة حتى لا يُكتشف أمره، ولو كُشف أمره أنه مؤمن لقُتل في الحال، قبل أن يُؤدي النصيحة، وقبل أن يُوصل إلى موسى الخبر، فترك ذكر اسم موسى حتى لا يُشك فيه، وسماه رجلًا، وسألهم مستنكراً لقرارهم أتقتلونه بسبب أنه يقول: ربي الله؟! فهذا ليس سببًا موجبًا للقتل، خاصة وأنه قد جاءكم بالحجج والبراهين التي تدل على صدقه، ثم تنزّل معهم في الحوار وأخبرهم على سبيل

(1) مسند أحمد: (31/ 126)، برقم: (18830)، وسنن أبي داود: (4/ 124)، برقم: (4344)، وسنن الترمذي: (4/ 41)، برقم: (2174)، وإسناده صحيح.

الاحتمال، فإن كان موسى يدّعي النبوة والرسالة كذبًا؛ فسيُعاقبه الله لكذبه عليه وسيفضحه، وسيكون في عمله هذا حتفه وفيه نهايته، وإن كان صادقًا فيما جاءكم به، وهو عنده كذلك، فإنه قد آمن به وصدقه، ولكنه أتى لهم بالاحتمالين من باب التنزل معهم في الحوار، وحتى لا يُكتشف أمره لهم، فلو كان موسى صادقًا؛ فعاقبة قتله خطرٌ عليكم، وسينزل الله بكم عذابه الدنيوي الذي هددكم به موسى، وختم حواره معهم باستخدام المعاريض، **فالعبارة تحتمل معنيين**: تحتمل أن يقصد بها موسى في حال كذبه على الله، وتحتمل أن يقصد بها فرعون فهو مسرف في الطغيان والفساد، وكثير الكذب في أحواله كلها، فقد ادعى الألوهية والربوبية، ولا شك أن الرجل المؤمن كان يقصد بهذه العبارة فرعون لا موسى.

وقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾، ثم التفت إليهم جميعًا وقال لهم على سبيل التلطف: يا قوم! أنتم اليوم ملوك مصر، وملككم ظاهر في سكان أرض مصر، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فلو عذبنا الله بسبب تكذيبنا لموسى فمن ينجينا من عذابه الشديد إن نزل بنا؟ وهذا من حسن دعوته لهم، طمعًا في إيمانهم، ولكن فرعون قطع عليه الحديث معهم، ومنعهم من الاستماع إلى نصائحه، وأخبرهم بما يجب عليهم فعله، وأن ما سيقوله لهم هو الصواب، وفرعون في هذه الحالة إما غاشًا لهم أو كاذبًا عليهم، فبيّن لهم أن سبب عزمه على قتل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه لا يرى نفعًا إلا فيه، ولا يستصوب رأيًا غيره، ويرى ذلك هو سبيل الرشاد لقومه، وكأنه يعرض بأن كلام

مؤمنهم سفاهة رأي، فاستخف قومَه بهذا القرار فأطاعوه، وهو لم يأتِ بحجة ولا برهان على صحته، وتركوا نصائح الرجل المؤمن الذي كان يحاورهم بالحجة والبرهان، وهكذا يفعل الباطل بأهله، وهذه هي طبيعة الشعوب المستضعفة المقهورة بالظلم والطغيان في كل زمان ومكان، فهي لا تملك قرارها، بل قرارها بيد من يحكمُها، ويوجد من الحاشية والمغفلين من يُشجع ويمدح ما يقوله هذا الحاكم الظالم ولو كان خطاؤه واضحًا، وهؤلاء القوم اقتنعوا بقول فرعون مع بطلانه، وساروا وراءه إلى أن أغرقهم الله جميعًا في البحر.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن السير في الأرض للعظة والعبرة مشروع، فيعتبر بحال الأمم المكذبة وحال الأمم المؤمنة.

2 - أن المشروع للمؤمن إذا اشتدت عليه الأمور وخوفه المجرمون والظلمة أن يركن إلى الله ويلتجئ إليه.

3 - جواز كتمان الإيمان في بعض الأحوال لتحقيق مصلحة أو لدرء مفسدة، وهو رخصة.

4- أن أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وهو من الأخذ بالعزيمة.

5 - أن من طبيعة الشعوب المستضعفة المقهورة بالظلم والطغيان في كل زمان ومكان أنها تملك قرارها، بل قرارها بيد من يحكمها.

تفسير المقطع الرابع من سورة غافر

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ
نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ
ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ
مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ
مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ
وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ
أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ
دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ
أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ
ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾،

ما زال الحديث متصلًا عن نصائح مؤمن آل فرعون لقومه، وهذه النصائح يظهر أنها كانت متعددة في مجالس مختلفة بدليل واو العطف الموجودة في كل جملة من جُمل النصائح، ويوم الأحزاب المقصود به الوقت الذي هلكت فيه الأمم السابقة ونزل فيهم عذاب الله، ويوم: اسم جنس يُقصد به جنس الأيام، فقد تعددت أيام هلاك السابقين من الأمم، والأحزاب جمع حزب، والحزب هم الذين يتجمعون على مبدأ وطريقة ومنهج واحد، وضرب مثالًا لهذه الأحزاب بأقوامٍ اجتمعوا على الكفر بالله وبرسله، فتشابهت مناهجهم، وإن تعددت أشخاصُهم وأزمنتهم، فذكر منهم قوم نوح، وهم أول قومٍ كفروا بالله في الأرض، وعاد وهم قوم هود، وثمود وهم قوم صالح، والذين جاؤوا بعدهم من الأقوام الأخرى المكذبة، كقوم لوط وشعيب وغيرهم، **والدأْبُ**: هو العادة والعمل الذي يلازمه ويكرره[1]، **والمعنى**: أن العادة المستمرة لهؤلاء الأقوام هو التكذيب والكفر برسلهم، ومن عادة الله في الخلق عدم الظلم لهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يريد أن يظلم عبدًا من العباد، فلا يمنع العبد ما يستحقه، ولا يعذبُه فوق ما يستحق، ولا ينقص من حسناته ولا يزيد من سيئاته.! ولكنهم يظلمون أنفسهم بمخالفة أوامره وفعل ما حرمه عليهم.

وقوله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾﴾، ثم أظهر لهم حرصه وخوفه عليهم من بطش وعذاب الله تعالى يوم القيامة، وسُمي يوم القيامة بيوم التناد، من كثرة

(1) التحرير والتنوير: (24/ 134).

المناداة التي تحصل يوم القيامة، حيث ينادي أهل الجنة أهل النار، ويُنادي أهل النار أهل الجنة، وينادي المظلوم ظالمَه، وتُنادي الملائكة في الخلق هذا فائز وهذا خاسر، ونحوها من المناداة، وفي هذا اليوم العصيب تحاولون الهروب بالرجوع إلى الخلف حينما ترون جهنم بين أيديكم خوفًا منها، فلا تستطيعون الهروب ولا تجدون لكم ناصراً ينجيكم ويمنعكم من دخول النار، ومن يخذله الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عن الإيمان والاستقامة فلا يجد من يهديه؛ لأن هداية التوفيق بيد الله وحده.

ثم قال: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾، ولما توسّم فيهم قلة جدوى النصح لهم وأنهم مصممون على تكذيب موسى؛ ذكرّهم بموقف آبائهم من نبي الله يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقد جاءهم بالحجج والبراهين الواضحة الدالة على توحيد الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فما زال آباؤكم في شكٍ من نبوته وصدق ما جاءهم به من الحق والهدى، فلم ينتفعوا به في إصلاح دينهم وآخرتهم، بل كان حرصهم على الانتفاع به في تدبير أمور دنياهم، حتى إذا مات يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، قالوا على سبيل التمني: لن يبعث الله رسولًا بعده، وهذا يدل على ضلالهم، والأصل في الإنسان الذي يريد الحق والصواب والهداية أن يستبشر خيرًا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولذلك جاء التعقيب عليهم ببيان أن هذا الحال الذي وصلوا إليه من الضلال الكبير هو نتيجة لتجاوزهم للحدود في فعل الباطل وكثرة شكهم في قدرة الله واستحقاقه

للعبادة وحده لا شريك له، وهل هذه التعقيبات التي في نهاية الآيات من قول ونصائح مؤمن آل فرعون أم هي تعقيبات من الله على القصة؟!، **وعلى أي الاحتمالين** فقد صارت نصًا قرآنيًا، وفيها معنى الإقرار لما قاله الرجل المؤمن.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾، **هذا تعقيبٌ قرآني** على حوار مؤمن آل فرعون مع قومه الذين حاورهم بالحجة فلم يقتنعوا بها، واستمروا في الكفر والتكذيب، **والمعنى**: أن من عادة وطبيعة المكذبين من الأمم الكافرة أنهم يُجادلون رسلهم بالباطل وبغير حجة ولا برهان لديهم، وأن هذا التصرف منهم يبغضه الله بُغضًا كبيرًا، ويبغضه كذلك كل مؤمن بالله، **وذكر الذين آمنوا هنا لفائدتين، الأولى**: تشريفًا لهم، وبيان لمكانتهم عنده، وهو أسلوب من أساليب العرب في الإشادة بالشخص وبيان منزلته ولو لم يكن موجودًا، **وفي الحديث**: أن النبي ﷺ حدثهم عن بقرةٍ تتكلم، فقالوا: سبحان الله! بقرة تتكلم! قال: "نعم، إني أُؤمن بهذا وأبو بكر وعمر"[1]، ولم يكن أبو بكر ولا عمر موجودين، وإنما ذكرهما ليرفع من قدرهما ومنزلتهما عندهم.

والفائدة الثانية: أن مقت الله غير مشاهد للحاضرين، بينما مقت الذين آمنوا مشاهَد، فأخبرهم عن مقت الذين آمنوا لِيُشاهدوه كعلامة من علامات أنهم غير مَرضي عنهم من الله ولا من عباده المؤمنين[2]، واسم الإشارة كذلك يعود إلى

(1) صحيح البخاري: (4/ 174)، برقم: (3471).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 144).

الضلال، فضلال المشركين في تكذيبهم محمدًا ﷺ مثل ضلال قوم فرعون في تكذيبهم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والطبع هو الختم على القلوب المتكبرة المتجبرة، فلا تهتدي ولا يصل إليها الحق والهدى.

والمُتكبر هو: المستكبر عن الحق المُعرض عنه، **والجبار**: المُؤذي للخلق بفساده وانحرافه، فكل من كان كذلك فلا يهتدي إلى الصواب، وجمع بين صفاتهم القلبية وصفاتهم السلوكية السيئة للتنفير عنهم.

وقوله: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾، وهذا من استخفاف فرعون بقومه، فقد طلب مِن وزيرِه هامان أن يبني له قصراً عالياً مرتفعًا، من الطين المتصلب بالنار، **كما قال**: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾، [القصص:38]، فإن الطين إذا أُوقِد عليه صار قويًا.

والأسباب: جمع سبب، والسبب ما يوصل إلى مكان بعيد، **والمراد هنا**: طرق السموات وأبوابها، وبين الهدف والغاية من بناء هذا القصر المرتفع الشامخ، وهو أن يبلغ من خلاله إلى أبواب السموات كي ينظر إلى إله موسى، الذي ادعى أن هناك إله، وأنه في السماء، وأتى بجملة: ﴿وإنّي لأظنّه كاذباً﴾ للاحتراس، حتى لا يظن من يسمعه أنه قد شك في دينه، وهو إنما يفعل ذلك لإظهار كذب موسى بأمر حسي، ويتأكد منه بنفسه، وفي هذا دليل على أن فرعون كان بمكان من الجهل عظيم، **والعجب** أن يُصدق الناس مثل هذه

الخزعبلات الفرعونية!، صحيح أن الفراعنة كان عندهم قدرات كبيرة في البناء، ومن ذلك بناؤهم للأهرام، التي ما زالت أثراً من آثارهم حتى اليوم، ولكن ليس معقولًا أن يبني صرحًا يُوصل إلى السماء ومن خلاله يرى الله!!، ومن أغرب ما قيل في تفسير الآية: أن فرعون أراد ببناء هذا القصر المرتفع أن يختلي بنفسه من أجل أن يُروضها بالرياضة الروحانية حتى تنكشف له الكشوفات الإلهية، وكان فرعون يحسب نفسه أهلاً لذلك(1).

وختم الآية بما يدل على جهل فرعون وانحرافه، وأن ذلك السوء والتكذيب الذي بلغه هو من تزيين الشيطان له، فتمادى في الغي واستمر على الطغيان، فمُنع بسببه عن سبيل الإيمان وطريق الهداية، ومهما حاول من محاولات لأذية موسى أو إبعاده عن الدعوة أو التشويش عليه بمثل هذه الخرافات؛ فنتيجة كيده ومكره إلى خسارة وهلاك.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾، واستمر الرجل المؤمن في حوار قومه، فطلب منهم أن يستمعوا إلى نصحه ويقتدوا به ويسيروا في طريق؛ لكي يدلهم ويوصلهم إلى الطريق الذي فيه رشادهم ونجاتُهم في الدنيا والآخرة، وفيه تعريض بأن ما دعاهم إليه فرعون سابقًا ليس طريقًا إلى النجاة والهداية.

ثم قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 145).

أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾، ثم ذكر قومه ووعظهم بأن الحياة الدنيا محدودة بأجل غير طويل، وبأن الحياة الدنيا قصيرة، وأن التمتع بها سيكون أيامًا قليلة معدودة وينتهي، وأن وراءها حياة أبدية في الدار الآخرة، فهي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار؛ لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تزول ولا تنتهي، وفيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات بالنعيم أو العذاب، وبيّن لهم قواعد عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، فإن السيئة تُجزى بمثلها، لأن الله لا يظلم أحدًا، والسيئة اسم جنس، يشمل كل السيئات من الشرك والكفر والمعاصي ونحوها، وكل سيئة يكون جزاؤها بقدرها، والعمل الصالح اسم جنس يشمل كل الأعمال الصالحة من الإيمان وسائر الطاعات، ونص على نوع العامل للعمل الصالح، سواء كان من الذكور أو من الإناث، فلا فرق عند الله بين الذكر والأنثى في باب أجور العبادات والطاعات، إنما هناك فوارق بينهما فيما يتعلق بالأحكام الخاصة بكل نوع، لكن من حيث مكانتهم وأجرهم عند الله فلا فرق، ثم شرط وجود الإيمان مع كل عامل للعمل الصالح؛ فالإيمان هو أساس النجاة الأبدية، كما أن الكفر أساس الشقاء الأبدي، والعمل الصالح وحده بدون إيمان لا ينفع في الآخرة، فهما متلازمان، فلا يقبل أحدهما بدون الآخر، ومن تحقق فيهم تلك الصفات فمصيرهم إلى الجنة، وفيها النعيم المُقيم الذي لا ينقطع، ويعطون فيها أجرهم بلا حد ولا عد، ويعطيهم الله العطاء الذي لا تبلغه أعمالهم، ففي الجنة يظهر فضله ورحمته وكرمه للمؤمنين، وفي النار يظهر عدله في عقوبته للكافرين.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن تقديم النصح للناس وإرشادهم إلى الخير؛ من أهم من صفات المؤمنين.

2 - أن الجدال خصلة ذميمة يتصف بها الكفار لإبطال الحق.

3 - أن الكبر عن سماع الحق وقبوله من أسباب الكفر، ومانع من موانع معرفة الحق.

4 - بيان كثرة حيل فرعون وأساليبه الملتوية في الخداع لقومه، ولكن الله أبطل كيده ومكره، وجعل كيده في خسارة.

5 - وجوب الاستعداد للدار الآخرة وعدم الانشغال في الدنيا، فإن الآخرة هي دار القرار.

تفسير المقطع الخامس من سورة غافر

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قـــــول الله تعـــــالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾، ما زال الحديث متصلًا في نصائح مؤمن آل فرعون لقومه، فقد ارتقى في حواره معهم من الوعظ إلى الإرشاد إلى الرد عليهم والمناقشة لهم، والذي يظهر من السياق أنهم أوقفوه عن النصح لهم، وطلبوا منه أن يلحق بهم ويؤمن بمعبوداتهم، كما هي عادة الأقوام المكذبة مع من جاء يدعوهم إلى الله، فكان رده عليهم بأن دعوته لهم الهدف والغاية منها نجاتهم من النار بالإيمان والعمل الصالح، واتباع ما جاء به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففي اتباعه النجاة من عذاب الآخرة، وما تدعونني إليه من الكفر والمعصية والشرك ونحوها، هو من موجبات عذاب النار، والاستفهام تعجبي، فهو يتعجب من دعوتهم إياه لدينهم مع ما رأوا من حرصه على نصحهم ودعوتهم إلى النجاة وما أتاهم به من الدلائل على صحة دعوته وبطلان دعوتهم[(1)]، ثم بدأ يُبيّن محتوى دعوتهم لهم، وأن ملخصها أن يكفر بالله سبحانه ويشرك به آلهة ومعبودات باطلة، وليس على ذلك حجة ولا برهان ولا أثر من علم، وفيه إشارة إلى أن العقائد لا بد فيها من اليقين المبني على العلم، كما قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[محمد:١٩]، ثم قارن بين دعوته ودعوتهم، فهم يدعونه إلى الكفر بالله الخالق العظيم، وعبادة مخلوقات ضعيفة لا تملك من أمرها شيئًا، وهو يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادة العزيز القوي الغفار لذنوب عباده التائبين إليه، وشتان بين الدعوتين!! وفي تذييل الآية بالعزيز الغفار، إشارة إلى بطلان عبادة الأصنام، لعجزها وضعفها، وترغيب لهم بالتوبة، وأن ذنوبهم السابقة سيغفرها الله لهم أن تابوا

---

(1) التحرير والتنوير: (24/ 153).

ورجعوا إليه.

ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾، لا شك ولا ريب أن الذي تدعونني إليه وهي الأصنام لا تستحق أن تُدعى، ولو دُعيت لا تستطيع الإجابة؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق، ولا تملك ضراً ولا نفعًا لكم في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزها ونقصها، وأن مرجعنا جميعًا إلى الله، من عَبَدَ الله ومن عَبَدَ غيره، فيُحاسبُنا على أعمالنا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن جزاء الذي تجاوز الحد في العصيان والكفر والشرك، دخول النار والخلود فيها.

ثم ختم مؤمن آل فرعون حواره ونصائحه لقومه، بقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾، **أي:** إذا نزل بكم العذاب فستذكرون ما قلته لكم من النصائح والإرشادات، وهذه العبارة تُقال على سبيل التهديد والوعيد لمن لم يقبل النُصح، وأنه سيندم حين يرى عاقبة مخالفته وإعراضه، **والتفويض هو:** كمال التوكل والاعتماد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإني أَكِلُ شأني وشأنكم إلى الله، لأنه عليم بدقائق أحوال جميع الخلق لا يخفى عليه شيء منها، وإنما قال لهم هذا الكلام؛ لأنه شعر أنهم يتآمرون عليه، وهكذا ينبغي أن يكون حال كل مؤمن حين يسمع تهديدًا أو وعيدًا من عدوه أو خصمه، فلا يلتفت إلى ذلك، بل يُفوض أمره ويتوكل على الله، ولا يترك الدعوة؛ فلو كل رسول أو داعية أو مصلح ترك الدعوة والإصلاح لمجرد التخويف والتهديد من عدوِّه لما دعا أحد.!

ثـــم قـــال الله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾، وهذا يدل على أنهم أضمروا به مكراً وأذية، فالمكر هو العمل الخفي لأذية الغير، فأنجاه الله من مكرهم السيء، فقد يكون خرج مع موسى وبني إسرائيل حين خرجوا، وقد يكون فرّ من آل فرعون ولم يعثروا عليه[1]، ونزل بفرعون وأتباعه من الكفار، العذاب السيء وهو الغرق، ووصف الغرق بسوء عذاب؛ لأن الغريق يُعذب باحتباس النفس مدة وهو يطفو على الماء ويغوص فيه ويرعبه هول الأمواج وهو موقن بالهلاك[2]، فلما غرقوا في البحر ونزعت منهم أرواحهم بالموت؛ أُخذت أرواحُهم وصارت تُعرض على النار صباحًا ومساءًا في فترة البرزخ[3]، وفي الآية دليل على عذاب الأرواح في البرزخ، وهي من أدلة القرآن في إثبات عذاب القبر، **وفي الحديث**: "إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة"[4]، وإذا ذُكر الغُدو والعشي في أساليب العرب، فالمقصود به الاستمرار، والمعنى أن عذاب القبر مستمر بآل فرعون إلى أن يُبعثوا، فإذا قامت الساعة بعثوا وحُوسبوا، ثم يأُمر الله الملائكة بإدخالهم أشد العذاب في جهنم

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 157).

(2) ينظر: المصدر السابق: (24/ 158).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 567).

(4) صحيح البخاري: (2/ 99)، برقم: (1379).

بسبب كفرهم وتكذيبهم.

وقولــه: ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ٤٨﴾، ثــم أخــبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن أهل النار من آل فرعون وغيرهم، حين يجتمع في النار الضعفاء والكُبراء، والتابعون والمتبوعون، فيبدأ الخصام والجدال بين الضعفاء، وهم الأتباع من عامة الناس الذين لا تصرّف لهم في أمور الأمة، وبين الكبراء، وهم سادة القوم الذين تكبروا كبراً شديداً، فالسين والتاء فيها للمبالغة، فيقول الضعفاء: لقد أغويتمونا ودعوتمونا إلى الكفر والضلال في الدنيا، فأطعناكم واتبعناكم في ذلك، فهل تتحملون عنا قسطًا[1] قليلاً من عذاب النار، ولعل هذا القول كان طلبًا على الحقيقة بناءً على ما اعتادوا عليه في الدنيا من اللجوء إليهم في حل مشكلاتهم، فظنوا أنهم كذلك في الآخرة[2]، **وقيل**: إن الأتباع يعلمون أن الكبراء لا قدرة لهم على ذلك التخفيف، وإنما قصدوا بهذا توبيخهم لأنهم كانوا سببًا في ضلالهم[3]، والأول أولى؛ لأن السياق في جواب الذين استكبروا يدل عليه، بقولهم: نحن وأنتم سواء في العجز وعدم الحيلة، بكوننا في النار جميعًا، فكيف تطمعون أن ندفع عنكم شيئًا من العذاب؟!، فلو كان عندنا قدرة على

(1) تفسير ابن كثير: (7/ 149).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 161).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (27/ 522).

التخفيف، لخففنا عن أنفسنا، إن الله قد قسم العذاب بيننا كلٌّ منا بقدر ما يستحقه بقضائه العادل، وفي الآية عظة وعبرة للزعماء والقادة والمتبوعين أن يحذروا دعوة غيرهم إلى الهلاك والخسران في الدنيا حتى لا يتحملوا أوزارهم في الآخرة، وأن يكونوا قدوة حسنة لهم، لينالوا الأجر والثواب بسبب اقتداء غيرهم بهم في الخير.

وقولــه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾، فلما يئس الضعفاء من نفع الكبراء والأقوياء، وأظهر الجميع العجز؛ انتقل الجميع إلى خيارٍ آخر، فطلبوا الشفاعة من خزنة جهنم، وهم الملائكة الموكلون بالنار، وهل طلبهم للشفاعة من خزنة جهنم كان قبل أن يطلبوا من الله الخروج منها أم بعد؟! السياق يدل على أنه بعد؛ لأنهم طلبوا من الله الخروج منها، كما قال: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾[المؤمنون:108]، فلما رفض طلبهم طلبوا من خزنة جهنم أن يشفعوا لهم عند الله أن يُخفف عنهم العذاب قدْر يوم من النار، مما يدل على أن عذابهم كان شديدًا، وأنهم كانوا يطلبون أدنى تخفيف، فردت عليهم الملائكة بسؤالهم سؤالاً تقريريًا المراد به: إظهار سوء صنيعهم بأنفسهم، حيث قد جاءتهم الرسل بالبراهين وقامت عليهم حجة الله، فلم يتبعوا الرسل حتى وقعوا في هذا العذاب، فاعترفوا بذلك، وهذا الاعتراف لا ينفعهم في الآخرة، فردت الملائكة خزنة جهنم عليهم بالتنصل من أن الدعاء

لهم، لأنهم علموا أن الكافر لا يخفف عنه العذاب، وأوكلوا أمرهم إلى أنفسهم؛ فكما توليتم وأعرضتم عن اتباع الرسل استبداداً بآرائكم، فتولوا اليوم أمر أنفسكم فادعوا لها، قالوا ذلك لهم على سبيل التوبيخ والتقريع لهم، فمهما دعوا الله فإن دعاءهم لا ينفعهم ولا يقبل منهم، فدعاء الكافرين في الآخرة غير مقبول، ولا يوجد له استجابة، وهل هذا من قول خزنة جهنم أم تعقيب قرآني؟، مُحتمَل هذا ومحتمل هذا[1]، وفي الآية تنبيه لمن ما زال في الدنيا ويسمع هذه الآيات أن يستعد بالإيمان والتقوى وأن يبتعد عن اتباع الكُبراء الذين يُضلونه، فالله قد أعطانا سمعًا وبصرًا وعقلًا، وأرسل إلينا رسلًا، وأنزل كتبًا لهدايتنا وإرشادنا إلى الحق؛ فلا تحقِرنّ نفسك وتكن تابعًا لغيرك في الضلال فيُضلك عن الحق.!

فوائد وهدايات من الآيات:

1- أن العقائد لا بد فيها من اليقين المبني على العلم.

2- أن من توكل على الله وعمل بأسباب النجاة نجاه الله من أعدائه مهما مكروا به.

3- بيان أن أهل النار يختصمون فيها ويتجادل الضعفاء مع الكُبراء، والتابعون مع المتبوعين.

4- ثبوت عذاب القبر بنص القرآن وما تواتر من السنة وما أجمع عليه

(1) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1891).

المسلمون، فإن المسلمين منذ عهد الصحابة إلى اليوم يتعوذون في صلواتهم كلها من عذاب القبر.

5- أن الكافر يوم القيامة يحاول أن يتعلق بأي سبب ليُنجو به من النار.

6- أن الملائكة تتنصل من الشفاعة للكفار بسبب إعراضهم عن اتباع الرسل في الدنيا.

تفسير المقطع السادس من سورة غافر

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا
يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ
وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ
وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى
صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّٰلِحَٰتِ وَلَا الْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾،

هذا إخبارٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه تكفل بنصر رسله ومن آمن بهم، وأن هذا

النصر يقع لهم في الحياة الدنيا على أعدائهم، ومفهوم النصر هنا عام يشمل: الظهور على العدو والتمكين في الأرض، ويشمل نصر المنهج والمبادئ، ونصر الحجة والبيان، وقد يقع النصر بالتمكين بعد موت الرسل، فما جرى للنمرود بعد أن آذى إبراهيم هو نوعٌ من النصر لإبراهيم ومن اتبعه، وما جرى لليهود الذين آذوا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من قهرٍ وذلة هو نوعٌ من أنواع النصر لمن آمن بعيسى واتبعه، فليس تحقق النصر مرتبطًا بشخص النبي أو الداعية، أو بزمنٍ محدد، وإنما هو نصرٌ للمنهج، فقد يأتي والنبي أو الداعية حي، وهذا من عاجل بشرى المؤمن، وقد يموت النبي أو الداعية ويكون النصر بموته، كما حصل للغلام المؤمن الذي قتله الطاغية، فقال الناس: آمنَّا بالله رب الغلام!، فنصر الله لأوليائه لا يتخلف، ولكنه يأتي في الزمان المحدد له، والنصر مرتبط بالمنهج، فكل من سار على منهج الرسل نصره الله، فهذا مفهوم النصر في الحياة الدنيا، أما مفهوم النصر في يوم القيامة فيكون حين يقوم الشهود، وهم الملائكة والأنبياء والرسل[1] وكل من يشهد يوم القيامة على الخلق بأعمالهم، فيُعاقب الله أعداء الرسل ويُدخلهم النار، ويُدخل الرسل وأتباعهم من المؤمنين الجنة، ومهما حاول الكفار أن يعتذروا يوم القيامة فلا يُقبل منهم الاعتذار؛ لأن الاعتذار يقبل في دار العمل في الدنيا، أما في الآخرة فهي دار جزاء لا دار عمل، بل يُطردون من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُدخَلون جهنم، تلك الدار السيئة التي تسوء كل من نزل فيها.!

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 568).

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾ أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أعطى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الهدى، والمقصود به هنا العلم الذي يُهتدى به، وهو ما أوحي إليه من الأمر بالدعوة إلى الدين الحق، فإن العلم هو منار الهدى، وسبب للهداية، والجهل سببٌ للضلال والغواية، وأورث الذين آمنوا بموسى من بني إسرائيل التوراة، فأخذوها منه في حياته وأبقاها الله لهم بعد وفاته، ووصفها بالهدى، فمن تدبرها اهتدى بها إلى الحق، ومن تأملها اتّعظ بها؛ لأنها تحتوي على الموعظة، من الترغيب والترهيب، وأن أكثر من يهتدي ويتعظ بها هم أصحاب العقول السليمة القادرة على الفهم والاستنباط، ولكن الواقع أن اليهود لم يهتدوا بها ولم يتعظوا منها، بل حرفوها وبدلوها، ولذلك غضب الله عليهم ولعنهم.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾، الخطاب لنبيه محمد ﷺ، حيث أمره بالصبر على تكذيب قومِهِ له، فوعْد الله بنصر الرسل وهلاك المكذبين حق لا يتخلف، بل له موعد محدد يأتي فيه، وأمره أن يشغل نفس بالاستغفار لذنبه، وهل الاستغفار من ذنبٍ وقع فيه النبي ﷺ، أم لا؟ اتفق العلماء على عصمتهم مما يُخِل بتبليغ الرسالة[1]، وذهب جمهورهم إلى أن الأنبياء معصومون من الكبائر، أما عصمتُهم من الصغائر ففيه خلاف بينهم، ولكنهم متفقون أيضًا على عدم إقرار الله لهم عليها[2]، فمن قال إنهم معصومون من الصغائر، **فالاستغفار هنا** مما هو

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية: (10/ 289).

(2) المصدر السابق: (4/ 320).

خلافُ الأَوْلى في حقه، فهو لم يرتكب معصية، ولكنه وقع في خلاف الأولى، **وفي الحديث**: "إنه ليُران على قلبي وإني لأستغفر الله"[(1)]، فالنبي ﷺ لم يعص الله، وإنما كان انشغاله بأمور الدنيا بمثابة الذنب الذي يفعله غيره، وذلك لطهارة قلبه وصفائه، كحال الثوب الأبيض، فأدنى غبار يُؤثر فيه، فكان استغفاره لذلك، ومن قال بعدم عصمتهم من الصغائر؛ فالاستغفار يكون منها[(2)]، ثم أمره أن يجمع بين التسبيح والتحميد لله، وهذا خاصٌ بالله، فإنه المُنزّه من كل نقص، المحمود على كل حال، أما البشر فلا يُسبَّحُ بحمدهم ولا يُذكرون إلا على سبيل الشكر على نعمة قدموها لك؛ فتشكرهم عليها، فاستحقاق كمال الحمد المطلق لله وحده، فهو المنزه عن النقائص مطلقًا، والمقصود بالتسبيح هنا هو الذكر بلفظ: سبحان الله، بدليل مصاحبته للحمد، **أي**: داوم على تسبيح الله وتنزيهه متلبسًا بحمده والثناء عليه، وذكر طرفي النهار، وهما الصباح والمساء، كناية عن الاستمرار على ذلك طيلة عمرك.

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾، **المجادلة**: المحاجة بدون حجة ولا برهان، وآيات الله هي الحجج والبراهين، وتشمل الآيات الشرعية التي جاء بها الوحي، والآيات الكونية مثل انشقاق القمر ونحوها من المعجزات الأخرى التي أيد الله بها رسله وأنبياءه عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، والسلطان هو العلم والحجة، **أي**: أنهم يُجادلون في آيات

(1) صحيح مسلم: (4/ 2075)، برقم: (2702).

(2) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 570).

الله بغير حجة ظاهرة واضحة جاءتهم من جهة الله سبحانه، بل عِلة جدالهم هو تغلل الكِبر الذي في نفوسهم، والكبر هو رد الحق واحتقار الخلق، ومن كانت هذه صفتُه فسيُجادل غيره باستمرار؛ لأنه لا يريد أن يخضع للحق ولا يعترف بمكانة وقدر الخلق، واتصافهم بالكبر ادعاء، فكل المخلوقين ليسوا أهلًا للكبر[1]، لضعفهم وقلة حيلتهم، **وفي الحديث القدسي:** "الكبرياء ردائي والعزة إزاري، من نازعني في أحدهما عذبته"[2]، **فالكبرياء** من خصائص الخالق سبحانه، وأنهم مهما تكبروا فلن يصلوا إلى مُرادهم وبُغيتهم من هذا التكبر[3]، وهو إبطال النبوات والتكذيب بالرسل، واستمرار باطلهم وكفرهم، ثم أمره الله أن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه من شرهم وكيدهم به، فهو السميع لأقوالهم، البصير بأفعالهم، ولا تخفى عليه من أحوالهم خافية، وفي الآية بشارة للمؤمنين بأن كل من جادل الحق فهو مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو ذليل[4].!

وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾، ولما كان هؤلاء المتكبرون المجادلون يُجادلون في إنكار البعث والنشور؛ رد الله عليهم بدليل مشاهد لا ينكرونه لإبطال شبهتهم، وهو أن خلق السموات والأرض أعظم في النفوس وأجل في الصدور، من إعادة

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 174).

(2) مسند أحمد: (15/ 313)، برقم: (9508)، وسنن أبي داود: (4/ 59)، برقم: (4090)، وإسناده صحيح.

(3) ينظر: تفسير ابن عطية: (4/ 565).

(4) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 740).

خلق الناس وبعثهم؛ لعظم أجرامهما واستقرارهما من غير عمد، وجريان الأفلاك بالكواكب من غير سبب، فكيف يقرون بخلق الله لهما وينكرون البعث وإحياء ما هو دونهما من كل وجه[1]؟!، وقد وكان المشركون يُقرون بذلك، **كما قال:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:9]، فمن خلق السموات والأرض قادر أن يُعيدكم ويبعثكم يوم القيامة من باب أولى؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون عظيم قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، ثم ذكر الله مثالاً لصاحب الباطل وصاحب الحق، فالذي يجادل بالباطل مثله كمثل الأعمى الذي لا يرى، وصاحب الحق مثله كمثل البصير الذي يرى، فكما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئًا، والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوي المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار[2]، فالمسيء هو الذي يرتكب السيئات وأعظمها الشرك والكفر، **فالمثال الأول** لبيان التفاوت بين العالم والجاهل، **والمثال الثاني** لبيان التفاوت بين من يعمل الأعمال الصالحة ومن يعمل الأعمال الفاسدة الباطلة[3]، ولكن قليلاً منكم من يتّعظ بهذه الأمثلة

---

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 570).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 152).

(3) ينظر: تفسير الرازي: (27/ 526).

ويعتبر بها، وهذا يدل على أن أكثر الناس في غفلة عن تدبر الآيات الحسية والمعنوية.!

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ثم أخبر عن حتمية مجيء الساعة وقيام القيامة، مهما أنكرها وجحد بها الكافرون فهي آتية لا محالة، والواقع أن أكثر الناس لا يُصدقون بها، وهم في شك منها، وهل هذا الخبر خاصاً بزمن النبي ﷺ أم باقياً إلى اليوم؟! الجواب: هذا خبر باقٍ إلى اليوم، **فعدد سكان الأرض اليوم** (ثمانية مليار)، منهم (مليارا) مسلمون، و(ستة مليار) من الكفار، وأغلب الكفار وثنيين أو غير مصدقين باليوم الآخر ولا يقرون بالبعث والنشور.!

وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، ثم ندب الله عباده إلى دعائه، دعاء المسألة ودعاء العبادة، وتكفل لهم بالإجابة، وهذا من فضله وكرمه عليهم، واستجابة الله للدعاء تتم وفق حكمة الله وتقديره، فقد تدعو الله بشيء فيعطيك الله شيئًا آخر، وقد يُؤجل لك الإجابة إلى الوقت الذي يصلُح لك، فادعُ الله واترك اختيار الاستجابة وموعدها على الله، وسمى الدعاء عبادة، **وفي الحديث:** "إن الدعاء هو العبادة"[1]، وتوعد من استكبر عن عبادته وأعرض عنها بأن يدخلهم جهنم صاغرين ذليلين؛ لأن الكِبر هو الذي منعهم من عبادة الله ودعائه في الدنيا،

(1) مسند أحمد: (30/ 336)، برقم: (18386)، وسنن أبي داود: (2/ 76)، برقم: (1479)، وإسناده صحيح.

فعاقبهم الله بنقيض حالهم في الآخرة، والآية تنبيه إلى أهمية الدعاء وفضله، واستحباب الإكثار منه، فلا تستحِ ولا تخجل من كثرة سؤالك لله، ولا تُقارن بين الخالق والمخلوق في هذه المسألة، فطبيعة المخلوق إذا أكثرت من سؤاله غضب واحتقرك، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فكلما أكثرت من سؤاله قرّبك، فأحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، **وفي هذا المعنى قال الشاعر:**

لا تسألن من ابن آدم حاجة ... وسل الذي أبوابه لا تحجب
الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يُسأل يغضب[1]

فعلينا أن نُكثر من سؤال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا بد قبل ذلك أن نحقق شروط استجابة الدعاء من اليقين والإخلاص، وعدم أكل الحرام، والإلحاح على الله بالدعاء، وعدم الاستعجال، وأن لا ندعو بإثم ولا قطيعة رحم، وترك الاعتداء في الدعاء، ونحوها من الشروط والآداب المفصلة في كتب أحكام وآداب الدعاء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسله سنةٌ ثابتة لا تتخلف، يأتي في موعده الذي حدده الله له.

2 - أن الاعتذار والاعتراف من الظالم والكافر يوم القيامة غير مقبول، لأنه

(1) المستطرف في كل فن مستطرف: (2/ 116).

ليس في وقته.

3- أهمية الصبر في مواجهة أعداء الإسلام ونجاح الدعوة.

4- بيان أهمية الاستدلال العقلي في إثبات الحق ورد الباطل.

5- أهمية الدعاء وفضله، وهو نوعان: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

تفسير المقطع السابع من سورة غافر

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ
كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن
رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾، ذكر الله في هذه الآيات بعض نعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خلقه، **ومنها:** أن صيّر لهم الليل ظلامًا هادئًا من أجل أن يسكن الخلق فيه عن الحركة ويستمتعون فيه بنعمة النوم والراحة، وصيّر لهم النهار ضياءً من أجل أن يبصروا فيه حاجاتهم ويكسبوا فيه معاشهم، فالليل للراحة والهدوء والسكينة، والنهار للعمل والنشاط

والحيوية، ولما حاول بعض الناس اليوم أن يُغير في هذا النمط فجعلوا الليل سهرًا في اللهو والنهار نومًا وضياعًا، أدى ذلك إلى تخلفهم وتأخرهم، وهذا حال كثير العرب عمومًا واليمنيين خصوصًا، فلو قارنتهم بغيرهم من الأجناس لوجدتهم مخالفين لهذه لفطرة، بخلاف الأجناس الأخرى، كاليابانيين والصينيين فإنهم يستغلون النهار في العمل، فيبدأ العمل عندهم من الساعة الخامسة فجرًا إلى الخامسة مغربًا، فيقضون اثني عشر ساعة في مزارعهم ومصانعهم وأعمالهم، وهم بهذا يعملون وفق السنة الكونية التي خُلق من أجلها الليل والنهار؛ لذلك تقدموا وأنجزوا، وغيرهم خالف السنة الكونية فضيعوا وتأخروا، لذلك لا نستغرب ما يحصل في أمة الإسلام من التخلف والتأخر لأنهم خالفوا الفطرة والسنن الكونية!، وفضل الله على الخلق كثيرٌ جداً، ونعمه كثيرة جداً عليهم، ولكن كثيراً من الناس لا يشكرون الله سبحانه عليها باستخدامها في طاعته، والقليل منهم من يفعل ذلك.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فالذي أنعم عليكم بهذه النعم ومنها نعمة الليل والنهار، هو الله الذي خلقكم ورباكم بنعمه الكثيرة، وهو خالق الأشياء كلها كما خلقكم، وهو سبحانه المستحق للألوهية وحده لا شريك له، ثم عقب على هذه الحقائق باستفهام تعجبي من انصرافهم عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره، مع وضوح الحجج والبراهين في استحقاقه لها، فكما تقرون أنه لا يوجد خالق غير الله، فكذلك لا معبود بحقٍ إلا الله، وكما صرفتم

عن الحق الواضح البيّن، فكل من جحد بآيات الله، وتكبر عن التأمل فيها، فإنه يصرف عن الحق ولا يُوفق للهداية، وهذه عادة مُطّردة في عاقبة التكبر قديمًا وحديثًا، وفي الآية إشراكٌ للمخاطَبين بها، فانصرافهم عن الحق وعدم الإيمان به هو بسبب تكبرهم، والآية عامة تصلح لكل زمانٍ ومكان، فلا يهتدي إلى الحق ولا يُوفق إليه إلا من تأمل فيه وتواضع له وقبله، وأما من أعرض عنه واستكبر عن سماعه وتدبره، فإن الله يحرمه الهداية ويُزيغ قلبه عن قبوله، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[الصف: ٥].

ثم قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٤﴾، ثم ذكر نعمه المتتالية على الخلق، ومنها: أنه هيّأ لهم الأرض ومهدها وجعلها صالحة للاستقرار عليها والسكن فيها، بخلاف غيرها من الكواكب كالمريخ وزحل ونحوها، فلا يوجد فيها وسائل للحياة عليها، وجعل السماء بناءً مرتفعًا ثابتًا لا يزول، وهو سقف لكل المجرات الكونية ومن ضمنها الأرض، وخلقكم فأحسن خلقكم، وعبّر عن هذا الخلق بالتصوير؛ لأن التصوير فيه معنى العناية بالشيء، فهو يشمل تشكيل الخلق وتركيب الصورة الحسنة على ذلك الخلق، فتجعلُ من الإنسان مخلوقًا جميلًا، وأمدكم بأحسن رزق، فجمع لكم بين حسن الإيجاد وبين حسن الإمداد، وهو الرزق من أحسن الطيبات(1)، **والطيبات، تأتي بمعنى:** الحلال،

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 191).

والأشياء اللذيذة، والأشياء المكتملة الصفات، والطاهر[1]، والمقصود كل طيب من مأكل ومشرب ومنكح، وملبس ومنظر ومسمع ونحوها[2]، فالله هو الذي أوجد لكم هذه الأشياء وأعطاكم هذه النعم على سبيل الامتنان بها عليهم، وهو الذي رباكم بالنعم فيجب عليكم عبادته وطاعته، فتبارك الله، **أي**: زاد خيره وكثُر، وهذا اللفظ لا يُطلق إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو ربُ كل المخلوقات، فكل عَالَم من الخلق فالله خالقه وموجده، والمقصود هنا أنه خالق أجناس العقلاء من الناس والملائكة والجن؛ لأنها أشرف أجناس الموجودات، وهم الذين يعقلون ويستحضرون ما أنعم به عليهم من خيرات الإيجاد والإمداد[3].

ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾، هو الله الحي الذي له الحياة الكاملة التامة، وإن وُجد أحياء يشتركون مع الله في الحياة إلا أن حياتهم مؤقتة وناقصة، وأتى به هنا ليُشنع على آلهتهم من الأصنام الميتة التي لا تسمع ولا تُبصر، فلا معبود بحق إلا الله، فادعوه وحده دون سواه، وهذا يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، وأخلصوا في دعائه وعبادته وطاعتكم له، فلا تشركوا به شيئًا ظاهراً وباطنًا، وأثنى على نفسه؛ لأنه هو من يستحق الحمد، فجميع المحامد والمدائح والثناء، قولاً وفعلاً من العباد لله وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه

---

(1) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: (3/ 148).

(2) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 741).

(3) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 192).

على الخلق أجمعين.

ثـم قـال: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٦﴾، أمر الله نبيـه أن يبلـغ النـاس أن الله نهاه عن عبادة غيره من الأصنام والأوثان ونحوهـا، ودعائهـا مـن دونـه، وهـذا النهـي لـيس المخاطـب بـه محمـداً ﷺ وحـده، بـل هـو لأمتـه كلهـا مـن بعـده، وخـص الرسول ﷺ بالذكر؛ ليشعرهم أنـه يـدعوهم إلـى مـا يريـده لنفسه، وأنـه صـادق معهم في النصيحة؛ وذلك لوضوح الحجج والبراهين على بطلان عبادة غير الله، وقد جاء بها الرسل جميعـًا، ويستطيع أصحاب العقـول الـسليمة الوقـوف عليهـا في آيات الله الكونية، من خلال التدبر والتأمل، **وصدق من قال:**

وفي كـل شـيءٍ لـه آيـة ... تـدل علـى أنـه الواحـد[(1)]

كما أمر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نبيه ﷺ بـأن ينقـاد ويستسلم لأمـره في كـل شـيء، والأمر كذلك لأمته، فالله هو المعبود وحده لا شريك له؛ لأنه مربـوب للعـالمين ومالكهم أجمعين.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تعـداد نعـم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علـى خلقـه مـن أجـل أن يـشكروه بخـضوع القلب والاستسلام له بالجوارح.

2- أن من يستحق العبادة هو الحي الذي لا يموت، وكل مـن عُبـد مـن دون

(1) ديوان أبي العتاهية: (ص: 45).

الله، فعبادتهم باطلة.

3- أهمية الإخلاص، فهو إكسير العمل فلا يكون في عمل قليل إلا كثّره، ولا يضعف في عمل كثير إلا قلّله، فراقب الله في عبادتك وطاعتك، وفيما تأتي وتذر.

تفسير المقطع الثامن من سورة غافر

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ
لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا
مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ
وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ
يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ
إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾، أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مراحل وأطوار خلق الإنسان، **فالطور الأول**: خلق آدم من تراب، **وفي الحديث**:

"إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك"(1)، فما ترونه في أخلاق الناس من الليونة والشدة وسائر الصفات هو أثر من آثار تنوّع التراب الذي خُلقوا منه، **والطور الثاني للخلق**: خلق حواء من آدم، **كما قال**: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]، **ثم الطور الثالث للخلق**: وهو التناسل للخلق من نطفة، وهي مني الرجل إذا لقحت به بويضة المرأة، فتبقى أربعين يومًا في رحم المرأة ثم تتعلق بجدار الرحم، فتسمى علقة، ومن العلقة يتكوّن باقي أجزاء الجنين وينمو جنينًا مكتملًا في بطن أمه، ثم يخرج بالولادة طفلاً، وهو المتطفل على غيره، فهو لا يستطِع أن يعيش إلا بأمه، فهي القائمة بكل شؤونه، ثم يُربيكم وينميكم بنعمه حتى تبلغوا مرحلة الأشد، وهي تبدأ من عُمْر ثلاثين سنة وقيل أربعين سنة، **كما قال**: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[الأحقاف:15]، وهي مرحلة الشباب والقوة والنشاط والحيوية، ثم يكبر ويصير في مرحلة الشيخوخة، وهي تبدأ من عُمْر خمسين سنة وما بعدها، وهي المرحلة الأخيرة من حياة الإنسان، فقد أصبح فيها شيبةً هرمـًا ضعيفًا، ومنكم من يموت قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطًا، ومنكم من يتوفى صغيراً، أو شابـًا، أو كهلاً قبل الشيخوخة، ومن كُتب له الحياة يستمر في هذه الأطوار كلها حتى يصير شيبةً هرمًا، ويبلغ أجله الذي كُتب له في اللوح المحفوظ، وتنتهي عنده أعماركم، فلا يتجاوزه أحد أو ينقص عنه

(1) مسند أحمد: (32/ 353)، برقم: (19582)، وسنن أبي داود: (4/ 222)، برقم: (4693)، وإسناده صحيح.

أحد، وما ذكرناه لكم من أطوار حياتكم ومراحل أعماركم الغاية منه أن تتفكروا فيها؛ فتعلمون أن الذي خلقكم بهذه الأطوار هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فمن عقل عن الله ذلك فهو صاحب العقل الراشد، ومن عبد غير الله، فليس بصاحب عقل راشد ولو كان من أذكى خلق الله، فمثلًا: العالم الهندي الذي يخترع الذرة ويطورها، ولكنه يعبد البقرة ويسجد بين يديها ويتبرك بأبوالها!!، فهذا عقله غير راشد، فالعقل الراشد هو العقل الذي يوصل إلى الله والإيمان به سبحانه.

ثم قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨ ﴾، وهو الذي بيده سبحانه الحياة والموت، فيأخذ الحياة من الشخص الحي فيصير ميتًا، ويمنح الحياة للشخص الميت فيصير حيًا، فبيده الإحياء والإماتة، وما يفعله الخلق في الإماتة والإحياء إنما مجرد أسباب في ذلك، والمحيي والمميت حقيقة هو الله، ولو ادعى ذلك المخلوق، فذلك دليل على خفة عقله، كما حصل من النمرود عند مجادلة الخليل إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ له، فقال النمرود: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾، فإني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل[1]، فلم يدخل إبراهيم معه في جدال في هذا الموضوع لسخافة عقله، بل نقله إلى دليل آخر، كما في قوله: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة:258]، لأنه لا يملك قدرة على المغالطة فيه كما فعل في هذا المثال الأول، وإذا أراد الله

(1) تفسير ابن كثير: (1/ 686).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمراً في هذا الكون من خلقٍ وإماتةٍ ورزقٍ وشفاءٍ ورفعةٍ وذلةٍ ونحوها، فإنه يكون ويقع سريعًا بأمره له بكن، فيكون من غير كلفة ولا مشقة.

ثم قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾، تكرر في هذه السورة الحديث عن الجدال بالباطل مما يدل على أنه طبع متجذر في الكفار، والخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ولغيره، والرؤية قلبية بمعنى العلم، والمقصود بآيات الله هي الآيات الشرعية والآيات الكونية حيث حرصوا على إبطالها وتكذيبها بالجدال الباطل، والاستفهام تعجبي من صنيعهم هذا، فكيف يصرفون عن الإيمان بها مع قيام الأدلة على صحتها، وأنها موجبة للتوحيد.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾، ثم توعد كل من كذب بالكتب السماوية وما أرسل به رسله وأنبياءه من الشرائع، والكتاب اسم جنس، فيشمل القرآن الكريم الذي أنزل على محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ويشمل كل كتابٍ أنزل على الرسل قبله، وما أرسل به الرسل، إشارة إلى السنة، فإن الوحي إما أن يكون قرآنًا أو جاء على لسان الرسول من غير القرآن، فسوف يعلمون العقوبة الواقعة عليهم بسبب تكذيبهم وكفرهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الآخرة، وهو أسلوب يفيد التهديد والوعيد لهم، ثم بيّن عقوبتهم، فإن ملائكة العذاب تغل أيديهم وتربط إلى أعناقهم بالسلاسل، أو أن تربط السلاسل في أرجلهم، ثم يسحبون بها[1] في ماء شديد الحرارة حتى تسلق

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 574).

أجسادهم ثم يُوضعون في النار فتشتعل بهم النار، فجمع لهم بين نوعين من العذاب، سلق أجسادهم بالماء شديد الغليان، ثم إحراق أجسادهم في النار، نسأل الله السلامة والعافية، وتقول لهم ملائكة العذاب: أين شركاؤكم من الأصنام وما تعبدون من دون الله؟! لماذا لا ينقذونكم اليوم من هذا العذاب؟!، فيجيب أهل النار: غابوا عن عيوننا فلا نراهم اليوم حتى نستشفع بهم، وعلى عادتهم في الكذب والمكر، قالوا: لم نكن مشركين في الدنيا، بل كنا مؤمنين[1]، وهو إنكار منهم لعبادة الأصنام بعد الاعتراف بها؛ لاضطرابهم من الرعب[2]، فيكذبون على أنفسهم بين يدي الله، وهذا من قُبح أخلاقهم وانتكاس فطرتهم، فرد الله عليهم: أن مثل ذلك الضلال يضل الله الكافرين، حيث عبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلى النار[3]، ويضل الله جميع الكافرين؛ لأنهم تنكبوا الصراط، وذهبوا في طريق الضلال.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾، **أي:** إن الضلال لكم في الدنيا والعذاب الذي يحصل لكم في النار هو بسبب فرحكم بما يسركم من الباطل كالكفر بالله والمعاصي والمنكرات، وهو فرح أشر وبطر واستغلال للنعمة في معصية الله، **والفرح:** المسرة ورضى الإنسان على أحواله، فهو انفعال نفساني، **والمرح:** ما يظهر على الفارح من الحركات في مشيه ونظره

(1) ينظر: تفسير الرازي: (27/ 533).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 205).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 575).

ومعاملته مع الناس وكلامه وتكبره، فهو هيئة ظاهرية(1)، وقيّد الفرح المذموم بغير الحق؛ لأن الفرح بالحق جائز، **كما قال الله:** ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[يونس:58]، أما الفرح بغير الحق فهو مذموم ومنهي عنه، **كما قال عن قارون:** ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾[القصص:76]، والفرح المذموم بالكفر والشرك يوجب العقاب لأصحابه، ولذا أمرهم أن يدخلوا أبواب جهنم السبعة المؤدية إلى طبقاتها ودركاتها، فهناك موضع إقامتهم، فلا يخرجون منها بل يمكثون فيها أبدًا، فقبح مستقرُّ المتكبرين عن الحق الفرحين المرحين بالباطل، ومن الأخطاء التي تسمعونها اليوم قولهم: فلان انتقل إلى مثواه الأخير، والقبر ليس المثوى الأخير، بل مدة بقاء الميت في القبر فترة محدودة، ثم يُبعث ويُحاسب ويذهب به إلى المثوى الأخير، وهو الجنة أو النار، ونص على الوصف الذي استحقوا به النار وهو الكبر، لأنه سبب كفرهم وإعراضهم عن الحق.

ثم قال: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾، أمر الله نبيه ﷺ بالاستمرار على الصبر على أذى قومه له، وقد كان ﷺ إمام الصابرين، وأخبره أن وعد الله بنصره عليهم آتٍ لا محالة، إما في الدنيا، أو في الآخرة، فقد يُصيبهم العذاب ويُعاقبون وأنت حيٌّ وترى ذلك بعينك، كما حصل لهم في غزوة بدر وغيرها، أو أن يعاقبهم في الدنيا بعد وفاتك، أو يؤخر عذابهم إلى يوم القيامة حين يرجعون إليه، وهناك يكون العقاب

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 206).

الأخروي لهم، وفي الآية تسلية للنبي ﷺ على ما فعله به المشركون من الإساءة إليه والإعراض عن دينه.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- التدرج في الخلق سنة إلهية، وعلى الإنسان أن يتعلم من هذه السنة، فيتدرج في كل أعماله وأحواله.

2- أن الفرح قسمان: فرح مذموم، وهو الفرح بالباطل والكفر، وفرح ممدوح، وهو الفرح بالطاعة والعبادة.

3- تنوع عذاب أهل النار لتنوع ذنوبهم، جزاءً وفاقًا.

4- أهمية الصبر في حياة الإنسان، وخاصة في حياة الدعاة؛ لأذية أهل الباطل لهم.

تفسير المقطع التاسع من سورة غافر

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ
عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ
وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا
تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى
ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ
وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا
قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا
رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾، هذا الخطاب لنبينا محمد ﷺ، يُخبره الله تعالى أنه قد بعث قبله رسلًا كثيرين قص عليه خبر بعضهم، وهم

المذكورون في القرآن، **وهم**: أربعةٌ وعشرون رسولًا ونبيًا، أو ذكرهم له في السنة، وأغفل عدداً منهم لم يقص خبرهم عليه؛ لأن الهدف هو ذكر ما فيه العظة والعبرة منهم، وفي هذا العدد ما يكفي ويُغني عن غيره، وقد وردت بعض الروايات في عددهم، إلا أنها لا تخلوا من ضعف، **أشهرها حديث**: أن النبي ﷺ سُئل عن عدد الأنبياء فقال: "مائة وأربعةٌ وعشرون ألف نبي، جمٌّ غفير"، وسُئل عن الرسل فقال: ثلاثمائة وخمسة عشر"(1)، فيكون عدد الرسل بعدد أهل بدر، وعدد الأنبياء بعدد الصحابة الذين حجوا مع رسول الله ﷺ، ولا يضر الجهل بعددهم، ولا بأسمائهم، فالمطلوب من المسلم أن يُؤمن بكل أنبياء الله ورسله، علم أسماءهم أو لم يعلم، والمقصود بالآية هنا المعجزة التي تكون على سبيل التحدي، وكان كفار قريش يُطالبون النبي ﷺ بمجموعة من المعجزات، فبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن مجيء المعجزة ليس إلى الرسول، وإنما هي إلى الله، إن شاء أتى بها وإن شاء لم يأتِ بها، والرسول مُكلّف بإبلاغ الرسالة التي أرسل بها، فإذا أذن الله بمجيء المعجزة ووقعت، وظهر صدق الرسول، فقد حكم الله تعالى لرسوله بالحق على مكذبيه، وجاءهم عذابه ونكاله، لتكذيبهم بالمعجزة بعد طلبهم لها، فيهلك به الكفار المعاندون، وينجّي الله الرسل، ويخسر المتمسكون بالباطل أنفسَهم وقت نزول العذاب بهم، لأنهم أوردوها موارد الهلاك بسبب كفرهم وتكذيبهم.

---

(1) مسند أحمد: (36/ 618)، برقم: (22288)، وتفسير ابن أبي حاتم: (1/ 182)، برقم: (962)، وإسناده ضعيف.

ثم قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾، هذا امتنان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على خلقه، حيث عدّد لهم النعم التي أنعم بها عليهم وسخرها لهم، ومن هذه النعم: تسخير الأنعام، وهي أربعة أصناف من الحيوان: الإبل، والبقر، والضأن، والماعز، و"**مِن**" **الأولى** للتبعيض؛ لأن بعضها لا يُركب، والذي يُركب من الأنعام هو الإبل فقط، و"**مِن**" **الثانية** بيانية؛ لأن الأصناف الأربعة كلها يؤكل لحمها، وفيها منافع للخلق غير الركوب وغير الأكل، وهي: الحليب والسمن والصوف والجلود وغير ذلك مما يُستفاد من الأنعام، وسخرها لكم لكي تبلغوا بما يركب عليه منها وهي الإبل إلى المكان الذين تريدون الوصول إليه، وعلى الإبل تُحملون أنتم وأمتعتكم، لأنها هي التي يتم الحمل عليها من الأنعام، كما تُحملون كذلك على السفن في البحر، فجمع بين سفينة الصحراء وهي الإبل، وسفينة البحر، فتركبون عليهما وتُسافرون إلى حيث شئتم، والرؤية هنا تحتمل معنى النظر، وتحتمل معنى العلم، وآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تشمل الآيات الكونية والآيات الشرعية الدالة على قدرته ووحدانيته وألوهيته، والاستفهام تعجبي استنكاري، والمعنى: أي آية من آيات الله تُنكرونها أو لا تعترفون بها؛ لكثرة الآيات وتعددها، فإذا أنكروا واحدة لزمهم أن يعترفوا بالأخرى لكثرتها!.

ثم قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن

قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾، قد سبق معنا في بداية السورة قريبًا من هذه الآية، وبيّنا أن المقصد منها حث المخاطبين على السير في الأرض والتفكر في آثار الكفار الذين عاقبهم الله بسبب كفرهم قبل قريش، وكانوا في جزيرة العرب وخارجها كقوم عاد وثمود وغيرهم، وكانوا أكثر من قريش عدداً وأقوى وأشد قوة في الأرض، فلم تنفعهم كثرتهم ولا شدة قوتُهم ولا ما أثروه في الأرض، ولا ما جمعوه من الأموال، حينما نزل بهم عذاب الله فأهلكم الله.!

وقولـــه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾، الضمير عائد إلى الأمم المكذبة قبل قريش، فقد جاءتهم رسلُهم بالحجج والبراهين على صدق نبوتهم ورسالتهم، فكفروا وكذبوا بسبب استغنائهم بما عندهم من الظن الذي حسبوه علمًا، لأن استحداثهم للأصنام وتسميتها آلهة وعبادتهم لها ليس فيه أثارة من علم عند أهلها، بل كلها ظنون وأوهام منافية للعلم الصحيح الناتج عن الحجج والبراهين وإعمال النظر والفكر، فاستغنوا بها عن تصديق الرسل، وأطلق العلم على الظن بحسب معتقدهم من باب التهكم والسخرية بهم، وقد كانوا يطلبون العذاب من رسلهم على سبيل الاستهزاء والاستعجال له، **كما قال:** ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[المعارج:1]، فجاءهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه ويستهزؤون

به من كل جانب، فلما نزل بهم العذاب أعلنوا الإيمان والتصديق بالله وحده، وكفروا بكل الآلهة التي كانوا يعبدونها من قبل، وهذه هي طبيعة الكافر إذا رأى الموت أعلن الإيمان وصدّق بالله، **كما أخبر الله عن فرعون، في قوله:** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ﴾[يونس:90]، والإيمان والتوبة لا تقبل في **ثلاث حالات، الأولى:** هذه، وهي حالة نزول عذاب الاستئصال، **والثانية:** عند ظهور إحدى علامات الساعة الكبرى، مثل طلوع الشمس من مغربها، **كما قال:** ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾، [الأنعام:158]، **والثالثة:** عند نزول مرض الموت بالشخص وبلوغ روحه الحلقوم، **كما في الحديث:** "تقبل توبةُ أحدكم ما لم يُغرغر"[(1)]، ففي هذه الحالات لا يُقبل الإيمان ولو أتوا بشرطيه، كما وقع منهم هنا، وهما: الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت، وسنة الله هنا هي عادته الجارية في إهلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين، فسنن الله تعالى تعمل في الكون بانتظام وإحكام، فلا تتغير ولا تتبدل، **كما قال:** ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[الأحزاب:62]، وكل الكفار محكوم عليهم بالخسارة عند نزول عذاب الاستئصال بهم؛ لعدم إيمانهم، والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر، وهو الكافرون، إيماء إلى أن سبب خسرانهم هو الكفر بالله، وذلك إعذار وتهديد للمشركين من قريش[(2)].

---

(1) مسند أحمد: (10/ 300)، برقم: (6160)، وسنن الترمذي: (5/ 438)، برقم: (3537)، وإسناده حسن.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 223).

فوائد وهدايات من الآيات:

1- كثرة عدد أنبياء الله ورسله، وأنه لا يُحصيهم إلا لله، والواجب على المسلم أن يؤمن بهم إجمالًا، ويؤمن بنبينا محمد ﷺ على سبيل التفصيل.

2- أن مجيء المعجزة ليس إلى الرسول، وإنما هي إلى الله، إن شاء أتى بها وإن شاء لم يأتِ بها، والرسول مُكلّف بإبلاغ الرسالة التي أرسل بها.

3- أن نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الخلق كثيرة جدًا، ومنها تسخير الأنعام والفُلك من أجل أن يستدلوا بها على قدرته فيُؤمنوا به جلّ وعلا.

4- خطورة الفرح بالكفر بالله وبالباطل، وإظهار ذلك.

5- خطورة الاستغناء بالجهل عن العلم، أو بالظنون عن الحقائق، أو بالشبهات عن الأدلة، وواجب المسلم أن يبحث عن الحق عن طريق العلم والمعرفة والحجة والبرهان ليصل إليه بيقين.

6- عدم قبول الإيمان والتوبة في ثلاث حالات، وهي: عند الغرغرة، وعند نزول عذاب الاستئصال، وعند ظهور علامات الساعة الكبرى.

تفسير سورة فصّلت

تفسير المقطع الأول من سورة فصّلت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا
لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ
أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ
٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ
وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ
٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ
لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ
سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ
تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾.

شخصية السورة:

سورة فصلت؛ وتُسمى بـ"حم السجدة"[1]، سورةٌ مكيـة[2]، **من مقاصـدها:** بيان حال المعرضين عن الله وذكر عاقبتهم.

ابتدأت بـ ﴿حمٓ ١﴾، وقد سبق بيان أن هذين الحرفين من أحرف الهجاء التي تتكوّن منها لغة العرب.

وقولـه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾، **أي:** أن القـرآن الكـريم نزّلـه الله الرحمن الرحيم، ومن آثار رحمته إنـزال القـرآن الكـريم الـذي فيـه هداية النـاس وإخراجُهم من الظلمات إلى النور.

وقولـــه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾، **أي:** وهـــو كتابٌ بُيّنت ووضّحت آياته أتم بيان وأبلغ توضيح، والآياتُ: جمع آية مجموعة من الكلمات التي تحتوي جملة أو جملاً مفيدة، ومن الآيات تتكوّن السور، ومن السور يتكوّن القرآن الكريم، ونُصب لفظ القرآن على أنه حال، **أي:** فصّلت آياته حال كونه قرآنـًا عربيـًا، لكي يعلم معانيـه ويفهمهـا أهـل اللسان العربـي[3]، فيهتدون بها إلى الحق.

وقولـــــه: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ

(1) تفسير الثعلبي: (8/ 285).

(2) تفسير ابن كثير: (7/ 161).

(3) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 579).

أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾، وصف الله القرآن بأنه مُبشر للمؤمنين، بما اشتمل عليه من الآيات المبشرة لهم، ونذير للكافرين المكذبين، بما فيه من الوعيد لهم، فأعرض أكثر الكافرين عن سماعه والاهتداء به، والمقصود بهم كفار قريش، فلم يستمعوا إليه سماع اتعاظ واستجابة لما فيه من الهدى والبينات، بل أعرضوا عن ذلك، وادّعوا أن على قلوبهم أغطية، فلا تفهم ما يقال لها ولا ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ، وأن آذانهم مسدودة قد أصيبت بالصمم، فلا تسمع شيئًا مما يقوله لهم، والمقصود به الصمم المعنوي، فآذانهم مفتوحة ويسمعون الكلام، ولكنهم نفوا عن أنفسهم سماع الفهم والاستيعاب، وادّعوا أيضًا أن بينهم وبين رسول الله ﷺ ستر فلا يرونه، ولا يصل إليهم شيءٌ مما يعظهم به، وقصدوا بذلك مخالفته إياهم ودعوته إلى الله دون أصنامهم، وأن هذا أمر يحجبهم عنه[1]، وهم بهذا قد سدوا منافذ العلم كلها، وهي: القلب والسمع والبصر، فهذه الثلاث الطرق هي التي يصل بها الإنسان إلى معرفة الحق والهداية، وإذا لم تستخدم استخدامًا صحيحًا فلن يصل صاحبها إلى الحق ولن يهتدي به، وأكدوا قناعتهم بما هم عليه من الباطل باستمرار العمل به، بقولهم: اعمل يا محمد بما اقتنعت به من دينك، ونحن نعمل بما اقتنعنا به من ديننا، وهذا يدل على شدة إعراضهم وإصرارهم على الكفر والضلال، وهو من أعظم الخذلان.

---

(1) ينظر: تفسير ابن عطية: (5/ 4).

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾، فأمره الله أن يبلغهم بصفته ووظيفته، فهو بشر مثلهم، وليس بيده من الأمر شيء، ولا عنده ما يستعجلون به، ولكن الله فضّله على سائر الخلق بالوحي الذي أوحاه الله إليه، وعنوانه وأسُّه هو الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، فلا إله غيره، ولا رب سواه، وأمره باتباعه ودعوة الناس إليه، فتوجهوا إليه بالطاعة، واستووا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة، ولا تميلوا عن سبيله[1]، واسلكوا الطريق المستقيم الموصل إلى هداه، وأمرهم بملازمة الاستغفار؛ لأن العبد معرّض للتقصير والزلل، فيعالج ذلك بالاستغفار، ثم هدّد المشركين بالهلاك في الدنيا والآخرة، الذين من صفاتهم أنهم لا يُؤتون الزكاة، والمقصود بها مطلق الصدقة المستحبة؛ لأن السورة مكية، والزكاة الواجبة لم تُفرض إلا في السنة الثانية من الهجرة، أو يقصد بها تزكية النفس بالتوحيد والبعد عن الشرك[2]، ولا مانع أن يقصد بها المعنيين معًا، فلا تعارض بينهما، ومن صفاتهم أنهم يُنكرون البعث والنشور، ولا يُؤمنون بما فيه من الحساب والثواب والعقاب.

ثم قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾، ثم ذكر حال المؤمنين وجزاءهم في الآخرة، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح في

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 226).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 46).

الدنيا، بأن لهم ثوابًا غير مقطوع ولا منقوص، وهو ثواب الجنة، فإنها دار الخلود.

ثم قال الله: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ١٠﴾، قل يا محمد للكفار الذين رفضوا الإيمان بك وبرسالتك: إنكم لتكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين، وهو تفصيل لقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾[يونس:3]، فأول ما بدأ الله بخلق الأرض في يومين، لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس، ثم خلق السموات في يومين؛ لأنها كالسقف للأرض، ثم عاد إلى الأرض فأثبتها بالجبال الراسية حتى لا تضطرب، وبارك فيها بما خلق فيها من المنافع، وقدّر فيها أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، وهو المذكور في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾[النازعات:30-32]، ثم جمع اليومين السابقين باليومين اللاحقين فكانت أربعة أيام، **والمراد**: في مدة تساوي أربعة أيامٍ مما عرفه الناس بعد خلق الأرض[1]، **والأنداد**: الأشباه والأمثال، وهو إشارة إلى كل ما عُبد من دون الله من الملائكة والأصنام ونحوها التي اتخذها المشركون آلهة، والله لا ند له ولا شبيه، ولا ظهير، وليس له كفوًا أحد، بل هو رب العالمين، المستحق وحده للعبادة، وقد فصّل لكم ذلك جوابًا لكل من سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه، أو أنه أوجد في الأرض ما يحتاج الخلق إليه

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 242).

جوابًا لكل سائل ومحتاج، لأنهم من شأنهم ولا بد أن يطلبوا ما ينتفعون به[1].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾، أي: عمَد وقصد إلى خلق السماء، بعد أن خلق أصل الأرض في يومين، والدخان هو البخار المتصاعد، الذي خرج من الأرض بعد خلقها وارتفع فوقها، فأوجد السماء وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: أعطيا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما، وإلا أتيت بكما كَرْهًا، فاختارتا الانقياد الطوعي؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُخالفه أحد من خلقه، فنطقتا بامتثال الطاعة والخضوع والتذلل لله حقيقة، حيث جعل الله لها حياة وإدراكًا يقتضي نطقها[2]، فأتم خلقها سبع سموات في يومين آخرين، ودبّر وقدَّر كل ما يحتاج إليه أهل كل سماء، وخلق النجوم المضيئة وجعلها زينة للسماء الدنيا، وهي التي فوق الأرض، وجعل هذه النجوم حفظًا للسماء من الشياطين الذين يحاولون استراق السمع منها، فإذا اقترب منها شيطانٌ رُجم بشررٍ من هذه النجوم، وكل ما سبق ذكره من تفاصيل خلق الأرض والسماء هو بتقدير الله العزيز، الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم وأحوالهم وما يُصلحُهم، ومن حكم خلق الأرض والسموات في ستة أيام مع أن الله قادر على خلقهما في لحظة؛ إشعارنا

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 166).

(2) ينظر: تفسير ابن عطية: (5/ 7).

بأهمية سنة التدرج في الحياة، ليستفيد الإنسان منها في حل مشكلاته وإنجاز أعماله.

فوائد وهدايات من الآيات:

1 - أن الكفار عطّلوا وسائل العلم والهداية، فحُرموا الإيمان.

2 - بيان أهمية النفقة والصدقة في الإسلام حتى قبل أن تُفرض الزكاة؛ لأنها تدل على التكافل وطيب النفس ونقائها من الشح والبخل.

3 - أن الكون كله مستسلم لأمر الله، وخاضع ومنقاد لتوجيهاته، وبعض المكلفين من الإنس والجن يتمردون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يطيعون أمره، بسبب جهلهم بالله.

تفسير المقطع الثاني من سورة فصّلت

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ
صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ
يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ
عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن
يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ
جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ

مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾، الخطاب موجّه لكفار قريش، حيث أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله وكفرتم به، فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلّت بالأمم السابقة المكذبين قبلكم، ويُصيبكم العذاب كما أصاب قوم عاد وثمود، حيث أرسل الله عليهم صاعقة فأهلكتهم، والصاعقة: كلّ ما أفسد الشيء وغيّره عن هيئته[1]، وذكر عاداً وثمود لمعرفة قريش بها وقرب مساكنهم منها، فثمود هم قومُ صالح، ومسكنهم في العُلا بين تبوك والمدينة، وعاد هم قوم هود، ومساكنهم في الأحقاف، ثم بيّن سبب هلاكهم وهو كفرهم بالرسل الذين تتابعوا عليهم وكانوا حريصين على هدايتهم، فقد نوّعوا لهم وسائل الدعوة، واهتموا بدعوتهم، ولم يتركوا وسيلة يتوسل بها إلى إبلاغهم الدين إلا توسلوا بها إليهم، وكانت مهمة جميع الرسل وغايتهم واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وحده لا شريك له، إلا أن أقوامهم كفروا بهم وأعرضوا عن الاستجابة بشبهة باطلة، وهي أن هؤلاء الرسل من البشر، كما في قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾[التغابن:6]، وكانت شبهتهم أن الله لو أراد لنا الهداية والإيمان؛ لأرسل إلينا ملائكة ينزلهم من السماء، ولكنه لم ينزل إلينا ملائكة، فهو لم يشأ أن يرسل إلينا رسولاً، وهذا من كِبرهم وغطرستهم، ويتضمن كفرهم بالرسل من البشر إليهم، والأصل أن يكون الرسول من جنس المُرسَل إليهم؛ حتى يشاهدوه ويقتدوا به، ولو أرسل الله رسولاً من الملائكة إليهم؛ لما استطاعوا أن يروه إلا إذا ظهر بصورة بشر،

---

(1) تفسير الطبري: (21/ 442).

فتختلط عليهم شخصية الرسول هل هو بشر أو ملك؟ كما قال الله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:9]، فكفروا بالرسل من البشر وما جاءوا به جملة وتفصيلًا، مما يدل على عنادهم وقلة عقولهم، وعدم تأملهم بما جاءت به الرسل من الحق.

وقوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾، **الفاء** تسمى فاء التفريع، وتأتي للتفصيل بعد الكلام الإجمالي، فبعد أن ذكر الوصف المشترك لقوم عاد وثمود، فصّل في صفات كل قوم وما حصل لهم، فأما قبيلة عاد فمنعهم عن الإيمان الكِبر، والسين والتاء هنا للمبالغة، **أي**: بالغوا في التكبر في أرضهم التي كانوا يعيشون عليها.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، زيادة في تشنيع استكبارهم، فإن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا، ولا مبرّر له بوجه من الوجوه؛ فالمخلوق ناقص وضعيف، ولذلك كان الكبر من خصائص الله تعالى، وقد صرّحوا بسبب استكبارهم ونطقوا بألسنتهم بأنهم أقوى الناس على وجه الأرض، ولا يوجد من هو أشد منهم قوة، فاغتروا بقوة أجسامهم وكثرة عددهم، وادّعوا أنهم لا يغلبهم أحد، فردّ الله على غرورهم وكبرهم بما هو معلوم لكل أحد، وهو أن الله الذي خلقهم وأعطاهم هذه القوة، هو أشد منهم قوة، وهي حقيقة يُقرون به؛ لأنهم لم يخلقوا أنفسهم، لكنهم لكبرهم وعنادهم جحدوا بآيات الله ولم يعترفون بها، فعاقبهم على ذلك

بإرسال الريح شديدة البرودة وقوية السرعة، ومن قوة سرعتها وشدة برودتها تُحدث صوتًا مرعبًا[1]، **والنحس**: ضد السعد، ويرتبط بالشخص لا باليوم، فأيام الله كلها خير، ونسبة النحس إلى الزمان أو إلى المكان من خرافات الجاهلية، فالنحس والسعد يرتبطان بالشخص، **فيُقال**: هذا يومُ نحسٍ على فلان؛ لأنه نحِس نفسُه فيه بسبب معصيته أو كفره، وهذا يُوم سُعْدٍ على فلان؛ لأنه أسعد نفسه فيه بطاعة الله، والأيام النحسات هي أيام هلاكهم، وهي التي ذكرها الله في قوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾[الحاقة:7]، **قيل**: إنها كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء[2]، **أي**: ابتدأت صباحًا وانتهت مع الغروب، فصار عددها سبع ليال وثمانية أيام، واللام للتعليل، **أي**: كان عقابُهم بالريح ليذوقوا العذاب الذي أخزاهم الله به في الدنيا؛ لأن هلاكهم كان بالريح، وهي عند العرب من أضعف الأشياء، فعاقبهم الله بأضعف جنوده؛ لافتخارهم بقوتهم، فنزل بهم الخزي، وهو الذل والاستكانة بهذا العذاب، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة الشديد، وهو أكثر وأعظم خزيًا من عذاب الدنيا، وهم لا يُنقَذون من ذلك، وما لهم من الله من واق.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾، وهذا بيان لحال ثمود وهم قوم صالح، فقد أرسل الله إليهم من يرشدهم ويبيّن لهم طريق

---

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 169).

(2) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي: (ص: 1913).

الحق من الباطل، والخير من الشر، ولكنهم أعرضوا عن ذلك واستحبوا، فالسين والتاء للمبالغة، **أي:** فضّلوا أن يبقوا في الكفر والضلال، وأعرضوا عن الهدى، وهو ما جاءت به الرسل من الحق والإيمان، وعبّر عن الكفر بالعمى؛ لأنه لا نور فيه، كالأعمى الذي يمشي وهو لا يدري ما أمامه، والصاعقة هي: النار التي تنزل من السماء إلى الأرض فتصيب من يستحق العذاب[1]، **أي:** بعث الله عليهم عذاباً أهلكهم به، فأذلهم وأهانهم به، والحكمة من أخذ قوم ثمود بالصاعقة؛ لأنهم استحبوا الضلال الذي هو مثل العمى، فكان جزاؤهم الهلاك بصاعقة تنزل بهم تعمي أبصارهم، وكان في هلاكهم مذلة لهم، فقد استؤصلوا عن بكرة أبيهم[2]، ونجّى الله من قوم هود ومن قوم عاد كل مؤمن تقي منهم، وهذان شرطان للنجاة من أي مصيبة: الإيمان والتقوى، فمن أراد أن يُنجيه الله من الهلاك في الدنيا ومن العذاب الآخرة؛ فليحقق هذين الشرطين.

ثم قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ١٩﴾، **الواو** حرف عطف، جملة على جملة، وأنذرهم يوم يحشر الله جميع أعدائه من قوم قريش ومن كان قبلهم من الأمم المكذبة، في يوم القيامة ويُساقون جميعاً إلى النار، **والوزع:** كف بعضهم عن بعض ومنعهم من الفوضى[3]؛ لأنهم يُحاولون التجمع بغرض الهرب، فتمنعهم الملائكة وتدفعهم بقوة وتردهم إلى أماكنهم،

---

(1) ينظر: تفسير السمعاني: (5/ 45).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 263).

(3) المصدر السابق: (24/ 265).

وقيل: يحبس أولهم على آخرهم ليلحقوا بهم، وهو كناية عن كثرتهم[1]، وكلا المعنين مرادٌ ولا تعارض بينهما.

وقولـــــــه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾، **أي**: حتى إذا وقفوا على النار[2]، وسألهم خزنتها عما كانوا يفعلون، فأنكروا، فشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بكل أعمالهم التي أنكروها، وهذه الشهادة غير شهادة الملائكة، والصحف، والأرض التي عملوا عليها المعصية، وما أحضروا إلى النار إلا وقد تحققت إدانتهم، إلا أن الكفار من كثرة كذبهم وإنكارهم وتعودهم على المماحلة في الدنيا، يأتون يوم القيامة فيدّعون أنهم مظلومون، فيختم الله على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم، فيكون ذلك زيادة في الخزي لهم لسوء اعتقادهم في سعة علم الله وإحاطته بهم، وذكر السمع والبصر؛ لأنها كانت وسيلة للمعرفة والعلم، والجلود اسم عامٌ يحوي باقي الجوارح، وتكون شهادة الجلود عليهم شهادة على نفسها بالأعمال السيئة التي كانوا يعملونها في الدنيا، فيظهر لهم استحقاقها للحرق بالنار، فوجّهوا اللوم للجلود فقط؛ لأنها حاوية لجميع الحواس والجوارح، فأنطق الله الجلود، واعتذرت بأن الشهادة جرت منها بغير اختيار منها، بل أنطقها الله الذي أنطق كل شيء مما ينطق من مخلوقاته، وليس ذلك

(1) ينظر: تفسير الألوسي: (12/ 367).

(2) تفسير ابن كثير: (7/ 170).

بعجيب على الله!، فقد خلقكم وأنشأكم أول مرة، وهو قادر على إعادتكم وبعثكم بعد موتكم ومحاسبتكم على أعمالكم.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾، وهذا من تمام خطاب الجلود لأصحابها، وما نافية، والمعنى: أنكم كنتم تفعلون الكفر والذنوب والمعاصي في الدنيا علانية، وما كنتم تتقون شهادتها[1]، فلا لوم عليها إن شهدت على ما هو معلن من أعمالكم، وكنتم لا تعتقدون أن الله يعلم جميع أفعالكم فاغتررتم بذلك، فالكفار لم يكونوا يرون ضرورة التستر في آثامهم؛ لأنهم بسبب جهلهم بالله كانوا لا يخطر ببالهم أن الله يراقبهم ويحصي عليهم أعمالهم، فكان هذا الاعتقاد الفاسد منهم بالله هو الذي أتلفهم وأهلكهم، وأسقطهم في جهنم فصاروا من الخاسرين.

ثم قال الله: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾، أي: سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا؛ هم في النار، وهي مقرهم ومسكنهم، ولا محيد لهم عنها، ولا خروج لهم منها، وأن يطلبوا العتبى، أي: الرضى عنهم[2]، ويسمح لهم أن يرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل، فلا يحقق طلبهم، ولا تقبل أعذارهم ولا تقال عثراتهم؛ لأن المطلوب من العبد أن

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 269).

(2) ينظر: تفسير القرطبي: (15/ 354).

يطلب رضى الله وهو في الدنيا، فهي دار العمل، أما الآخرة فهي دار الجزاء.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان حرص الرسل على هداية الناس واستخدامهم لكل الوسائل المتاحة لذلك.

2- أن الإيمان والتقوى، هما شرطا النجاة من الهلاك في الدنيا ومن العذاب الآخرة.

3- أن الجوارح تشهد على العبد يوم القيامة إذا أنكر ذنوبه، أو ادعى أن الملائكة ظلمته.

4- خطورة سوء الظن بالله، فإن من أساء الظن بالله أهلكه الله بسبب سوء ظنه.

تفسير المقطع الثالث من سورة فصّلت

﴿ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ
ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا
وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا
كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ
نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ
تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ
تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا
تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ
قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

قولــه تعــالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾،

الخطاب للكفار، **أي:** أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هيّأ للكفار قُرناء، جمع قرين، **والقرين:** هو الصاحب الملازم للشخص الذي لا ينفك عنه(1)، والمقصود به هنا قرناؤهم من شياطين الجن والإنس(2)؛ لأن الشياطين هم الذين يُحسّنون للإنسان الباطل، وما من إنسان إلا وله قرينٌ من الجن، **كما في الحديث:** "ما منكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن، قالوا: وإياك يا رسول الله؟!، قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير"(3)، وقد يجتمع للشخص قرين من الجن وقرين من الإنس، فيزينان له الضلال والفساد، ويُوقعانه في الرذيلة، فزيّن لهم قرناؤهم ما تقدّم من أعمالهم السيئة، وما هم عازمون على فعله مستقبلاً(4)، **أي:** زينوا لهم كل عمل سيء من العقائد الباطلة والأعمال القبيحة، وإنما ذكر الأمام والخلف لبيان حرصهم على ذلك، ووجب عليهم العذاب الذي أعده الله لهم بسبب كفرهم، **كما قال:** ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ﴾[الصافات:31]، كما حق على أمم قد سبقت قبلهم من الجن والإنس وكانت على الكفر، ففعل هؤلاء مثل فعلهم، فدخلوا في جملتهم، فخسروا أنفسهم بهلاكها في النار.

ثم قال الله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ٢٦﴾،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 274).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 174).

(3) صحيح مسلم: (4/ 2167)، برقم: (2814).

(4) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 234).

هذا بيان لمحاولات كفار مكة المتعددة لإبعاد الناس عن التأثر بالقرآن؛ لأن كل من سمع القرآن بتدبر من الكفار تأثر به، كما حصل للطفيل بن عمرو الدوسي، فقد قابلوه قبل أن يدخل مكة وحذروه من سماع شيء من محمد ﷺ، حتى وضع في أذنيه القطن، فأسمعه الله شيئًا من القرآن فآمن[1]، فتواصى الكفار فيما بينهم بعد السماع للقرآن، خشية أن يُؤثر في نفوسهم، واتخذوا قرارًا بمنع سماعه، ومنع من يجاهر بتلاوته من المسلمين، كما فعلوا مع أبي بكر الصديق، فقد كان يُصلي بفناء داره ويقرأ القرآن ويبكي، فيستمع له نساء وأطفال من المشركين فيتأثرون بما يسمعون، فمنعه المشركون من ذلك[2]، وهذه هي حيلة العاجزين من أعداء الملة والدين في كل زمان ومكان، لأن الحق له قبول في النفوس، فلا بد أن تُسكِته، وما زال أعداء الإسلام اليوم ينطلقون من هذه القاعدة، فيمنعون الآخرين من سماع الحجة حتى لا يهتدوا بها، ثم يتشدقون بالحرية!!، كيف تُغلق القنوات التي تدعوا إلى الله، وتُفتح القنوات التي تدعوا إلى الباطل؟!، كيف تُحاصر المراكز والجمعيات التي تدعوا إلى الله، وتدعم المراكز والمنظمات التي تفسد المجتمع؟!!، ولم يكتفِ هؤلاء الكفار بمنع الناس من سماع القرآن، بل طلبوا منهم معارضته باللغو والباطل، أو أن يرفعوا أصواتهم بالكلام ليتشوش القارئ له، ويختلط الكلام على من أراد أن يستمع إليه فلا يفهمه، وما زال أعداء الإسلام يمارسون هذه الأساليب إلى اليوم،

---

(1) ينظر القصة بكاملها في: الخصائص الكبرى للسيوطي: (1/ 225).

(2) ينظر القصة بكاملها في: الروض الأنف للسهيلي: (3/ 214)..

والهدف من ذلك هو التحذير من القرآن وأتباع القرآن ودعاة القرآن وهزيمتهم، ولكن خيب الله سعيهم! فمنذ بعثته حتى اليوم (ألف وأربعمائة وثمانية وخمسين عامًا) وهم يحاولون، ولكنهم لم يستطيعوا أن يُلغوا القرآن ولا منهج القرآن ولا أتباع القرآن؛ لأن الله وعد بظهوره على كل الأديان، **كما قال:** ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة:33].

ثم قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾، وهذا وعيد لكل الكفار، ومن ضمنهم من عارض القرآن واستهزأ به، فيعاقبهم أعظم عقوبة في الآخرة على أسوأ أعمالهم في الدنيا، وهو الكفر ومعارضة القرآن ومحاربة أهل القرآن، وذلك الجزاء سيكون لهم في النار، وهي مقر إقامتهم ومسكن العذاب الدائم لهم، وسيبقون فيها مُخلدين لا يخرجون منها، بسبب عداوتهم لله وصدهم عن كلامه وعدم إيمانهم بآيات الله مع وضوحها وقوة حجتها.

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾، ثم أخبر الله عن ما يجري بين أهل النار من تخاصم بعد دخولهم جميعًا النار، فيطلب الأتباع من ربهم أن يريهم من أضلهم من فريقي الجن والإنس، من الشياطين الذين كانوا يسولون لهم، ويحملونهم على المعاصي، ومن الرؤساء الذين كانوا يزينون لهم الكفر، فيتبعونهم ويسيرون وراءهم، وإنما طلبوا رؤيتهما مع أنهما معهم في النار جميعًا؛ لأن

المُضِلين وهم القادة والسادة الكبار الذين أضلوا الناس يكونون في دركات سفلى، والمستضعفون في دركات عليا، فلا يرونهم، كما في قوله: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾[ص:62]، وذكروا الهدف من رؤيتهم وهو أنهم يريدون أن يرفسوهم ويدوسوا عليهم بأقدامهم، فيكونوا من المُهانين؛ أو ليكون مقرهم في الدركات السفلى من النار فيكونوا أشد عذابًا منهم(1).

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾، لما ذكر الله صفات أهل النار وعقابهم، ذكر صفات أهل الجنة ونعيمهم، ومن صفاتهم أنهم أتوا بالإيمان بشروطه، واستقاموا على الطاعة، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان عمل القلب، والعمل الصالح عمل الجوارح، واستمروا على ذلك طيلة حياتهم في الدنيا، فإذا قرُب أجلُهم نزلت عليهم ملائكة الرحمة تُبشرهم عند خروج أرواحهم من أجسادهم بأن لا يخافوا من المستقبَل، فإن الله قد وعدهم الفوز والفلاح والأمن والأمان، ولا يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، فقد عوضهم الله خيرًا منها، وبشروهم بأنهم من أهل الجنة التي وصفها الله لهم في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، فما وعدكم الله من ثواب ستجدونه فيها، فإن الله لا يُخلف الميعاد، ثم قالوا لهم تطمينًا لنفوسهم: نحن كنا معكم في الدنيا نسددكم

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 590).

ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك سنكون معكم في الآخرة نؤنس وحشتكم في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم[1]، وهذا يدل على أن القبر يكون على صاحبه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، ولكم في الجنة ما تحبه وتشتهيه نفوسكم، وما تطلبونه أو تدعون به أو تتمنوه فإنه يتحقق لكم دون مشقة، وكل ذلك ضيافة وعطاء وإنعامًا لكم من غفور لذنوبكم، رحيم بحالكم، فأنتم في ضيافة الرب الكريم الرحمن سبحانه.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾، لا أحد أحسن قولًا ممن يدعو إلى الله، فهو أحسن الناس قولًا عند الله وعند خلقه، والدعوة إلى الله تشمل الدعوة إلى التوحيد والاستقامة وسائر أعمال الخير، ويدخل في ذلك المؤذنون، فهم ممن يدعون إلى الله، وفي الآية بيان منزلة وفضل العلماء والدعاة إلى الله ومكانتهم، والعمل الصالح يشمل جميع الأعمال الصالحة، ومنها صلاة النافلة بعد الأذان، وكان ممن يعتز بدينه ولا يتخفى به ولا يخجل من إعلان عقيدته لمن حوله، فهو من المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، والاعتزاز بالدين عمل صالح، ولكنه خص بالذكر لأنه أريد به إغاظة الكفار الذين يُعلنون كفرهم[2]، وفي ذلك إشارة إلى أهمية الاعتزاز بالإسلام وإعلان المسلم لمبادئه كما يعلن الكفار كفرهم وفسادهم،

(1) ينظر: تفسير ابن كثير: (7/ 177).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 288).

كما تشاهدون اليوم من يُعلن أنه شاذ، أو أنه ملحد، أو مرتد عن الإسلام، دون خوف ولا خجل، فلماذا يخجل المسلم ويخفي تدينه واستقامته؟!! قال لي أحدهم: أنا أريد أُطلِقَ لحيتي وأنا أحب السنة، لكني أخاف من كلام الناس، فقلت له: سبحان الله!! تخجل من التمسك بدينك والاعتزاز به؟! وغيرك يخرج عريانًا ولا يخجل؟!.

وقولـــه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، المقصود بالحسنة فعل الخير، والسيئة فعل شر، ويمكن إطلاق الحسنة على حالة المؤمنين، والسيئة على حالة المشركين، ومن معانيها هنا الإحسان، والإساءة، أي: لا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها[1]، فمن أساء إليك فكن محسنًا معه وعامله بالحسنى، ولا تعالمه بمثل ما عاملك به، وإن كان يجوز لك ذلك، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى:40]، لأن الإحسان إلى المسيء سيُؤدي إلى إنهاء المشكلة معه، وسيتحول بسبب ذلك إلى صديقٍ محب لك، وهذه وصفة علاجية لحل مشكلة الاختلافات بين الناس، وخاصة الأهل والأقارب والزملاء والجيران ونحوهم، فالتعامل معهم بالإحسان سيقضي على الخلاف، ولا بد من الصبر والتحمل والإخلاص في ذلك حتى تأتي ثمرته، فإن وعد الله لا يتخلف، وقد جمعت الآية بين الأمر بتجاهل الرد على المسيء والإحسان إليه، وهناك قصص كثيرة تم فيها تطبيق

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 749).

هذا التوجيه من عدد من الدعاة والمصلحين فكان لها أثر عظيم في إصلاح حال عدد من المسيئين إلى غيرهم.

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾، الضمير يعود إلى امتثال هذه الصفة، وهي المعاملة والمدافعة بالتي هي أحسن، أي لا يحصل على هذه الرتبة – لأنها صعبة – إلا من تخلق بالصبر، وكان له نصيب عظيم من الأخلاق الفاضلة، وروّض نفسه عليها واحتسب الأجر عند الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ومده الله بالتوفيق والتسديد.

وقوله: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦﴾، ومن حاول ترويض نفسه على هذه الأخلاق الفاضلة، فإن إبليس لن يدعه، بل سيوسوس له ويدفعه إلى تركها، **والنزغ**: النخس، وحقيقته: مس شديد للجلد بطرف عود أو إصبع، والمقصود به هنا اتصال القوة الشيطانية بخواطر الإنسان فتأمره بالشر وتصرفه عن الخير[1]، فأمر الله أن لا تستسلم للشيطان ووساوسه، بل تستعيذ بالله من شره، وتعتصم بالله وتلجأ إليه، فهو الذي يسمع كلامهم ويعلم أحوالهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- بيان خطورة قرناء السوء وأثرهم على الإنسان.

2- بيان ما يجري من نزاع بين التابع والمتبوع في جهنم.

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 297).

3- بيان منزلة الإيمان والاستقامة عليه وجزائها في الدنيا والآخرة.

4- بيان مكانة الدعوة إلى الله وأجرها وثوابها عند الله، وأن الدعاة إلى الله هم أفضل الناس عملًا.

5- بيان أن التعامل بالإحسان مع الناس والصبر والتحمل والإخلاص سيقضي على الخلاف بينهم.

تفسير المقطع الرابع من سورة فصّلت

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟
فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ
تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم
مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا
جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ
عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ
عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

قـــول الله تعـــالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟

لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾،

ذكر الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لخلقه بعض الآيات الكونية التي تدل على انفراده بالألوهية، **ومنها:** خلق الليل، وخلق النهار، وجعْلهما يتعاقبان طوال الأيام والليالي، فهي آية وعلامة على قدرته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، والفائدة من تعاقب الليل والنهار، أن الليل للسكن والراحة، والنهار للعمل واكتساب الرزق، ومن آياته: طلوع الشمس والقمر بانتظام، وبوجودهما يصلح أمر الخلق في هذه الحياة، فتتغير المناخات، وتأتي الفصول المختلفة، وتنزل الأمطار، وتتنوع الثمار، وذكر الشمس والقمر هنا كنموذج للكواكب التي كانت تُعبد من دون الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وخصهما بالذكر لأنهما أعظم شيء في الكواكب، ومرتبط بهما الحساب والمنافع، ونهاهم عن عبادتها والسجود لها، والسجود معناه مطلق الخضوع والتذلل، ويُطلق غالبًا على الانحناء ووضع الجبهة على الأرض، وهو عبادة لا تكون إلا لله، فلا يسجد الإنسان لأمه ولا لأبيه، ولا تسجد المرأة لزوجها، ولا يُسجَد لصنم ولا لملِك ولا لأمير، ولا لمخلوق مهما كان، بل العبادة والخضوع لا تكون إلا لله وحده؛ لأنه الخالق العظيم، فاتركوا عبادة غيره من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه، فخصّوا الخالق بالعبادة وإخلاص الدين له، إن كنتم تعبدون الله حقًا[1].

ثم قال: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 750).

يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾، فإن بالغ هؤلاء الكفار في التكبر عن العبادة والسجود لله وحده، فالله غني عن سجودهم، لأن له عبيداً أفضل منهم، وهم الملائكة الذين عنده في السماء قد فُطروا على عبادته والتسبيح له وتنزيهه عما لا يليق به، ويحمدونه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الزمان كله، فهم مستمرون في ذلك، وهم لا يملُّون من عبادته، ولا يفترون منها، والسآمة: الملل والضجر[1]، فنفى عنهم الضجر والملل رغم استمرارهم في العبادة؛ لأنهم مفطورون على ذلك.

ثم قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أيضًا، في الأولى قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ﴾ يعني "مِن" للتبعيض، يعني من بعض آياته، **وهنا أيضًا قال:** ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾، **أي:** ومن العلامات الدالة على قدرته سبحانه، أنه يُحيي الأرض بعد موتها، وهو مثال مشاهد ضربه الله لمن يُنكر البعث والنشور، فإذا رأيت أيها المخاطَب! الأرض قد انقطع عنها المطر ويبست وصارت ذليلة جرداء لا حياة فيها ولا جمال، فإذا أنزل الله عليها المطر تحرك نباتُها بعد أن أخصبت تربتها، وأنبتت الزرع والنبات، وظهر عليها الخضرة والجمال، وعادت إليها الحياة بعد أن كانت جرداء غبراء لا حياة فيها، فالذي أحيا هذه الأرض بالمطر وأنبت فيها الزرع والثمر، قادرٌ على إحياء الموتى، فلا يقف أمام قدرته ومشيئته أمر، ولا يُعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

---

(1) التحرير والتنوير: (24/ 301).

ثـم قـال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾، **الإلحـاد:** الميـل عـن الـشيء، والمقـصود بـه هنـا الميـل عـن التـصديق بالآيـات إلـى التكـذيب بهـا، أو الإعراض عن تـدبرها، أو تفـسيرها بمعنـى باطـل[1]، فمـن يفعـل ذلـك لا يخفـى على الله، بل إن الله تعالى مُطلع علـى فعلـه هـذا، وهـو قـادر علـى أن يأخـذه أخـذ عزيزٍ مقتدر، ولكنـه أمهلـه لعلـه أن يتـوب مـن فعلـه هـذا، وهـو أسـلوب خـبري، ولكنه يفيد التهديد والوعيد للمكذبين، ثم بيّن الفرق بين حـال المـؤمنين وحـال الكـافرين في الآخـرة، والاسـتفهام تقريـري تعجبـي، والمعنـى: أفمـن يـأتي يـوم القيامة خائفـًا ويلقى في النار خير؟!، أم مـن يـأتي آمنـًا ويـدخل الجنـة؟!، **فـالأول** حال الكافر المتكبر، **والثاني** حال المؤمن المتواضع، وكل شخص يختار مصيره في الآخرة من الآن، فهل تريـدون أن تكونـوا آمنين بـين يـدي الله ومـصيركم إلـى الجنة، أو تبعثون خائفين وتُلقيكم الملائكة في جهنم؟!، فـاعملوا مـا شـئتم مـن عمل من خير أو شر، فمـرجِعكم إلينـا، وسـيجد كـل عامـل جـزاء عملـه، لأن الله علـيمٌ بجزئيـات أعمـالكم، ولا يخفـى عليـه شـيء مـن أحـوالكم، وهـو أسـلوب خبري، ولكنه يفيد التهديد والوعيد للمكذبين.

ثـم قـال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾، ثم شنّع على الكفار من قريش كفرهم وإعراضهم عن القرآن الذي جـاءهم بـه محمـد ﷺ، وسـماه ذكـرًا؛ لأنـه

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 594).

يُذكر ويعِظ ويُرشد ويُوجه، فكيف كفروا به وهو كتابٌ منيع الجانب لا يتخلل إليه باطل ولا خطأ؟!، فإن منعته وعزته من جميع الجهات وجميع الأحوال جعلت الباطل بعيدًا عنه، ولا يستطيع أحد أن يُحرفه أو يُبدله أو يزيد فيه أو يُنقص منه؛ لأن الله أنزله وهو الحكيم الحميد، الحكيم في تشريعاته وتقديراته، والمحمود على كل حال وبكل لسان، وقد وصف القرآن هنا بستة أوصاف، وهي[1]: أنه ذكرٌ بمعنى يذكر الغافلين ويوقظهم، وهو ذكرٌ للعرب بمعنى السمعة الحسنة لهم بين الأمم، وعزيزٌ وهو الشيء النفيس الذي يدافع عنه ويحمى، ويغلب ولا يغلب، ولا يتطرق إليه الباطل ولا يخالطه، ومشتمل على الحكمة وهي المعرفة الحقيقية، ومستحق الحمد الكثير، وفي ذلك إشارة إلى حماقة الذين كفروا وسفاهة آرائهم، إذ فرطوا بهذا القرآن الذي فيه أسباب فوزهم في الدنيا وفي الآخرة، وفيه إشارة إلى فضل الله على أمة محمد ﷺ، حيث حفظ لها كتابها، فلم يحصل له تبديل ولا تحريف كما حصل للكتب السماوية السابقة.

وقوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾، الخطاب لمحمد ﷺ، وفي تعيين القائل له والمقول، **قولان**[2]، **الأول**: أن القائل هم الكفار من قومه، والمقول له هو التكذيب، **والمعنى**: ما يقول لك الكفار والمشركون من قومك إلا ما قاله الكفار السابقون لرسلهم،

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 308).

(2) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 54).

وهو أنه ساحر وكذاب وكاهن ونحوها، **والثاني**: أن القائل هو الله، والمَقول له هو الرسالة والنبوة، **والمعنى**: ما نوحيه إليك إلا ما أوحيناه إلى الرسل من قبلك من التوحيد والأحكام والتوجيهات، والأول أرجح للسياق، فذكر المغفرة بعده يدل على أن المقصود بالقول هو القول الباطل، وهو الكفر والتكذيب، فإن الله يغفر لمن تاب منه وآمن، وهو شديد العقاب لمن أصر واستمر عليه، والعقاب الأليم يكون في الآخرة في جهنم، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾، هذا جواب على سؤالٍ مُقدّر، **أي**: لو أنزلنا القرآن بلغة العجم فماذا كنتم ستقولون عنه؟! ستقولون: كيف يكون القرآن عجمياً والمُخاطَب به عربياً؟!، والاستفهام استنكاري تعجبي، ولقلتم: هلّا بيّنت آياته بالعربية حتى نفهمه؟! وستكون هذه حجة لكم للتكذيب به، وهذا الكلام جاء على طريقة الافتراض، وفيه إشارة إلى أن هؤلاء القوم لا تجدي معهم الحجة، ولا ينقطعون عن المعاذير؛ لأن جدالهم ليس لطلب الحق، وإنما هو للتعنت وترويج أهوائهم[1]، ثم أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يبلغهم أن من آمن بالقرآن وقبله؛ اهتدى به وخرج من الشكوك والضلال والحيرة إلى الهداية والاستقامة والنور والإيمان والسعادة والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وهو شفاء لأمراضه الحسية والمعنوية، فهو شفاء من الجهل والشك

(1) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 312).

والنفاق، وشفاء من القلق والاضطراب، وشفاء لسائر ما يتعرض النفس البشرية من الأمراض المعنوية والحسية، كما قال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾[الإسراء:82]، وعلى من أراد أن يستشفي بالقرآن أن يُخلص النية، وأن يعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويكون مُتيقنًا من حصول ذلك له، وأن لا يستخدم القرآن على سبيل التجربة، فلا تصلح التجربة مع القرآن، بل لا بد من اليقين والإخلاص في التعامل معه، ثم وصف حال من لا يؤمنون بالقرآن وأعرضوا عنه، فحالهم عند سماع القرآن كحال الأصم الذي في أذنه ثقل يمنعه من السمع، والمقصود به هنا الصمم المعنوي، وهو عدم الاستفادة والانتفاع بما يسمع من القرآن، ويكون حاله مع نور القرآن كحال الأعمى مع نور الشمس، فلا يهتدي به ولا يستفيد منه، كما لا يستفيد الأعمى من نور الشمس، ومثل حال الكفار عند سماعهم للقرآن، كحال الذي يُنادى من مكان بعيد فيسمع صوتًا ولا يفهم شيئًا، والمقصود من هذه التشبيهات: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهداه، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيرًا، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرهم به[1].

ثم قال الله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾، وقد سبق أن آتى الله موسى التوراة، فكان موقف قومه منها مثل موقف كفار قريش من القرآن، فآمن بها بعضهم وكفر بها بعضهم، والكلمة هنا هي سنة الإمهال، وتأخير العذاب

(1) ينظر: تفسير السعدي: (ص: 751).

عنهم، فقد سبق ذلك في علم الله وأقداره المكتوبة أن يُمهل الكافر حتى يأتي وقت هلاكه، ولولا ذلك لعاقب الله الكافرين، وفصل بين المؤمنين والكافرين في الخلاف في الحال، ولكنه أخّر ذلك إلى أجل اقتضته حكمته، وهو يوم القيامة، وإن الكفار لفي شك شديد الريبة من كتابك المنزل عليك، وهو القرآن الكريم[1].

ثم قال سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾، أي: من عمل عملاً صالحًا في الدنيا، فهو المنتفع بثواب عمله لا غيره، ومن عمل عملاً سيئًا في الدنيا، فوزر تلك الأعمال على فاعلها، وهي قاعدة مطردة تدل على عدل الله في الخلق، فلن يمنع العبد ما استحق من الأجر، ولن يُعاقب بسيئة لم يعملها، وظلّام: صيغة مبالغة من الظلم، وهي تدل على تمام عدل الله تعالى، حيث جعل كل درجات الظلم في رتبة الظلم الشديد[2]، أي: أنه لا يقع منه أدنى ظلم لعبيده؛ لأنه قد حرّم الظلم على نفسه وجعله بينهم محرمًا، وما يجري يوم القيامة هو الجزاء بالفضل لأهل الجنة، أو العقاب بالعدل لأهل النار.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- تنوع آيات الله في الكون، وهي تدل على وحدانية الله وانفراده بالألوهية.

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني: (4/ 597).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (24/ 319).

2- أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حفظ القرآن من التبديل والتحريف، ولم يتطرق إليه شيءٌ من ذلك.

3- أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قطع الحجة على المشركين بإنزال القرآن بلغتهم وجعله حجةً عليهم.

4- أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يظلم مثقال ذرة.

تفسير المقطع الخامس من سورة فصّلت

﴿ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا
تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن
شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ
ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ
بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي
عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ
أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾ قُلۡ
أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ
بَعِيدٖ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ
يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ
بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾﴾، **أي**: إلى

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفوض علم ذلك، لا إلى غيره، فهو وحده الذي يعلم موعدها، ولم يُعط هذا العلم لأحدٍ من الخلق، لا مَلَك مُقرّب، ولا نبي مرسل، **وفي الحديث:** أن جبريل سأل النبي ﷺ: "متى الساعة؟"، فقال: "ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"[1]، وقد كان المشركون يُكثرون من السؤال عن موعد الساعة، استهزاء واستعجالاً بها، **كما في قوله:** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:42]، **فكان الجواب:** أن موعد قيام الساعة ومعرفة زمانها يرجع إلى الله وحده، وهو الذي يعلم ما تخرجه أكمام النخيل، وهو الجف الذي يخرج من النخلة محتويـًا على طلع الثمر، من الثمر بقدره وجودته وثباته أو سقوطه[2]، كما يعلم عدد الحبوب والثمرات والزهرات التي في أشجار الأرض كلها، وهو الذي يعلم محتوى أرحام كل أنثى من الأجنة، فيعلم متى تحمل ونوع الحمل، ويعلم موعد ولادة الحمل على سبيل الدقة، وصحيح أن العلم الحديث تطور، وصاروا يكتشفون ما في الأرحام من الأجنة، ولكنها في مراحل محددة، ولا يعلمون ذلك على وجه الدقة، وإنما على سبيل التقريب، واذكر يا محمد للمشركين اليوم الذي يُناديهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه، وهو يوم القيامة، والنداء هو الصوت المسموع، فيسألهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دوني، وسماهم شركاء له بناءً على اعتقادهم فيها، وهو نداء توبيخ وتقريع لهم، فكان ردهم على ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أعلمناك واعترفنا بين يديك، لا أحد منا

---

(1) صحيح البخاري: (1/ 19)، برقم: (50).

(2) ينظر: التحرير والتنوير: (25/ 6).

يشهد أن لك شريكًا، فكذّبوا أنفسهم، واعترفوا بكذبهم وبطلان دعواهم في الدنيا، أو لم نشاهد منها شيئًا[1]، فقد غاب عنهم ما كانوا يدّعون من الأصنام، فلم تُبعث معهم ولم تنصرهم وتدافع عنهم في ذلك اليوم العصيب، وأيقنوا أنه لا مهرب من عذاب الله ولا مفر منه.

ثم قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾، **أي:** لا يمَل، فطبيعة لإنسان أنه لا يشبع من المال، فالخير يُطلق على المال ويُطلق على كل ما فيه خير للإنسان، بمعنى أن الإنسان لا يشبع منه، **وفي الحديث:** "لو كان لابن آدم واديان من مال لتمنى الثالث"[2]، فهو يحبه كثيراً، **كما قال تعالى:** ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:20]، وإن أصابه الشر من مرض وفقر وحاجة أُصيبت نفسُه باليأس والقنوط، وهذه من طبيعة الإنسان أيضًا، إلا أن المؤمن أكثر تهذيبًا لنفسه وترويضًا لها وإبعادًا لها عن الصفات السيئة، وتبقى هذه الصفات متجذرة في الكافر بقوة، فهو يُحب الخير وييأس إذا أصابه الشر، **والقنوط:** أشد أنواع اليأس، حيث تصاب نفسه باليأس وتترقى حتى تصل إلى مرحلة القنوط، وهي أعلى مراتب اليأس، وإذا أعطى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الإنسان رحمة وهي

---

(1) ينظر: تفسير النسفي: (3/ 241).

(2) صحيح البخاري: (8/ 92)، برقم: (6436).

النعمة، وتشمل كل خير من الصحة والعافية والمال والولد ونحوها، وتلذذ بها وذاق ثمرتها من بعد ما أصابه من الضراء وهي المصائب، وتشمل الفقر والمرض ونحوها من الشرور التي تصيب الإنسان؛ فإنه ينسى المنعم سبحانه ويكفر بنعمته، وينسب حصول هذا الخير إلى نفسه، وأنه حصل عليه لأنه مستحقٌ له، أو حصل عليه بذكائه ونشاطه وتدبيره وتفكيره، ثم يزداد عتوًا ونفورًا وينكر قيام الساعة، ولإن قامت الساعة فعلاً فسأكون من المُكرمين، وستكون لي العاقبة الحسنة عند الله؛ لأنه قد كرمني بنعمه في الدنيا، وسيُكرمني بها في الآخرة، فأبطل الله دعواه تلك، وتوعد الكفار بإخبارهم بحقيقة ما عملوا من الأعمال الموجبة للعذاب في الآخرة، فقد أعد الله لهم في جهنم عذاباً بالغ الشدة والغِلظة لا يفتر عنهم.

وقوله: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ٥١﴾، بيان لطبيعة الإنسان غالبًا، وهي الغفلة عن ذكر الله، والإعراض عن شكره حال نزول النعمة به، والتكبر والتعاظم، وظن أن هذه النعمة أتت إليه لاستحقاقه لها، أو أنه اكتسبها بذكائه وفطنته، وإذا نزل به الشر من مرضٍ وفقر ومصيبة أقبل على الله يدعوه ويتضرع إليه ليرفع ما نزل به من ضر وشر، والدعاء العريض: هو كثير الألفاظ قليل المعاني، وذلك لجهله وقلة فقهه بآداب الدعاء، فهو كثير الشكوى، قليل الصبر والتحمل، وفي الآية نقد لسلوك الإنسان في الحالتين، فهو لا يشكر ربه إذا أنعم عليه، ولا يصبر على بلائه إذا ابتلاه.

ثم قال سبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ

أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾، هذا سؤال لكفار مكة، ومعناه: لو تأملتم في هذا القرآن لدعاكم تأملكم إلى الإيمان به وتصديق أنه من عند الله، ولكنكم كفرتم عناداً وتكبراً بدون نظر وتأمل فيه، فأوقعتم أنفسكم في الضلال الشديد، ولا أحد أكثر ضلالاً ومخالفة للحق منكم بعد ظهور حجته ووضوحها.

وقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾، والخطاب للمشركين، لكنه عام لكل الخلق، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعد خلقه أن يُريهم الآيات الدالة على صدق أنبيائه ورسله، وأن القرآن حق، وأن محمداً ﷺ رسول يوحى إليه، وهذه الآيات مبثوثة في الكون كله، وفي أنفس الخلق، ويدخل في ذلك فتح البلدان المختلفة بالإسلام وفتح مكة ونحوها[1]، فهي من ضمن الآيات الدالة على صدقه، ومع تقدم العلم تظهر كل يوم آية وحجة وبرهان على صدق القرآن والسنة، وهو ما يسمى اليوم بـ: (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة)، وهو باب واسع من أبواب العلم الحديث، تدعمه الاكتشافات العلمية في الكون والأنفس التي تؤيد ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وقد أسلم بسببها عدد كبير من العلماء والباحثين الغربيين، وهذه الآيات كلها شاهدة على صدق محمد ﷺ، وما جاء به، وكفى لصدقه أن الله يشهد له بالرسالة، وأن القرآن الذي جاء به حق، ولو كذبه الخلق أجمعون، والاستفهام تقريري تعجبي، والمعنى: لو كانوا يريدون الحق لاكتفوا بشهادة ربهم الذي هو على كل شيء شهيد.

(1) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: (4/ 57).

ثــم قــال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾، والواقع أن المشركين يشكّون بالبعث والنشور وملاقاة الله يوم القيامة، وهـو ما جعلهم بعيدين عن الإيمان والعمل الصالح، فمن ينكر البعث والحساب فإنه لا يستعد لذلك الموقف، وسيكون حاله في الدنيا كحال الحيوان، وأن شكّهم وغفلتهم عن الآخرة لن تعفيهم من الحساب والعقاب، فالله محيطٌ بهم وقادرٌ على جمعهم ومحاسبتهم على كفرهم.

فوائد وهدايات من الآيات:

1- اختصاص علم موعد قيام الساعة بالله تعالى، فلا يعلم به ملك مقرب ولا نبي مرسل.

2- أن الحكمة من إخفاء علم قيام الساعة حتى يبقى الإنسان على استعداد لها.

3- أن من طبيعة الكفار أنهم لا يشكرون ربهم إذا أنعم عليهم، ولا يصبرون على بلائه إذا ابتلاهم.

4- إحاطة علم الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وقدرته بالخلق، فلا يغيب عنه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

فهرس المحتويات